

﴿ تأليف ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رحمه الله ورضى عنه

قررت وزارة المعارف العمومية كتاب الوحي المحمدى لطلبة كلية دار العلوم

(الطبعة الخامسة . أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الوحي المحمدي

ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام
دين الأخوة الإنسانية والسلام

السيد الإمام محمد رشيد رضا
صاحب المنار
(١٨٦٥-١٩٣٥)

بطاقة فهرسة

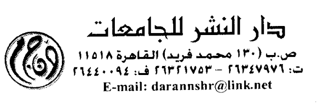
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

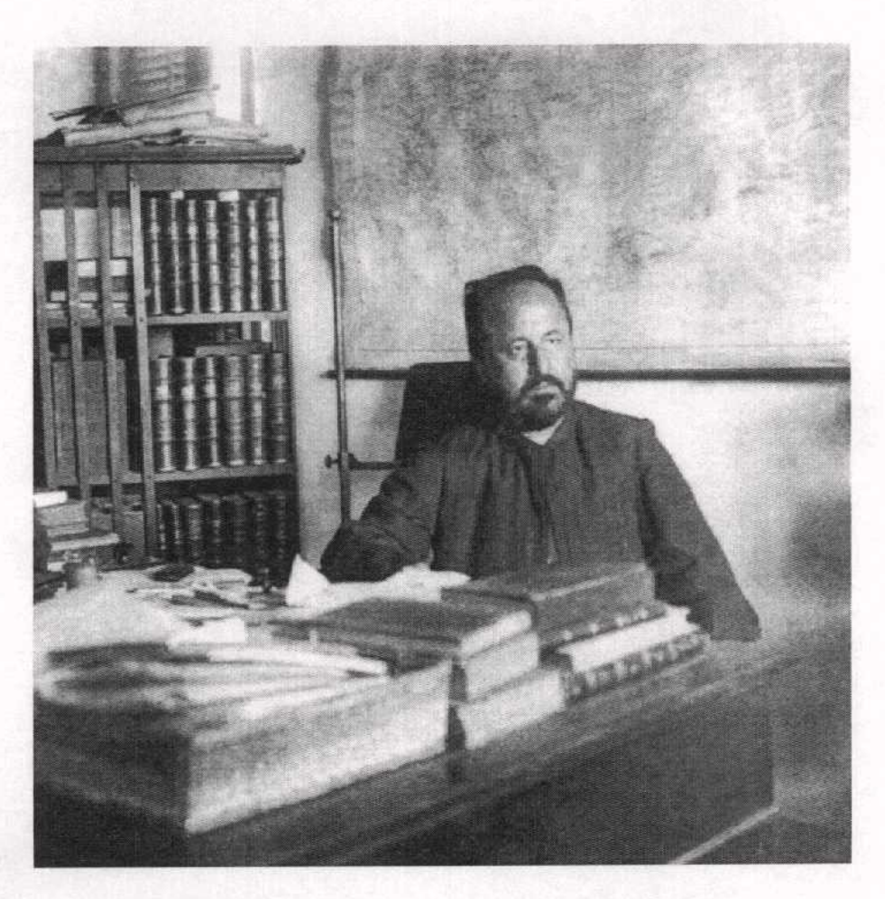
رضا، محمد رشيد، ١٨٦٥ – ١٩٣٥ .
الوحي المحمدي: ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام دين الإخوة الإنسانية والسلام/ محمد رشيد رضا – ط١ – القاهرة دار النشر للجامعات، ٢٠٠٨.
٣٦٠ص، ٢٤ سم.
تدمك ١ ٢٦٢ ٣١٦ ٩٧٧
١ – الإسلام – دعوة .
أ– العنوان
٢١٣

* تـاريخ الإصـدار: ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م
* الناشـر: دار النشر للجامعات – مصر
دار المنار – أمريكا
* رقـم الإيـداع: ٢٠٠٨/٢٨٩٠
* الترقـيم الـدولي: ISBN: 977- 316 – 262 - 1
* الكـود: ٣/٢٣٨

Dar Almanar
6012 Beard Ave N, Minneapolis, MN 55429
612-730-7217 daralmanar@hotmail.com



دار النشر للجامعات
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ – ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤
E-mail: darannshr@link.net



السيد الإمام محمد رشيد رضا

تصوير والدي السيد محمد شفيع رضا



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد . .

هذا الكتاب نشره جَدي السيد الإمام محمد رشيد رضا الحسيني الحسني في سني عمره الخيرة، بل إن الطبعة الثالثة قد صدرت قبل أقل من ثلاثة أشهر من وفاته، بعد أن نقحة ثلاث مرات. وكان لهذا الكتاب صدىً كبير في العالم، وتُرجم إلى عدة لغات، وكما هي عادته فعنوان الكتاب هو ملخص محتوى الكتاب.

وبتعريف سريع عن جَدي أقول:

ولد محمد رشيد رضا عام ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م، في بلدة القلمون، طرابلس، منتمياً إلى أسرة كريمة النسب من العترة النبوية الشريفة. وبيت آل رضا، بيت المشايخ، هو بيت علم ودِين وقيادة وريادة، فلقب (شيخ) في لبنان لا يعني فقط العلم والدِين ولكنه يطلق أيضاً على من بايعهم الناس على الرياسة والزعامة، فلا فرق بين مسلم ومسيحي في هذا اللقب. غير أن بيت آل رضا تميز بأنه من البيوتات القليلة التي تحمل معنيا اللقب.

نَشَّأَهُ والده على العلم، ثم التحق بالمدارس الدِينية في طرابلس، مدِينة العلم والعلماء، حيث تتلمذ على يد مشايخه: حسين الجسر، ومحمود نشَّابة، وعبد الغني الرافعي. وتأثر من عمه بكتاب إحياء علوم الدِين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

وعندما صار عمره ثلاثة وثلاثون عاماً «ضاقت عليَّ المملكة العثمانية بما رحبت، وعزمتُ على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل، واللسان والقلم، ومن مناهل العلم العذبة الموارد، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة، وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل

معه وبإرشاده في هذا الجو الحر»، فسافرعام ١٣١٥هـ الموافق ١٨٩٨م إلى الأسكندرية، ثم إلى القاهرة حيث «اتصلت بالأستاذ الإمام من أول يوم طلعت عليَّ فيه شمس القاهرة»، وصارحه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميداناً لعمله الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول الصحافة وأثرها في المجتمع، وأقنع التلميذ شيخه بأن الهدف من إنشائه مجلة المنار هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والشبهات والخرافات والبدع، فكان لمنار رشيد رضا الأثر الكبير في نهضة الأمة الإسلامية.

توفي محمد رشيد رضا يوم الخميس ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٥٤هـ الموافق ٢٢ من أغسطس - آب ١٩٣٥م، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره «فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام»، وذلك عقب تفسيره دعاء يوسف عليه السلام ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)﴾.

ونحن إذ نعيد نشر تراث السيد الإمام محمد رشيد رضا، نحرص على الإلتزام بأمانة النص، وحق المؤلف الشرعي في نشر كلامه كاملاً كما كتب وبدون تحريف، بما له وما عليه، أو كما قال الإمام مالك بن أنس «كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» ويشير إلى قبر النبي ﷺ، خاصةً أن رشيد رضا هو صاحب قاعدة المنار الذهبية «نتعاون على ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه».

والله نسأل أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه تعالى إنه هو السميع المجيب.

فؤاد سعيد بن محمد شفيع بن محمد رشيد رضا

محرم ١٤٢٩هـ

يناير — كانون الثاني ٢٠٠٨م

كتاب الوحي المحمدي

تصدير الطبعة الثالثة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وله الحمد والشكر، إياه نعبد وإياه نستعين

أما بعد فقد أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في موعد ذكرى مولد النبي ﷺ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ تيمناً بظهور نوره المُشرق الذي أضاء الكون كله، وإنما أضاءه بزوغ شمس هذا الوحي الإلهي ونزوله عليه، فما أتى على صدوره بضعة أشهر إلا وكانت نسخه قد نفدت. فأعدت طبعه في تلك السنة منقحاً مزيداً فيه قدر الثلث ونيفاً، ولولا خوف الملل على القارئين لزدته ضعفاً أو أضعافاً، ولذلك وعدت بأن أجعل له ثانياً، وأصدرت الطبعة الثانية في يوم عرفة الذي أنزل الله عليه في حجة الوداع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] تفاؤلاً بتجديد هذا الكتاب لدعوته ﷺ فما جاء يوم عرفة الثاني (سنة ١٣٥٣) إلا وكانت نسخ الطبعة الثانية قد نفدت، وشرعت في الطبعة الثالثة، وتعمدت تأخير إتمامها كالتي قبلها، لنشرها في موعد الأولى من هذه السنة (١٣٥٤).

وفي غضون السنة الماضية تمت ترجمة الكتاب باللغة الأوردية ونشرت في الهند وهي مترجمة من الطبعة العربية الأولى. وتمت ترجمته باللغة الصينية فيها أيضاً مرتين. ويتولى طبع الأولى في قبودان مترجمها الأستاذ صاحب مجلة ضياء الهلال وحمل الثانية مترجَمَهَا الأستاذ بدر الدين الصيني من الهند إلى مصر وعرضها عليَّ وكان يريد إرسالها إلى بلد آخر في الصين لطبعها فأشرت عليه بأن يزيد فيها كل ما زدته في الطبعة الثانية لأنها أجمع وأنفع، ولعلها لا تطبع إلا وقد نفدت نسخ الترجمة

الأولى، ولعله يعيد تنقيحها بمعارضتها على هذه الطبعة الثالثة فإنها أصح وأكمل. ولم يبلغني أن أحداً غير هؤلاء قد أتم ترجمته بلغة أخرى.

زدت في هذه الطبعة قليلاً من الفوائد، وإيضاحاً لبعض المسائل، وجعلت أكثرها في الحواشي، كما ترى في الحاشية الثانية من ص١٥٧، والأولى من ص ١٥٨، والحاشية (٢) من ص ١٨١، وما جعلته في الصلب أشرت إليه غالباً كشرعية عتق الرقيق من غير المؤمنين، وليس فيها شيء من المقاصد الأصلية المقصودة بذاتها.

علمنا إذن أنه أتى على ظهور الكتاب سنتان كاملتان، فأما انتشاره بالعربية فهو فوق المعتاد في الكتب الدينية، وقد قررت وزارة المعارف العمومية المصرية في هذه السنة صرفه لطلبة دار العلوم العليا وهو يدرس في بعض المدارس الإسلامية في دمشق وبيروت.

ويرجى نشره في السنة المدرسية الجديدة أيضاً بين طلاب الأزهر والمعاهد الدينية بمصر، وقد تولى رياستها شيخ الإسلام وخليفة الأستاذ الإمام (الشيخ محمد مصطفى المراغي) الذي كان أول من قدر الكتاب قدره، وقرأ نصفه في جلسة واحدة وأتمه في جلسة أخرى، ثم كتب في وصفه تلك الكلمة البليغة التي يراها قراؤه في صدر التقاريظ، وقد تنبأ- أو بشَّر- بأنه سيطبع في كل عام.

ترجمة الكتاب باللغات الإفرنجية:

ولكن قَصَّر المسلمون فيما يجب عليهم من ترجمته بسائر لغاتهم وبلغات شعوب الحضارة التي دعوناها به إلى الإسلام، وهي الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وهو واجب كفائي صرح بتمنيه كثير من أهل العلم والغيرة، وصرح بوجوبه بعض مقرظي الكتاب، فمنهم من تعسف وطالبني بهذه الترجمة أو بالسعي لها، ومنهم من أنصف وطالب به الأمة الإسلامية أو جمعياتها.

أما الأمة فلا تنهض بالأعمال العامة إلا بزعمائها أو جمعياتها، وأما هذه الجمعيات عندنا فلا تزال في سن الطفولة، ولا يرجى من أمثالها عمل عظيم كهذا، فهي أفقر وأضعف همة من جمعيات المرتدين عن الإسلام جملته وتفصيله كالبهائية،

والملاحدة المدعين للنبوة والمسيحية فيه كالقاديانية، دع جمعيات النصارى التعليمية والتنصيرية، التي تملك مئات الملايين من الجنيهات، وقد بثوا تعاليمهم في جميع أقطار الأرض، وهم يطمعون في تنصير المسلمين، على حين تتسلل شعوبهم من النصرانية سراعاً بسلطان ونظام كالشعب الجرماني، أو لِواذاً بدون سلطان دولي ولا نظام كسائر الشعوب، وهي تمهد السبيل لنسخ الإسلام لها، وحلوله محلها.

ولقد كان أرجى الجمعيات الإسلامية لهذا العمل في مصر جمعية «الدفاع عن الإسلام» التي هدمت باسم أقوى معول من معاول الإسلام قبل أن يتم بناؤها[1]، وإنما كان هذا الرجاء فيها منوطاً برئيسها الشيخ محمد مصطفى المراغي، وما كان السعي لهدمها إلا سعياً لهدم اسمه، وحرمان المسلمين من استعداده، ولكن الله نصره، وخذل من ناهضه. وجعل معول الهدم الذي كان بأيديهم سيفاً لنصر الإسلام بيده، فإذا بعصا موسى تلقف ما يأفك سحرة فرعون ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

فإن كان أهلاً للرجاء بأن يسعى لترجمة كتاب الوحي المحمدي ببعض لغات العلم الغربية تمهيداً لتبليغ الدعوة الإسلامية للناطقين بها -وتلك القوة الرسمية تكيد له- فأجدر به أن يكون أقدر على تحقيق ذلك بالفعل، وتلك القوة الرسمية وما وراءها من القوة الحقيقية طوع يده، ولن تكون ترجمة هذا الكتاب في موضع الثقة بها عند جميع الشعوب. كما إذا كانت من قِبَل شيخ الإسلام وتحت إشرافه، وكان نشره وبث الدعوة به بإرشاده أو إجازته، مع العلم بأن مؤلفه قلم من أقلامه، وعلم من أعلامه، وأحمد الله عز وجل أن جدد لي وللأمة بعودته إلى مشيخة الأزهر ذلك الأمل بالزعامة الإسلامية العاملة التي فقدناها بوفاة الأستاذ الإمام منذ ثلاثين سنة[2].

---

(١) راجع «المنار والأزهر» لرشيد رضا. (فؤاد)

(٢) ذلك ظن السيد رحمه الله بالشيخ المراغي، وقد تبين لكليهما الحق بعد موتهما.

إن الأمة لم تفقد بوفاة ذلك الإمام شيئاً من علم الإسلام، وإنما فقدت زعيم الإصلاح العارف بحاجة زمانه، والذي نال الزعامة بسمو عقله، واستقلال رأيه وفهمه، وعلو همته وشجاعته، وإنصافه بإعطاء كل ذي حق حقه من العلم الصحيح والإخلاص فيه، وما كان يعوزه للنهوض بالإصلاح العام إلا الاستقلال بالزعامة التي تمكنه من العمل، ولهذا كنا نسعى، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب.

إذن لقد كان من حكمة الله أن «كتاب الوحي المحمدي» لم يترجمه بلغات الإفرنج مَنْ ليسوا أهلاً لترجمته حتى لا أضطر إلى تخطئتهم، فيكون ذلك محبطاً لعملهم أو مضعفاً للثقة بترجماتهم، وادخرها العليم الحكيم لمن هو أحق بها وأهلها.

بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقون منهم:

لن يكون بلوغ الدعوة صحيحاً موجزاً إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته ويُعَرِّفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها، كما ترى فيما اطلعنا عليه من كتبهم وفي معجمهم العلمي الذي وسموه بدائرة المعارف الإسلامية، ومن خيبة الآمال بعلمهم ومصنفاتهم أن وجدت كتاب (مفتاح كنوز السُّنة) على غير ما كنت ظننت وخلاف ما قلت في التعريف به فإنني لم أستفد منه أدنى فائدة.

وأما المستقلون منهم وهم الأقلون فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم، فقضاياها عندهم مسلمات كأنها لا مجال للبحث فيها وقد قرَّبنا مسافة الخلف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ولا من مدارك عقله الظاهر، ولا ما يسمونه العقل الباطن، فإذا فرضوا أن للإنسان عقلاً باطناً لا تعرف حقيقته يدرك به من علم

الغيب والشهادة ما هو خفي وخارق للعادة في السنن المعروفة لكسب العلم من الحواس والفكر، وعللوا به ما يسمونه قراءة الفكر ومراسلة الأفكار، وإدراك المنوم بالاستهواء المغناطيسي -وقد بينا لهم أنه لا يكفي لتعليل الوحي المحمدي- فأي بُعد بين هذا العقل الخفي المفروض في باطن الإنسان وبين وجود عقل خفي مثله في خارجه (وهو ما نسميه المَلَك كما نسمي الأول الروح) يكون الوحي الحقيقي باتصال أحدهما بالآخر كاتصال الكهربائية الإيجابية بالسلبية، وتولد النور من اتصالهما، فإن ما زعموه من انقداح وحي القرآن من عقل محمد الباطن وحده محال كما قررنا، وهذا أقرب التعليلين والفرق بينهما قريب جداً، فما ثَمَّ إلا اختلاف الأسماء.

وفوق هذا وذاك قيام البراهين الكثيرة على وجود الله الخالق لكل شيء، الذي دون الإيمان به لا يمكن القطع بشيء من مسائل الكون وسننه، فإنهم كلما أثبتوا شيئاً عادوا فنفوه، وكلما أبرموا أمراً نقضوه.

لقد قرب ظهور الحق لأحرار هذه الشعوب وسنراهم بعد ترجمة هذا الكتاب يدخلون إن شاء الله في دين الله أفواجاً، وقد بطلت ثقتهم بكل ما عداه من الأديان.

ولعل «كتاب الوحي المحمدي» قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم وأرسله غيري إلى أناس منهم، ومن عاداتهم أن يبحثوا عن كل كتاب جديد له شأن، وقد شكر لي بعضهم هذه الهدية بكلمة لم يزد عليها كصاحب مفتاح كنوز السنة الدكتور فنسنك. وانفرد العلامة الدكتور موريتس الألماني منهم بإبداء رأي فيه، فأنشر هنا نص كتاب الشكر الذي تفضل به وهو:

برلين ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣

جناب الشيخ العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم

بعد التحية والاحترام فتفضلتم بإرسال إليَّ نسخة كتابكم الجديد «الوحي المحمدي» فالرجا قبول جزيل الشكر على هذه الهدية النادرة القيمة، وبالخصوص

على ما أظهرتم بها من عدم نسيان شخصي، ولا حاجة للتأكيد لكم أني اطلعت عليه بغاية الاهتمام، ولا ريب عندي أنه يجد كمثله في عالم العلماء.

وفي أثناء هذا الاطلاع قد عثرت على جملة مسائل ونقط تستحق ملاحظات لكن نظراً لحجم هذا الجواب الذي لا يتسع أن أدخل في جميعها أقتصر بواحدة منها أي في معنى كلمة نبيء الأصلي «ص٢١» عند العبرانيين القدماء فكان (نبيئاً) في أوائل عصرهم المتكلم بصوت عالٍ ثم الناطق في أمور أمته القضائية والسياسية أي مثل ناصح ومستشار لإرشادها، لكن شيئاً فشيئاً تتبعاً لتقدم الدين الإسرائيلي تغير موقعه وصفته فصار واعظاً وناصحاً في الأمور الدينية، لأنه كان معتقداً أن هذه الوظيفة صارت له بناء على أمر من الله بذلك، وأنه المتكلم باسم الله، والدليل على ذلك أنه يستعمل في أول كلامه أي نبوته هذه الكلمات: هكذا قال ياهُو (وهو اسم إله بني إسرائيل وغيرهم من الأمم الشرقية المنتشرة بين الحجاز وبين سوريا الشمالية) إلخ .

وفي الختام أكرر لكم الشكر الواجب مع تمنياتي الصميمة.   المخلص

دكتور موريتس

يقول هذا العلامة الكبير: إن هذه الهدية نادرة القيمة، وأنه اطلع على الكتاب بغاية الاهتمام، وأنه لا يرتاب في أنه يجد في عالم العلماء ما ينبغي لكتاب مثله، فهؤلاء العلماء قد بلغتهم دعوته، وفهموا ما تحديتهم به من الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ وما نزل عليه من وحي القرآن، ولم يقدر أحد منهم أن ينقضها أو يأتي بتعليل لهذه المعجزة الدالة على إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن في أسلوبه ومعانيه وما فيها من العلوم العالية التي لخصتها في المقاصد العشرة، ولتأسيس أقوم دين وأقوى دولة وأمة في عشر سنين قَلَبا أعظم دول الأرض وأديانه في ثلث قرن.

وما ذكره الدكتور من الملاحظة على بعض مدلول لفظ (النبي) عند اليهود فهو منقول من قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوسط، وقد ذكرت المعنى الذي أشار

إليه في كلامه على النبوة من الطبعة الثانية (ص ٢٥) وهو في (٤١) من هذه الطبعة الثالثة.

ولا أزال أتمنى لو يتفضل عليَّ بغير هذه الملاحظة، وأخص بالذكر ما عساه ينتقده من جوهر الموضوع ولبابه، وإذن أرويه عنه بنص وأبلغه جوابي عنه.

تعادي الأمم والدول وحاجتها إلى الإسلام:

لا تزال دول أوربة وأمريكة وشعوبها على ما وصفتها به في مقدمة هذا الكتاب من الشقاء والشقاق، والرياء والنفاق، وقد عقدوا في هاتين السنتين مؤتمراً بعد مؤتمر واتفاقاً بعد اتفاق، ولا يزالون كحمار الرحى يدور ولا يبرح مكانه، ليس للحق ولا للصدق عندهم قيمة، فقد ظلوا منذ عقدوا عهد (فرسايل) يجرون فيه مع ألمانية على قاعدة البرنس بسمارك «المعاهدات حجة القوي على الضعيف» حتى إذا اضطروها إلى نقضها سراً كما نقضوها جهراً، وتجديد قوة حربية جوية يرهبونها، أذعنوا لمساواتها لهم في الحقوق والكرامة الدولية كرهاً، وكانوا يمارون فيها ويأبونها طوعاً، بل صاروا يخافونها أن تسطو عليهم، ويجددون المحالفات الدفاعية التي أفضت إلى الحرب العامة السابقة، حتى ذلوا لمحالفة الدولة الشيوعية عدوتهم كلهم، وأنَّى لهم الفرار من حكم كتاب الله في الأمر بالوفاء بالعهود والنهي عن جعلها دخلاً وخداعاً لأجل أن تكون أمة هي أقوى من أمة فتكون المعاهدات أنكاثاً لا مندوحة عن نقضها كما بينا ذلك في محله.

بغوا واستعلوا على ألمانية وهم يعلمون أنها تعلوهم علماً وصناعة ونظاماً، وفرائصهم ترتعد فرقاً من استعدادها السري للحرب، وقد ذاقوا بطشتها القاهرة التي كادت تفتك بهم كلهم من قبل، ولكنهم اتكلوا على خداع معاهدتهم الخاطئة الكاذبة، وعلى تجديد محالفاتهم التي قصدوا بها أن يكونوا إلباً واحداً عليها، وأن تكون في عزلة لا تجد فيها ولياً ولا نصيراً.

صاح زعيمها المجدد (هتلر) صيحة بنقض تلك المعاهدة، وتجديد السلاح الجوي والبحري والتعبئة، فراعتهم كزئير الأسد يُجفل الغنم، وقالوا إن سِلم أوربة

وحربها رهن يديه، وعمرانها وخرابها بين شفتيه، وظلوا يصيخون السمع لما سيقوله في خطابه السياسي العام، حتى إذا ما ألقاه كان حجة بالغة له دامغة لخصومه، وصادعة لآخر حصن لدول الاتحاد الثلاثي في وجهه (اتفاق ستريزا) فعادت إنكلترة تفاوض ألمانية في قواتها الجوية والبحرية وكانت تستكبر عن هذا، وكشرت عن أنيابها لإيطالية فيما تحشره من جيوش وذخائر للعدوان على دولة الحبشة المعتصمة معهم بعهد عصبة الأمم، الذي هو في نظرها كسائر العهود الأوربية حجة القوي على الضعيف، وقد رأوا كيف رفضته بل رفسته كل من اليابان وألمانية برجلها، ولكن البلية كل البلية في تعارض مطامع الأقوياء، فزعيم إيطالية مغتر بقوتها جامح لفتح الحبشة أو نقصها من أطرافها، وإنكلترة أعز منها وأقوى، وإن هذا الصدع في اتحاد هؤلاء الأحلاف لا يلتئم، فهذا الزعيم المعتز بسلطانه الشخصي يرى خيبته بعد الشروع في وسائل الزحف قضاء على نفوذه، وأمته في اضطراب لا ينقذها منه إلا فوزه فيه، وألمانية لابد لها من استعادة جميع مستعمراتها، وهي أقدر على إخضاع إنكلترة في الهواء والماء. وماذا تفعل فرنسا إذا تركته إنكلترة؟

وجملة القول: أن هذه الدول وشعوبها لا تزال ولن تزال على ما وصفناها به في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب من فساد لا علاج له إلا هداية الإسلام، دين الأخوة الإسلامية والعدل والرحمة والسلام، فيجب المبادرة إلى تبليغ دعوته، وإقامة حجته، وهو قد أعد عقلاء المسلمين لتعميم هذه الدعوة عندما ينهض زعيم مسلم لكفالتها وتوحيد النظام لها، ويرى قارئه الشواهد على هذا فيما نشرناه من التقاريظ في آخره وفي مقدمتها قول شيخ الإسلام المراغي لمؤلفه «إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الإسلامي» إلخ وسائرها مؤيد لقوله، يدل على استعداد في الأمة لتنفيذه.

استعداد المسلمين لدعاية الإسلام:

ذكرت في آراء شيخنا الأستاذ الإمام من تاريخه (ص ٩٣٩ ج ١) أن أمم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الإسلام -إسلام القرآن والسنة لا إسلام المتكلمين والفقهاء- وأنه صرح بهذا مراراً في دروسه في الأزهر وفي غيره.

وأقول الآن: لكنه ما سمع لقوله هذا صدىً، ولا وجد على نار المسلمين هدىً، فكان يرجح أن هداية القرآن ستظهر في غيرهم من الشعوب الحية، وأن هؤلاء المسلمين الجغرافيين سيطلبون إسلام القرآن والسنة منهم تقليداً لهم كما يقلدونهم في الزينة والإباحة والإسراف في الشهوات الذي أفسدهم جميعاً.

وسمعت مثل هذا الرأي من الأستاذ المراغي وغيره من الأفراد، ولعلي أوسع علماً واختباراً لمسلمي الأقطار من كل هؤلاء وأجدر منهم بسوء الظن فيهم، ولكن ظهر لي بتقبل عقلائهم لكتاب «الوحي المحمدي» بما تقبلوه به من إيمان وشهادة ورجاء وثناء ودعاء، أن استعدادهم لهداية القرآن والدعاية له قد دخل في طور جديد.

ألم تر كيف تجاوبت أصوات المقرظين له في مصر وسورية والعراق وغيرها من الأقطار بقول القائلين: إنهم كانوا يفكرون ويتمنون ويتساءلون قبله عن كتاب يصلح للدعوة إلى الإسلام فلا يجدون، حتى إذا رأوه وجدوه الضالة التي ينشدون؟ أو لم تر كيف شاركهم فيها أئمة المسلمين وملوكهم المتقون؟

فعُلم من هذا أن المسلمين لا يمكن أن تعود إليهم الحياة إلا بمثل ما بدأت به سلفهم من روح القرآن وهدي الرسول ﷺ كما قال الإمام مالك «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وما ذلك إلا أن يكونوا على علم بالقرآن يوقنون به أنه مصلح لجميع البشر، وأن حملته يجب أن يكونوا أئمة البشر وهداتهم، والمصلحين لما أفسدته المدنية المادية من عقائدهم وأخلاقهم، فإن لم يملكهم هذا اليقين فلا رجاء في دينهم ولا دنياهم، ولكن نشر هذا اليقين فيهم يتوقف على نظام، وزعامة يثق بها الخاص والعام، وسيرون الدعوة له تُبث في هذا العام، وسنرى قدر استعدادهم لتأييدها بأموالهم وأنفسهم فَيَسُرُّنا إن شاء الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات].

محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار

كتاب الوحي المحمدي

تصدير الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله جل ثناؤه أن جعل قبول هذا الكتاب وتأثيره فوق ما كنا نقدر ونحتسب، على ما نظن من دقة اختبارنا للعالم الإسلامي، فإنه لم يكن إلا خلاصة عامة من تفسير المنار للقرآن الحكيم، وأكثر المسلمين قد هجروا القرآن هجراً غير جميل، إذ باتوا يجهلون أن فيه كل ما يحتاجون إليه من حياة روحية وأدبية وقوة سياسية وحربية، وثروة وحضارة ونعمة معيشية، بَلْهَ ما يلزم ذلك من الفوائد السلبية، كدفع طغيان الأجانب عليهم، وصد عدوانهم عن بلادهم، وإنقاذهم من استذلالهم لشعوبهم.

في القرآن كل ما ذكرت وما هو أكثر منه وأكبر، ولا يطلبونه منه، ومنهم من يطلبه من غيره - حتى الحياة الروحية يعتقدون أنه هو ينبوعها الأعظم، ويوجد فيهم من يطلبها من غيره (كالأوراد والأحزاب) بناء على أنها مستمدة منه، ويقل فيهم من يزيد عليها تلاوة ألفاظه، وإنما يتلوها تاليها منهم ومن غيرهم لأن لقارئها هي كل حرف منها عشر حسنات، لا للتدبر والادكار الذي أنزل لأجله القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد].

إن أكثر المسلمين يجهلون أن للقرآن تأثيراً صالحاً ما في حياتهم المعاشية والمدنية والسياسية، وهي أكبر همومهم ولا مرشد لهم فيها، ويجهلون البرهان العقلي المقترن بالشعور الوجداني، على أنه وحي الله لنبيه ورسوله، وأن في اتباعه سعادتهم في

دينهم ودنياهم، ولا يجدون أحداً من الذين يتولون تربيتهم وتعليمهم في بيوتهم ولا في مدارسهم يقنعهم به، ويربي فيهم ملكة الوازع النفسي لاتباعه، لا يعرفون كتاباً من كتب عقائدهم أو تفاسيره يهديهم إلى هذا، والمجهول المطلق لا تتوجه إليه النفس، فلا عجب إذا هجروا القرآن وأعرضوا عن تدبره.

إن تفسير المنار قد أُلِّفَ لاستدراك هذا التقصير في كتب التفسير، ولكنه لا يدرس في المدارس[1]، ولا يعتمد عليه في التربية، ولا يخطر في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه بيان كل ما تحتاج إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الإصلاح والهدى، وتجديد ثورته الأولى «وإنما لكل امرئ ما نوى».

كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ النبي ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم له، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، كما قال الإمام مالك رحمه الله، وكيف السبيل إلى إقناعهم بذلك ونحن ندعوهم إلى هذا منذ ثلث قرن؟ وقَلَّ منهم من سمع فاستجاب واستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب، حتى أهابت بهم صيحة هذا الكتاب باسم «الوحي المحمدي» وإعجاز القرآن للبشر بما تقتضيه حضارة هذا العصر وعلومه ومشكلاته السياسة والقومية، وتحدي علماء الإفرنج بعلومه وإصلاحه، ودعوتهم إلى الإسلام به، لإنقاذ العالم المدني من أخطاره، وانتياشهم من تياره، فكانت أول صيحة صخت الأسماع، فأصغت الآذان، وأشخصت الأبصار، وأهطعت الأعناق، بالقرآن للقرآن، فبادر أهل الغيرة إلى ترجمته بما اختلف من اللغات وبث دعوته في الأقطار، فأسر ما سرني من تأثيره، إنما هو توجيه القلوب إلى هداية القرآن، وروح القرآن، وإن اشترك فيه العربي والعجمي، والسني والشيعي والإباضي، ولا غرو فالقرآن فوق المذاهب والأجناس والأوطان، ومن آياته المحكمات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل

(١) ولكن بعض المدرسين في الأزهر وغيره يقتبسون منه مادة لدروسهم.

عمران:١٠٥] ومن خطابه للرسول ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[الأنعام:١٥٩].

وإنما مزية هذا الكتاب أنه بيَّن إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية العصرية التي يفهمها كل قاريء، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة في عشرة مقاصد مؤيدة بالشواهد، وذكَّرهم بما كان من إحداثه أعظم ثورة عالمية وانقلاب ديني مدني في الأرض، وعرض على أبصارهم ما لا مراء فيه من فساد حال شعوب الحضارة الغربية، وعجز علومهم وفنونهم عن تلافي شرها، وتدارك خطرها، بعبارة مختصرة، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة، تشير إلى ما تحتها من كنوز، وما وراءها من ركاز إسلامي مركوز، فلا تتعب القارئ الكسول، ولا تنفر السامع الملول.

من الدلائل على تقبل جميع المسلمين له بقبول حسن ما أثبتناه في التقاريظ الملحقة بهذه الطبعة، من كتب أئمة الفرق الثلاث الكبرى التي تضم الملايين من أهل القبلة، وما يرجى من مساعدتهم لنا على تعميم نشره. فأما إمام أهل السنة فإنه أبدى لنا عزمه على ذلك وكانت نسخ الطبعة الأولى قد نفذت[1]، وأما إمام العترة والشيعة الزيدية[2] فإنه عندما رآه كتب إلينا يستأذننا بطبعه في اليمن لتعميم نشره فيه، فكتبنا إليه بأننا سنعيد طبعه منقحاً مزيداً فيه، فكتب ثانياً ما يراه القراء في أول التقاريظ.

وقد كان بادر إلى المساعدة على نشره من أول وهلة صاحب السعادة السَريِّ، عزيز عزت باشا المصري فتبرع بثلاثين جنيهاً وزعنا بها نسخاً كثيرة في أوربة وغيرها، وتبرع صاحب السعادة محمد صادق المجددي وزير الأفغان المفوض في مصر بمائة نسخة منه للمؤتمر الإسلامي في القدس ليوزعها رئيسه على فروعه في

(١) قد تفضل بأخذ مئات من نسخ الطبعة الثانية ولم يقف بره عندها. (خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية) (فؤاد)

(٢) الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن. (فؤاد)

الأقطار، وتبرع آخرون بعشرات من النسخ على من يظنون انتفاعهم بالكتاب دع من انتدبوا للترغيب فيه، وبيعه لمن يشتريه، احتساباً لوجه الله عز وجل[1].

وأما التقاريظ فقد نشرنا طائفة مما حفظناه منها لبيان آراء المسلمين في الكتاب من الطبقات المختلفة، وأحسنهم رأياً مَن بيَّن أنه فيض من عين معين القرآن، اشتدت حاجة الناس إليه في هذا الزمان، وأنه جمع فأوعى أصول عقائده وخلاصة حكمه وأحكامه مع حججها، بأسلس عبارة وأوضحها، وأنه خير ما يدعى به إلى الإسلام، وما يدحض شبهات المعطلين الماديين، والملاحدة المتفرنجين، وما يفند تضليل دعاة التنصير، ويفضح ما يلبسون من شفوف الرياء والتزوير، وما يلبسون على غيرهم من إفك وتغرير. فقد أقيمت عليهم الحجة في هذا الكتاب بأنه لا يمكن إثبات أصل دينهم، ولا معجزات نبيهم (لا ربهم) إلا بثبوت هذا القرآن وأنه وحي من الرحمن.

وأما الذين استأذنونا بترجمته باللغات المختلفة فقد أذنا لهم كلهم لأول وهلة ولم نلبث أن علمنا أن أحد مترجميه باللغة (الأوردية الهندية) قد أتم عمله وهو تلميذنا الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي مؤسس جريدة (هند الجديد) في كلكتة، وهو ينتظر صدور الطبعة الثانية ليدخل في ترجمته ما يجده من تنقيح وزيادة. وإن مترجماً آخر بها ينشر ترجمته في بعض الصحف تعجيلاً للفائدة.

وكذلك يترجمه آخران باللغة الصينية: (أحدهما) الشيخ بدر الدين الصيني المدرس في دار العلوم الندوية في لكهنؤ (الهند) وصاحب المقالات المشهورة في الصحف العربية. (وثانيهما) صاحب مجلة ضياء الهلال، وهو يُدَرِّس تفسير المنار في بلده (قبودان) وقد كتب إلينا يسألنا عن كَلِمٍ في الكتابين، وسنرسل إلى كل منهما هذه الطبعة الجديدة ليعتمدا عليها.

---

(١) وقد وزع صاحب السعادة هارون باشا سليم أبو سحلي خمسمائة نسخة على وجهاء المنوفية، إذ كان مديراً لها بإرشاده لهم وأودعه في جميع مدارس المديرية، وتبرع صديق العرب والإسلام مستر كراين الأميركي بثمن مئات من النسخ توزع على خزائن الكتب العامة، والأندية العلمية والأدبية. (اهـ من الطبعة الثالثة).

وقد استأنيت من يريد ترجمته بالفارسية، لأجل وزارة المعارف الأفغانية، ولا أدري ما فعل من أذنت له بالترجمة التركية، ولا مدير المجلة الإسلامية في لندن (رفيواسلاميك) وقد أذنت له بترجمته باللغة الإنكليزية ونشره بها، بيد أنني سأرسل إليهم هذه الطبعة الثانية وأدع لهم الخيار في إيثارها على الأولى أو الاكتفاء بها[1].

إن الزيادات الكبيرة التي كنت وعدت بجعلها علاوات للطبعة الأولى ملحقة بالكتاب، اخترت في الطبعة الثانية أن أجعلها في جزء مستقل، وقد ختمت الكتاب بدونها، فهو قائم بنفسه، مستغن في إثبات الوحي المحمدي وإثبات النبوة به، والتحدي بما جاء فيه، وبناء الدعوة إلى الإسلام عليه، وإنما تكون تلك الملحقات تعزيزاً له.

وهذا بيان لما أشرت ووعدت به منها، مع زيادة يجوز أن يتبعها غيرها.

علاوات كتاب الوحي:

(١) أنباء الغيب في القرآن، وعلى لسان النبي ﷺ، مما ظهر صدقه في عصره ﷺ ومن بعده، ولا يزال يظهر منها ما يدل على صدقه، حتى يأتي أمر الله عز وجل.

(٢) سنن الله في الخلق ونظام القضاء والقدر، وقد أتينا في هذه الطبعة بالأصل فيها.

(٣) سنن الله تعالى في نظام الاجتماع، وقد ألممنا بها بعض الإلمام.

(٤) المسائل العلمية والفلكية التي كانت مجهولة في عصر التنزيل وعرفت بعده بقرون، وقد نَوَّهنا بها مراراً أوضحها في خاتمة الكتاب.

(٥) الأمور الصحية التي كانت مجهولة في جملتها أو تفصيلها وكشفها الطب.

(٦) أسرار العبادات وحِكَم التشريع التي لا يُعرف قدرها إلا بالنبوغ في علوم كثيرة، منها علم النفس وعلم الحياة وعلم الأخلاق وعلم الطب وعلم الاجتماع.

(٧) خلاصة مجملة من سيرته ﷺ وأخلاقه وآدابه وشمائله، الدالة على نبوته.

---

(١) ذكرت في تصدير هذه الطبعة الثالثة ما وصل إليه علمي ورأيي في هذة المسألة.

(٨) خلاصة من سيرة الخلفاء الراشدين، وأمراء الصحابة وقوادهم الفاتحين، وهدي السلف الصالحين، المجلية لإصلاح الدين وتفضيله على غيره.

(٩) الدلائل الثمانية التي حذفتها من خاتمة الطبعة الأولى المؤكدة لكون القرآن من عند الله تعالى مع زيادة عليها.

(١٠) الكلام في هذيان من عارض القرآن من المتأخرين الذين ادعوا النبوة والألوهية كالباب والبهاء الإيرانيين، وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي، وإيراد الشواهد من وحيهم الشيطاني الذي يضحك الثكلى.

(١١) شواهد من كلام كبار علماء الإفرنج وكتابهم في مزايا الإسلام التي فضل بها جميع الأديان بنبيه المرسل وكتابه المنزل.

(١٢) الشبهات الكبرى للماديين ولخصوم الإسلام من المليين ودحضها بالبراهين.

لولا أن أكثر الناس يفهمون من التفصيل بالإسهاب، ما لا يفهمون من الإجمال في الإيجاز، لاكتفوا منا في إثبات الوحي المحمدي بما ذكرناه من المطالب الأربع الأولى، إذ الغرض من ذكرها الدلالة على أنها مما يعلو علم محمد ﷺ الكسبي، واستعداده العقلي، ويستحيل أن تكون من وحي إلهامه النفسي، ولكنهم طالبونا بها، وصرَّح بعضهم بأننا أغفلناها.

ولولا أن هذا الكتاب وضع في قالب الاختصار لفصَّلنا فيه هذه المطالب، ونظمناه في سلك ما سميناه المقاصد، ولمددنا تلك المقاصد مداً، وأكثرناها عداً، فجعلنا الأول منها ثلاثاً، والخامس بعدد جمله عشراً.

وحينئذ يمكن بسط علوم القرآن الدالة على أنه من عند الله في عدة أسفار، كما صرَّحنا بذلك. (انتهى التصدير الثاني باختصار).

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

ارتقاء البشر المادي، وهبوطهم الأدبي، وحاجتهم إلى الدين

إن من المعلوم اليقيني الثابت بالحواس أن علوم الكون المادية تَثِبُ في هذا العصر وُثُوباً يشبه الطفور، وتؤتي من الثمار اليانعة بتسخير قوى الطبيعة للإنسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة، وكأن شعوبها عشائر وفصائل لأمة واحدة في هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها إخواناً متعاونين، سعداء متحابين، لو اهتدوا بالدين.

وإن من المعلوم اليقيني أيضاً أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مُطَّرِدَة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها، فهم يزدادون إسرافاً في الرذائل، وجرأة على اقتراف الجرائم، وافتناناً في الشهوات البهيمية، ونقض ميثاق الزوجية، وقطيعة وشائج الإسلام، وعقوق الوالدين، ونبذ هداية الأديان، حتى كادوا يفضلون الإباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل، بل رجع بعضهم إلى عيشة العري في أرقى ممالك أوربة وأمريكة علماً وحضارة، كما يعيش بعض بقايا الهَمَج السُّذَّج في غابات أفريقية وبعض جزائر البحار النائية عن العمران.

وإن من المعلوم اليقيني أيضاً أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الإنسانية من جنايتهم على أنفسهم - بإغرائها أضغان التنافس بينهم، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر في أشهر أو أيام معدودة صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة وتُفني الملايين فيها من غير المحاربين، كالنساء والأطفال والشيوخ، وبصرفها معظم ثروات شعوبها في هذا السبيل، وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها، وسلبها لثروتهم وحريتهم في دينهم ودنياهم. فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية، وكل ما عُقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا استعاراً. ولو حسنت نياتها، وأنفقت هذه الملايين التي يسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الإصلاح الإنساني العام لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء.

كل ما ذكر معلوم باليقين، فهو حق واقع ما له من دافع.

وإن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها ونمت بنمائها، فكان هذا برهاناً على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا، فضلاً عن سعادتهم في الحياة الآخرة، وإنما تتم السعادتان لهم بهداية الدين، فالإنسان مدني بالطبع، ومتدين بالطبع، أو بالفطرة كما يقول الإسلام.

من أجل ذلك فكر بعض عقلاء أوربة وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين، وأنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها، وتمنوا لو يُبعث في الغرب أو في الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها، ويقوِّمُ بها منآدها، لأن الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها[1]، وكان من يسمونه دين المحبة مِصْداقاً لقول الله تعالى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[المائدة:١٤].

---

(١) أول من نقل لنا هذا الرأي جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله.

بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن، وهو الدين الإلهي العام، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حُجُب تحول دون النظر الصحيح فيه، وعدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يُفْهَم. فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالإيجاز:

الحُجب بين الإفرنج وحقيقة الإسلام

(الحجاب الأول) الكنيسة أو الكنائس التي عادته منذ بلغتها دعوته، وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة، بدعاية عامة، فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان، ما لم يُعهد مثله في أهل ملة من البشر في زمن من الأزمان، وأَلَّفَت في ذلك من الكتب والرسائل، والأغاني والأناشيد والقصائد، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق. ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركناً من أركان التربية والتعليم في جميع مدارسها، والمدارس التي يتولى خريجوها تعليم الناس فيها، فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح والمسيحيين كافة، فيجب عليه عدواتهم ما استطاع. والحق الواقع أن الإسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، وأن محمداً ﷺ هو الفارقليط روح الحق الذي بَشَّر به المسيح عليه السلام[1].

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الأوربية، فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة، وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه، طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم.

وإذا كان رجال الدين قد ملئوا الدنيا كذباً وافتراء على الإسلام -ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والإيثار- فأي شيء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب، وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان، والقسوة والأثرة والخداع، وهو ما نراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الأوربية؟ بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الإسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وإن قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة»

---

(١) راجع آخر الفصل ١٥ وأوائل (١٦ : ١٢ – ١٤) من إنجيل يوحنا.

سياسية لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن دينية.

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيهما، على أنه لا خير فيهم ولا في دينهم، وأمكن هؤلاء الأعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج من مدارسهم السياسية الإلحادية، والدينية التنصيرية، من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتى نابتة المسلمين أنفسهم أيضاً، وهم يختارون من هذه النابتة الأفراد التي تتولى أعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي، بأي اسم من أسمائه من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب، أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك و إيران، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع.

وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الإسلام وموقظ الشرق يرى أن هذا الحجاب أكثف الحُجُب الحائلة بين شعوب أوربة الحرة والإسلام، ونقل لي الثقة عنه أنه قال: إذا أردنا أن ندعو أحرار أوربة إلى ديننا فيجب علينا أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين، فإنهم ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا -ورفع كفيه وفرَّج بين أصابعهما- فيرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل، فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى.

لا ننكر أن بعض أحرار الإفرنج قد عرفوا من تاريخ الإسلام ما لم يعرفه أكثر المسلمين، فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة في العلم والحضارة والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة، ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مُبَيِّناً لحقيقته كلها، ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جُلّ تأثيره في أنفس من اطلعوا عليه أن بعض الناس أخطئوا في بيان تاريخ المسلمين

فانتقد عليهم آخرون، فهو لم يهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الإسلام.

وأما عدم فهمهم القرآن كما يجب -وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة إعجازه وتشريعه وأدبه وإصلاحه، وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه إلى كتاب آخر ولا إلى نبي آخر- فلعله أربعة أسباب خاصة، وراء تلك الحجب العامة،وهي:

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن

جهل بلاغة القرآن:

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الإعجاز في أسلوبه ونظمه وتأثيره في أنفس المؤمنين والكافرين به جميعاً، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية في العرب، والانقلاب العام في البشر، كما شرحناه في هذا الكتاب. وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضوع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا عجز العرب الخُلَّص عن معارضته بها، ثم عجز المولَّدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان، هو الحجة الكبرى على نبوة محمد ﷺ، وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفراداً متفرقين منهم - فما القول في غيرهم؟ فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يَدَّعون أنهم يدركون سر هذا الإعجاز أو يذوقون طعمه، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم: إن الإعجاز واقع غير معقول السبب، فما هو إلا أن الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته، والصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا. ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القادياني الدجال، ومن ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد أخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس، وأضعف منه وأسخف بيان أستاذه الباب.

قصور ترجمات القرآن وضعفها:

(ثانيها) أن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، و هي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم، إن كان يزيد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كَلِمِه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمه تاماً صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه، وقصور لغته. وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارما ديوك بكتل الذي ترجمه بالإنكليزية وجاء مصر منذ ٣ سنوات فعرض على بعض علماء العربية، المتقنين للغة الإنكليزية، ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه، وصحح بمساعدتهم ما ذاكرهم فيه[١].

واعترف بذلك الدكتور مادريش المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته ترجمة ٦٢ سورة من السور الطوال والمئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل، وقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٢٦ ما معناه بالعربية:

«أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جل وعلا، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كُنْه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. والحق الواقع أن أكثر الكُتَّاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الأصل: لتأثير سحره - يعني تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي) وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجانب «المبشرين» يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن[٢].

---

(١) ولا يزال تصحيح ترجمته ناقصاً، وبلغني أنه سيصححها مرة أخرى.

(٢) ما يُسمع من تنصر بعض المسلمين ما هو إلا إكراه لبعض العوام الجاهلين، أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال، أو تربية لبعض الأطفال.

«ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو[1] كان نثراً جِدَّ طريف، يفيض جزالة في اتساق نسق، متجانساً مسجعاً لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع «الذي لم يُسمع بمثله» بلغة أخرى، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة «التي لا سعة فيها للتعبير عن الشعور» المَرِثَة[2] «التي لا تتنازل عن حقوقها» والقاسية. وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية، ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية» اهـ.

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعني أنه يشك في ذلك.

أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام:

(ثالثها) أن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحِكَم والأحكام والآداب، بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور -وهو ما بينا سببه وحكمته في هذا الكتاب- قد كان حائلاً دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به، كما فعلوا في آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، دون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القارىء نموذجها في هذا الكتاب، إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر في هذا العصر.

وقد عُني بعض الإفرنج[3] بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كل منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ

---

(١) يعني العرب الذين كانت تغلب عليهم البداوة حتى في حواضرهم كمكة و يثرب.
(٢) مؤنث المرث – كتعب: الصبور على الخصام، الذي لا يتنازل عن حقه.
(٣) هو المستشرق العلامة المسيو جول لا بوم.

في كثير من هذه المعاني وقصَّر في بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة[1] من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده، كما يَعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن باختصار، وما فصلناه منها في تفسير المنار.

الإسلام ليس له دولة ولا جماعات:

(رابعها) أن الإسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم، وتتولى نشره بالعلم، ولا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة إليه بالحجة، وليس لأهله مجمع ديني علمي يُرْجَعُ إليه في بيان معاني القرآن وهدايته في سياسة البشر ومصالحهم العامة، التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون، وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين، فيرجع إليها علماء الإفرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصها.

وأعجب من هذا وأغرب أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنها استغناء تاماً بأخذ عقائدهم عن كتب المتكلمين، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر، ولا سيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية، حتى صار المسلمون منا يأخذون عنهم العلم، كما كان أجدادهم يأخذون عنا، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء، وروايات الكذابين والضعفاء، ما قد يُعَد حجة على الإسلام

---

(١) أي لا يكفي في فهمها العلم بمتن اللغة العربية وقواعدها وبلاغتها وفقهها.

وأهله. كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم، والفساد والانحلال في حكوماتهم، قد اتُّخِذَ حجة على دينهم، فصاروا فتنة للذين كفروا به[1].

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته فيكف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان أخرى أَلِفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها؟ ودول حربية قد عادت الإسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحي القيوم، فهو باقٍ ما دام البشر في الأرض لا يزول أو يزولوا أجمعون.

هذه أظهر الأسباب لخفاء حقيقة الإسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الأجانب ومن المسلمين أيضاً وتمنيهم لو يُبعث نبي جديد بهداية إلهية عامة كافية لإصلاحهم.

ولما كان الإسلام هو دين الإنسانية العام الدائم الجامع لكل ما يحتاج إليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته، وان يدعوا جميع الشعوب إلى أخوته، وتكميل الحضارة الإنسانية بهدايته.

نتيجة هذه المقدمات
بيان هذا الكتاب لحقيقة الإسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الأنام

أما بعد، فإنني أقدم لهم هذا الكتاب الذي صنفته في إثبات «الوحي المحمدي»، وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه البشر من الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والمالي والحربي. وقد أطلت في بيان هذه المقاصد الأساسية بعض الإطالة لأنها مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر. وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا في سِفْرٍ كبير أو

---

(١) أي صاروا منفرين للكافرين عن الإسلام وصادِّين لهم عنه لئلا يكونوا مثلهم، واقرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥].

أسفار، يُجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها في أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه في تفسير المنار بإجمال قواعد كل سورة وأصولها في آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل في شرح آياتها.

على أنني لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض، وإنما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [يونس:٢] إلخ من أول سورة يونس، بينت به الدلائل القطعية على أن القرآن وحي من الله تعالى، كان محمد ﷺ يَعْجَزُ كغيره عن مثله بعلمه ولغته وتأثيره، وأنه ليس وحياً نفسياً نابعاً من نفسه، كما يزعم بعض الباحثين من الإفرنج وغيرهم، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحي كان قبله، وأن حجته قائمة على المؤمنين بالوحي التشريعي وعلى غيرهم.

ثم بدا لي في أثناء كتابته أن أجرده في كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الإفرنج و اليابان إلى الإسلام، بتوجيهه أولاً إلى علمائهم الأحرار، حتى إذا ما اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم إليه بلغاتهم، ولهذا زدت فيه على ما كتبته في التفسير، ووضعت له الخاتمة التي صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هي المقصودة بالذات منه.

ولو أنني قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يُغنيني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة في موضعها، على أن بعض التكرار متعمد فيها. ولكنني كتبته في أوقات متفرقة، وحالات بؤس وعسرة، لا أراجع عند موضوع منها ما قبله، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه، على صعوبة استحضار المعاني المتفرقة في سوره، وإلا بعض الأحاديث في مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها، وإني أحيل القاريء له في كل إجمال على مراجعة تفسير المنار في تفصيله، وفي كل إشكال على مراجعة محرره.

محمد رشيد رضا

منشيء مجلة المنار

وحررت هذه المقدمة في ليلة ذكرى المولد المحمدي من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (وهي على الأرجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر - ونشر الكتاب في اليوم ١٢ منه وهو يوم المولد المشهور).

فاتحة الطبعة الثانية

دعوة الناس إلى الإسلام عامة وأهل الكتاب خاصة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾[النساء].

ذُكر (الوحي المحمدي) في آيات متفرقة من السور المكية التي كانت تُتلى على منكري وحي النبوة من العرب، الذين كانوا أقوى البشر استعدادا لهداية هذا الوحي، إذا عقلوه وآمنوا به، لأنه لم يكن عندهم من التقاليد الدينية المسيطرة على القلوب والإرادات، ولا من أمشاج الفلسفة البشرية الشاغلة للعقول والأفكار، ولا من الاستبداد السياسي والاستعباد الروحاني السالبَين لاستقلال الأفراد والجماعات: ما يصرفهم عن فقهه وتدبره والاهتداء به، أو يأفكهم عن الدعوة إليه وحمايته، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل إقامته.

دعوة الوحي المحمدي في هذه الآيات:

ثم ذُكر في هذه الآيات من هذه السورة المدنية (النساء) ما لم يُذكر بمثلها في تفصيله وعموم الخطاب وخصوصه. فخاطب في أولها محمداً رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ثم وجه الخطاب في بعضها إلى الناس كافة، وفي بعض آخر إلى أهل الكتاب خاصة، فبدأ خطاب الناس كافة بأنه قد جاءهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾[النساء:١٧٠] الكامل الذي بشر به الأنبياء والرسل، والنبي الأعظم الذي كانت تنظره الأقوام والأمم، ولذلك ذكر معرفاً بأداة التعريف[1]، وأنه جاءهم بالحق من ربهم، وهو الحق المحض الذي جهله المشركون، واختلف فيه الكتابيون، فضلوا في هداية أنبيائهم ورسلهم، وكَفَّر بعضهم بعضاً، ولعن بعضهم بعضاً، وكُتب الفريقين واحدة، وقد بين لهم ذلك في الآيات التي قبل هذه الآيات مباشرة، وأهمها الخلاف

---

(١) كان اليهود ينتظرون ثلاثة من الأنبياء المصلحين: المسيح وإلياء والنبي المطلق الذي بشر به موسى ومَن بعده. ومن أدلة ذلك: ما جاء في الفصل الأول من إنجيل يوحنا وملخصه: أنه لما ظهر يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليهما السلام) وصار يعمد الناس في نهر الأردن أرسلوا إليه وفداً ليعرفوا أي الثلاثة هو؟ فسألوه: أأنت المسيح؟ قال لا، قالوا: أأنت إيليا؟ قال لا، قالوا: أأنت النبي؟ قال لا «٢٥» فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمد الناس إذا كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ إلخ فذكروا النبي مُعَرَّفاً، ولو قالوا له أأنت نبي؟ بالتنكير لما قال لا.

في رسولهم النبي الروحاني المصلح، المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أعاد ذكره ونهاهم عن الغلو فيه في هذه الآيات وهي مشتملة على المسائل العشر الآتية:

(الأولى) أن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى نوح أول رسول أرسله إلى الأمم. قص عليه خبره في السور المكية، وإلى النبيين من بعده، فوحيه إليه كوحيه إليهم، أي مثله في جنسه وموضوعه والغرض منه، فهو ليس بدعاً من الرسل ولا أولهم، ولكنه خاتم الرسل المكمل لهدايتهم، وخص بالذكر منهم أشهر أنبياء بني إسرائيل المعروفين عند أهل الكتاب المجاورين له في الحجاز وما حوله. وقد كانت دعوته ﷺ بلغت اليهود والنصارى جميعاً فيها، والمراد بالأسباط الأنبياء من سلالة أبناء يعقوب، عمم ثم خصص.

(الثانية) أن له تعالى رسلاً آخرين منهم من قص عليه خبرهم في السور المكية إجمالاً كقوله في سورة الأنعام بعد قصة إبراهيم مع أبيه وقومه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾[الأنعام: ٨٤] إلى قوله في الآية ٩٠ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام] وتفصيلاً في سورة الأعراف وهود ويوسف وطه والطواسين «الشعراء والنمل والقصص» وما دونهن. ومنهم من لم يقص عليه خبرهم من أنبياء سائر الأمم لعدم العبرة لقومهم ولجيرانهم بقصصهم، وعدم ظهور إقامة الحجة بها عليهم، وربما كان ذكر بعضها فتنة لبعضهم: يدعون أنها أسماء مخترعة، وقد جاء في بعض السور: أنه تعالى أرسل في كل أمة رسولاً، وترى هذا في موضع آخر من هذا الكتاب بشواهده، وهو حجة على أهل الكتاب الذين يحصرون فضل الله على البشر بالنبوة فيهم.

(الثالثة) أن وظيفة جميع الرسل تعليم الناس ما به يصلح حالهم، ويستعدون لمآلهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملاً بحسن الثواب، وإنذار من كفر وأفسد عملاً بالعقاب، وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال،

فتستعد لسعادة الدنيا بقدرها، وسعادة الآخرة من بعدها. وقد فصلنا في هذا الكتاب وجه الحاجة إلى هدايتهم، وعجز البشر عن الاستقلال بمعرفتها بعقولهم.

(الرابعة) شهادة الله تعالى وشهادة ملائكته بصحة هذا الوحي له ﷺ، وأورد هذه الشهادة مفتتحة بقوله ﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ [النساء:١٦٦]، وهو استدراك على إنكار معلوم من قرينة حال الكفار به ﷺ من المشركين وأهل الكتاب، ومما حكاه من قبل عن المشركين من الإنكار والمطالبة بالآية أو الآيات، كما تراه في سورتي الأنعام ويونس وغيرهما، ثم ما حكاه قريباً في هذه السورة (النساء) عن اليهود بقوله ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] الخ، فهو تعالى يقول له: إن أولئك المشركين ينكرون وحي الله إليك وإلى غيرك، وإن هؤلاء الجاحدين يكتمون الشهادة بنبوتك وبشارة أنبيائهم بها ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٦] الخ.

فأما شهادته تعالى فقد بينها بياناً مستأنفاً لوقوعها جواباً لسؤال مقدر، وهو قوله ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦]، أي أنزل هذا القرآن الذي أوحاه إليك متلبساً بعلمه الخاص الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، من تشريع وحِكَم وآداب وعبر وأخبار غيب سابقة وحاضرة وآتية، بأسلوب معجز للبشر وهو ما يفصله هذا الكتاب بالشواهد من السور العديدة - وأما شهادة الملائكة له فبما أخبر به تعالى من نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام عليه بهذا القرآن، وما أيده به يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر، وكذا غزوة الأحزاب وحنين، وفي أحوال أخر.

هذه الشهادة من الله، بهذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون إلا من الله حق، لا ريب فيه، وهي أظهر من شهادة يوحنا (يحي) للمسيح (عليهما السلام)، إذ روى يوحنا أنه قال (٥ : ٣١ إن كنت أشهد لنفسي فليست شهادتي حقاً ٣٢ الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق ٣٣ أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق). وكذلك هي أظهر وأقوى من شهادة المسيح لنفسه فيما رواه

يوحنا أيضاً إذ دعا اليهود إلى اتباع النور الذي جاء به (١٣٨ فقال له الفِرِّيسيون: أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً ١٤ فأجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق) وقد صدق عليه السلام في أن شهادته لنفسه حق. ولكن لا تقوم بها الحجة على الخصم، وأما شهادة الله تعالى لنبيه في القرآن فهي حجة على كل أحد يعجز عن الإتيان بمثله، فهي إذن حجة على كل أحد.

(الخامسة) الإخبار في الآيات ١٦٧ – ١٦٩ بحال الكفار الذين يتعدى ضررهم إلى غيرهم من الناس، بصدهم الناس عن سبيل الله وهي الإسلام وبظلمهم لأنفسهم وللناس، وكون جزائهم بحسب سنة الله في أنفس البشر ونظام الاجتماع أن يظلوا سائرين على طريق الباطل والشر الموصلة إلى عذاب جهنم، إذ لا يغفر الله تعالى لهم إلا بتزكية أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح الذي يهدي إليه الوحي، وقد صاروا بضلالهم في أشد البعد عنه، خلافاً لما يقوله الكفار من نيل المغفرة بجاه الشفعاء الشخصي مع بقاء الأنفس على فسادها، وظلمات ظلمها وجهلها، وهو ما سرى إلى أهل الكتاب من المشركين. إلا أن بعض النصارى خصوه بالمسيح وبعضهم جعلوه عاماً لجميع القديسين.

(السادسة) مخاطبة جميع الناس في الآية ١٧٠ بأن هذا الرسول محمداً ﷺ قد جاءهم بالحق من ربهم حقاً محضاً غير مشوب بالآراء والأهواء البشرية ولا بالتقاليد الكهنوتية[1] التي زادها رؤساء الأديان على ما جاءهم به الرسل الأولون فلم يعد أحد يعرف ما هو من الله تعالى وما هو منهم، فإن يؤمنوا بما جاءهم به هذا الرسول يكن خيراً لهم، وإن يكفروا فالله غني عنهم.

(السابعة) نداؤه أهل الكتاب في الآية ١٧١ بالنهي عن الغلو في الدين وعن قول غير الحق على الله تعالى، وبيانه لهم حقيقة المسيح الذي غلا اليهود منهم في الكفر به وتكذيبه والطعن في صيانة أمه الطاهرة – وغلا النصارى فيه فجعلوه رباً

(١) الكهنوتية نسبة إلى الكهنوت، وهي كلمة دخيلة من إصطلاح النصارى واليهود والوثنيين، معناها وظيفة الكاهن، وهو الذي يتولى بعض التقاليد الدينية المختلفة عند كل منهم.

وإلهاً، وأنه قد جاءهم بالحق فيه، وهو أنه بَشَر روحاني خُلق بكلمة الله التكوينية وهي ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، وبنفخ روح القدس في أمه الطاهرة، وبتأييد هذا الروح له في سائر أحوال نبوته وأن روحه عليه السلام قدسية من الله تعالى، لا حظ للشيطان فيها. والنصارى يقررون أن الأرواح قسمان: طاهرة قدسية، ونجسة شيطانية، والتمييز بينهما مزية تَحَدَّث بها زعيمهم بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثيوس.

(الثامنة) أمره تعالى أهل الكتاب بعد ما ذكر من حقيقة أمر المسيح أن يؤمنوا بما جاء به خاتم النبيين من الإيمان الصحيح بالله وتوحيده والإيمان برسله ونهيهم عن التثليث الوثني الهندي، وعن اتخاذ الولد لله عز وجل، وعلله بأنه المالك لكل ما في السموات والأرض، أي كل العالم، ولو كان له ولد لكان ولده مثله لا ملكه ولكان محتاجاً كاحتياج الإنسان إلى ولده، سبحانه هو الغني عن كل ما سواه: كما هو مبين في الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى[1].

(التاسعة) إنباؤهم في الآية ١٧٢ بأن المسيح نفسه لن يستنكف -أي لن يأبى أنفة وإستكباراً- عن أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون وهم أفضل الملائكة وأعلاهم منزلة عنده تعالى أن يكونوا عبيداً له، فإنه ما ثَمَّ في الوجود إلا رب أحد، كل من عداه عبيد له، فالمؤمنون الذين يؤمنون بربوبيته ويعملون الصالحات تعبداً له يوفيهم أجورهم ويزيدهم عليها ثواباً ونعيماً فضلاً منه وإحساناً. والذين يستنكفون ويستكبرون عنها يعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دونه -أي غيره- ولياً يتولى أمورهم ويغفر لهم، ولا نصيراً ينصرهم بشفاعة ولا فدية ولا غيرها، فلا يغرنهم ما يدعيه الرؤساء الذين استعبدوهم من أن خلاصهم وسعادتهم، يكونان من غير أنفسهم.

(العاشر) نداؤه للناس كافة في الآيتين ١٧٤ و ١٧٥ مبشراً لهم بأنه قد جاءهم البرهان العلمي العقلي من ربهم، وأنزل عليهم النور الساطع، وهو القرآن المبين

(١) راجع سورة يونس (١٠ : ٦٨) وآخر سورة مريم وغيرهما.

لجميع الحقائق، فلا ينبغي لأحد منهم أن يصغي بعدها إلى تقليد الرؤساء والكهنة الذين استعبدوهم لرياستهم وأهوائهم، وأثبت لهم أن الإيمان به، والاعتصام بحبله المتين، والدخول في نوره المبين، هو الذي يخرجهم من شقاء الدنيا ويدخلهم في رحمة خاصة وفضل عظيم، يمتازون بهما على غيرهم من البشر، ويهديهم بإرشاده وفيض نوره صراطاً مستقيماً من العلم والعمل، والحق والعدل والفضل، يكونون به سعداء الدنيا والآخرة.

***

هذا مضمون الوحي الإلهي المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين، المبين في هذه الآيات، ظهر نوره فاهتدت به العرب، وحملته إلى شعوب العجم، بالتبليغ له بالعلم والعمل، فاهتدى به السواد الأعظم ممن بلغتهم دعوته من المليين الكتابيين، والمجوس والوثنيين، والهمج المعطلين، لأنه دين البشر أجمعين. وقاومته الدول الدينية، من نصرانية ومجوسية ووثنية، فنصره الله عليهم كلهم كما وعدهم، حتى أظهره على الدين كله، ولا يزال ينصره وينشره بعد ترك دوله لدعوته، وإعراضهم عن هدايته، وما نزل بهم من عقوبته لهم كما أوعدهم، ولو ثبتوا على إقامته لعم نوره العالم، ولاستراح البشر من هذه العداوات الجنسية والوطنية والسياسية، ولو لقي غيره من الأديان، مثل ما لقي من البغي والعدوان، لأصبح في خبر كان.

ثم إن حاجة الأمم قد اشتدت في عصرنا هذا إلى هدايته، حتى أشدها إمعاناً في عداوته، ولجاجاً في نكايته، وجهلاً بحقيقته (فأخرجت هذا الكتاب من هداية القرآن)، لتجديد دعوته بما يناسب ضرورة هذا الزمان، ولو أنني حين شرعت في كتابة مباحثه في المرة الأولى، أردت أن يكون كتاباً مستقلاً في تجديد الدعوة إلى الإسلام، لافتتحته بهذه الآيات، وإن سبق لي تفسيرها المفصل في آخر سورة النساء، ثم لنشرت بعض ما طويت من وجوه إعجازه، ولفصلت ما أجملت من مقاصد إصلاحه، ولبسطت ما قبضت من دلائله، ولاجتنبت فيه الإحالة في بسط ما طُوي، وتفصيل ما أُجمل، على أجزاء تفسير المنار المطول، التي اختصرتُ جل المقاصد

وشواهدها منها، لأنها مما يشغل القارئين للكتاب، وربما كان أكثرهم لا يَقتنون تلك الأجزاء، ولذلك انتقد هذه الإحالة وبعض الاختصار فيه بعض من قرأه - قولاً وكتابة بحق، وكنت أسبقهم إلى ذلك.

رواج الكتاب وترجمته ببضع لغات:

لقد راج هذا الكتاب أضعاف ما رجونا، ونال من ثناء رجال العلوم الدينية ورجال المعارف المدنية العصرية فوق ما قدرنا، حتى قال كاتب مدني شهير: إنه لم ير كتاباً عربياً نُشر في هذا العصر وكان له من حسن القبول عند جميع أصناف القراء حتى الذين لا يُعْنَوْن بأمر الدين مثل ما كان لهذا الكتاب «الوحي» وقد صدق قوله، فإنه لم يمر على بدء نشره ثلاثة أشهر إلا وقد كادت تنفد نسخه. حتى قللنا من بيعه لتجار الكتب بالجملة، لئلا تَنفد قبل التمكن من إعادة طبعه منقحاً، مبسوطاً مفصلاً.

وقد استأذنني بعض المستنيرين ومحبي الإصلاح الإسلامي من الشعوب الإسلامية بترجمته باللغات الغربية والشرقية المختلفة فأذنت لإمام جامع وكنج ومحرر مجلة الإسلام (ريفيو إسلاميك) في لندن وداعية الإسلام فيها بترجمته باللغة الإنكليزية ونشره في أوربة وأميركة مترجماً[1]. وأذنت أيضاً بترجمته باللغات الأوردية والتركية والفارسية والصينية، وسأذكر ما يكون من أمر هذه الترجمات في المقال الذي أجعله تصديراً لهذه الطبعة (الثانية).

ولقد كنت على ما أسمع وما أقرأ من تقريظه وإطرائه، أحرص على العلم بما يراه أولو العلم والرأي من إنتقاده، وسألت كثيرا عن هذا ولم أسألهم عن ذلك، وبعد هذا كله شرعت في إعداده لهذه الطبعة الثانية له.

---

(١) بلغني أنه ترجم بعض الفصول والمباحث ولم يترجم الكتاب كله.

الفصل الأول

في تحقيق معنى الوحي والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها وأصولها وعدم إغناء العقل والعلم الكسبي عنها[1]

تعريف الوحي لغة وشرعاً:

قال في الأساس: أوحى إليه وأومى إليه بمعنى، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بها تخفيه عن غيره. وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[النحل:٦٨].

وقال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعه، ولنضمن السرعة قيل «أمر وحيٌّ» وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾[مريم] الخ، أي أشار إليهم ولم يتكلم. والوحي يتشديد الياء: السريع، ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر:

نظـــرت إليهـــا نظـــرة فتحـــيرت ... دقـــائق فكـــري في بـــديع صـــفاتها

فـــأوحى إليهـــا الطـرف أني أحبهـــا ... فـــأثر ذاك الـــوحي في وجناتهـــا

فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: أنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفي على غيره. ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يُلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان، قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾[الأنعام:١٢١]، وقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام:١١٢].

---

(١) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية في أولها.

ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة. فهذا معنى المصدر، ويطلق على متعلقه، وهو ما وقع به الوحي، أي اسم المفعول، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحِكَم، ومنهم من أعطاه كتاباً، أي تشريعاً يكتب، ومنهم من لم يعطه.

والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]. ويوحي إلى ملك الوحي ما يوحيه المَلَك إلى الرسول كقوله ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

وقال شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة «وقد عرَّفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أما نحن فنعَرِّفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور».

هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قول الله عز وجل ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، وقد يعبر عنه بالنفث في الروع، وهو بالضم: القلب والخلد والخاطر. والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة. وأما الثالث: فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله، فيراه متمثلاً بصورة رجل، أو غير متمثل، ويسمعه منه، أو يعيه بقلبه.

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية، وقد أثبته بعض علماء الإفرنج لنبينا ﷺ كغيره. فقالوا: إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل، والأدب السامي. وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو بإتصال عالم الشهادة به: بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى المَلَك ماثلاً له وعلى سمعه فوعى ما حدثه المَلَك به.

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء] وفي تخيل المَلَك بزعمهم.

وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونُبطلها، ونُثبت أن هذا القرآن وحي من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى، لا يمكن أن يكون فائضاً في هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا هذا.

واعلم أيها القارىء أن تقسيم المتكلمين كلام الله تعالى إلى نفسي قديم قائم بذاته سبحانه، ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة، وكلام لفظي هو المنزل على الأنبياء عليهم السلام، ومنه الكتب الأربعة، وخلافهم في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، هو اصطلاح كله فلسفة وآراء نظرية مبتدعة، لم يرد به كتاب ولا سنة، وهو تَعَرُّض للبحث التحليلي لذات الله تعالى وصفاته، ومثار للوسواس الشيطاني فيه، فاجتنبه واستعذ بالله منه. وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة كمال تتعلق بكل ما يتعلق به العلم، إلا أن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للعالِم، وتعلق الكلام عبارة عن كشف العالِم ما شاء من علمه لمن شاء، وأن الله تعالى متصف بكمال العلم والتعليم، وكمال الكلام والتكليم، وأن هذا وغيره مما وصف به نفسه

في كتابه لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما يليق به من نقائص عباده، ولا يقتضي مماثلته لهم فيما وهبهم من كمال، فإن الاشتراك في الأسماء لا يقتضي الاشتراك في المسميات، وأسماء الأجناس المقولة بالتشكيك في الممكنات تختلف من وجوه كثيرة منها النقص والكمال، فكيف بها إذا كانت مشتركة بين الخالق والمخلوقات، فذاته تعالى أكمل من ذواتهم، ووجوده أعلى من وجودهم، وصفاته أسمى من صفاتهم وهو أعلم ورسوله أعلم منهم بصفاته وأفعاله، فعليك أن تؤمن بما صح عنهما من إثبات ونفي، من غير زيادة ولا نقص، بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وليس عليك ولا لك أن تحكم رأيك وعقلك في كنه ذاته ولا صفاته، ولا في كيفية مناداته وتكليمه لرسله، ولا في كنه ما هو قائم به وما يصدر عنه، على هذا كان أصحاب الرسول وعلماء التابعين، وأئمة الحديث والفقه، قبل ظهور بدعة المتكلمين.

النبي
معناه لغة وشرعاً، والفرق بين الرسول وغيره

النبي في اللغة العربية وصف من النبأ، وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه معنيي الفاعل والمفعول لأنه مُنْبِيء عن الله ومُنَبَّأ منه، والنبيِّ بالتشديد أكثر استعمالاً، أُبدلت الهمزة فيه ياء، أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف، ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يُخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقاً أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا من أَوحى الله إليه وحياً، فإن أمره بتبليغه كان رسولاً، فكل رسول نبي، وما كل نبي رسول، فقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] يدل على انقطاع النبوة والرسالة معاً بعد محمد ﷺ، فكل من ادعى أو يدعي الوحي الشرعي من الله تعالى بعده فهو كذاب مضل. وقد ادعى النبوة كثيرون فظهر كذبهم.

ولم يأت أحد ادعى النبوة بعد محمد ﷺ بشيء من الإصلاح الديني الذي يحتاج إليه البشر، بل رأينا كتبهم وأقوالهم طافحة بمدح أنفسهم والغلو في إطرائها

ودعاويها الباطلة، التي يراد بها إخضاع العوام لهم واستعبادهم إياهم، كالذي نعهده في الدجالين من مدعي الولاية ومعرفة الغيب والتصرف الروحاني في نفع الناس وضرهم، ويدحض هذا وأمثاله ما بينه الله في كتابه الحق من وظائف الرسل كافة، وخاتم النبيين خاصة، كما تراه في موضعه من هذا الكتاب، وكذا ما عُلِم بالتواتر من شمائله وأخلاقه ﷺ، من التواضع وكراهة الدعوى والإطراء والنهي عنه.

ويرى قارىء هذا الكتاب فيه أن ما جاء به ﷺ من كتاب الله وما بينه به من سننه كافٍ شامل لكل ما يحتاج إليه البشر من هداية الدين لا يحتاجون إلى غيره.

حاجة البشر إلى الرسالة، وأصول أديان الرسل الأساسية

وجه حاجة البشر إلى هداية الأنبياء عليهم السلام في الجملة: أن موضوع رسالتهم المقصودة بالذات أو بالقصد الأول ثلاثة أمور، لا تستقل معارفهم المكتسبة بحواسهم وعقولهم بها، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم.

(أحدها) الإيمان بالغيب، ورأسه توحيد الله وصفاته وآياته الدالة على كماله وتنزهه عن النقص، وما يجب من عبادته وشكره وذكره الذي هو أعلى ما تتزكى به النفس وتتطهر من أدران مساويها، وتصل إلى الكمال المستعدة له بفطرتها. ويليه الإيمان بملائكته وما يناط بهم من الوحي، والنظام في الخلق والأمر، ويجب الوقوف في ذلك عند ما ورد به النص.

ومما أُخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب (الجن والشياطين)، وأن ما يجده الناس في أنفسهم من خواطر السوء وتقوية دواعي الشر والباطل فهو من وسواس الشياطين. وحكمة إعلامهم بذلك إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها، والتمييز بين حقها وباطلها، وخيرها وشرها، فهو أكبر مُعين لهم على تربيتها وتزكيتها، وقد أوضحناه بالدلائل في تفسيرنا، وضربنا له المثل بعوالم الجِنَّة المادية التي تسمى بالميكروبات، وكون تأثيرها في الأجسام كتأثير الشياطين في الأرواح، وقد مر على البشر الألوف الكثيرة من السنين وهم يجهلونها. على ما لها من التأثير

العظيم في صحتهم وأمراضهم، وطعامهم وشرابهم، حتى كشفوها في هذا العصر، ولو حاسب الناس أنفسهم على خواطرهم السوءى اتقاء لوسوسة الشياطين كما يتقون ميكروبات الأمراض لحفظ أبدانهم، لكان تأثير هذه التقوى في حفظ الأنفس من الشر والفساد، أعظم من تأثير تلك الوقاية في حفظ الأجساد من الأمراض.

وقد كشف بعض الماديين في القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحاً مستقلة كما أخبرهم الأنبياء، ووجدوا وسيلة لإدراك بعض الجِنَّة غير المادية، وهو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتى. والراجح عندنا أن أكثرها من أرواح شياطينهم ولا يتسع هذا الفصل لبيان الحق في هذه المسألة التي لا تزال موضع الخلاف بين الناس، وإنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالإجمال.

المشهور: أن أرقى البشر عقلاً ورأياً في شئون العالم، رجال السياسة الدولية في الغرب، وإنك لتجد غاية سياستهم أن يُسَخِّروا ثروة شعوبهم ونتائج علومها وفنونها لعداوة بعضهم لبعض وإعدادها للتقتيل والتدمير، أليست هذه السياسة الشيطانية مصداقاً لقول الله تعالى فيهم ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾؟ [النحل].

(ثانيها) ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الإيمان والأعمال، وهو أكبر البواعث -بعد الإيمان بالله ومعرفته- على اتباع ما شرعه من اتباع الحق، وإقامة العدل، وأعمال البر والخير، والصدود عن أضدادها.

(ثالثها) وضع حدود وأصول للأعمال التشريعية المشار إليها، لا مجال للآراء والأهواء فيها، لتكون جامعة للكلمة، مانعة من التفرقة، مُتَّبَعة في السر والعلانية.

وجملة القول: أن تهذيب البشر بالدين مبني على الإيمان بالغيب والوقوف فيه عند خبر الأنبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها، وهو ما نكرر بيانه في هذا الكتاب.

إذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يُقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يُبَلِّغونها عن ربهم، ومن ثَمَّ قال علماؤنا بوجوب عصمة الأنبياء من المعاصي والرذائل، وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر كالكبائر قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرئة على الشرور والمفاسد.

والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم وهي أن المسيح هو المعصوم وحده، لأنه رب وإله، ولأنه هو المُخَلِّص للناس من العقاب على الخطيئة اللازبة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مُخَلِّص لهم غيره، لأن المخطيء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين القديم والجديد المقدسة عندهم المحرفة في اعتقادنا لا تشهد لهم برمي جميع أنبيائها بالذنوب فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فإن يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم بما يدل على أنه كان أعظم من المسيح في عصمته، ففي إنجيل لوقا «١ : ٦٥ إنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس»، وفيه «٦٦ كانت يد الرب معه» وقال المسيح فيه «متى ١١ : ١١ الحق أقول لكم: إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» ثم قال فيه «١٨ جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان ١٩ وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فيقولون: هو ذا إنسان أكول وشريب خمر محب

العشَّارين والخطاة» بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه وإخوته ولم يسمح لهم بلقائه، وقد استأذنوا عليه ليكلموه، وعلل ذلك بأنهم مخالفون لمشيئة أبيه كما تراه في آخر الفصل الثاني عشر من إنجيل متى وآخر الثالث من مرقس بالمعنى. وعبارة لوقا (٨ : ٢٠ فأخبروه قائلين: أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك ٢١ فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها) نعم إن اخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مُصَرَّح به في موضع آخر: ولكن هل كانت أمه كذلك؟ وهل يجازيها هذا الجزاء؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين، ويُفَضِّل أم السيد المسيح على نساء العالمين. وإهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب، كما أن المبالغة في شرب الخمر ذنب حتى في الشرائع التي لم تحرمها مطلقاً. وجاء في هذه الأناجيل أن الشيطان استولى عليه أربعين يوماً يجربه ويدعوه إلى عبادته، كما تراه في أول الفصل الرابع من إنجيل متى، وكذا في غيره من الأناجيل، ونحن نبرئه من كل ذلك.

وشهدت الأناجيل أيضاً بأن يوحنا كان يعمد الناس للتوبة ومغفرة الخطايا وأنه عمد المسيح نفسه، وبأن أباه زكريا وأمه اليصابات «وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم» (لوقا ١ : ٦) وهذه شهادة بالعصمة التامة.

وهنالك أنبياء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القديم بالبر ولم ينسب إلى أحد منهم أدنى خطيئة، وآدم عندما ارتكب الخطيئة لم يكن نبياً مرسلاً إلى أحد ولا كان معه قوم يُسيئون الاقتداء به، وكان قد نسي النهي عن الأكل من الشجرة، وإنما كانت مثلاً لاستعداد جنس البشر للمعصية كالطاعة، نسياناً أو عمداً، ولكون المعصية تعالج بالتوبة فيغفرها الله تعالى، وقد كان ابناه قابيل وهابيل مثلاً لكل من الاستعدادين، وشهد الكتاب عندهم لهابيل بأنه كان باراً لم يرتكب خطيئة، وهو لم يكن نبياً.

جاء القرآن وهو المهيمن على جميع الكتب الإلهية بيا لخصناه من الحق في مسألة آدم، وشهد لمن قص علينا خبرهم من أنبياء الله ورسله أنهم كانوا من الصالحين الذين يُقْتَدَى بهم في البر والتقوى، كقوله في سورتهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال فيهم بعد ذكر أشهرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وأما قوله لخاتمهم ومكمل هدايتهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح] إلخ وقوله ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، فالذنب فيه جاء على أصل معناه اللغوي المشتق من ذَنَب الدابة، وهو كل عمل له عاقبة ضارة أو منافية للمصلحة، أو لما هو أولى وأنفع، ويدخل فيه الاجتهاد في الرأي المباح شرعاً كإذن النبي ﷺ لمن استأذنه من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وعاتبه الله عليه بقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة] [1]، وإنما العصمة للأنبياء من معصية الله بمخالفة وحيه إليهم، إذ لو عصوه لكان أتباعهم مأمورين من الله بالمعصية، لأنه أمرهم باتباعهم، وقال في نبينا ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

العقل والعلم البشري لا يغنيان عن هداية الرسل:

(فإن قيل) إن الإيمان بالغيب ووجود الرب غريزي في الفطرة البشرية كما حققتم، أو إلهام من إلهاماتها يلقى في روع أفرادها عند نمو إدراكهم، وأن بعض الحكماء المفكرين قد ارتقوا في معارفهم العقلية إلى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته، وقد قَرَّر بعضهم بقاء النفس بعد الموت وخلودها في نعيم مقيم أو عذاب أليم، ووضعوا

---

(١) تراجع المسألة في تفسير هذه الآية من جزء التفسير العاشر ص٤٦٤.

للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التي تصلح بها الإنسانية وروابط الاجتماع.

(قلت) نعم لكل ذلك أصل يثبته التاريخ الماضي، ويشهده العصر الحاضر، ولكن بين هداية الأنبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقاً في مصدر كل منهما، وفي الثقة بصحته، وفي الإذعان لِحقِّيته، وفي تأثيره في أنفس جميع طبقات المخاطبين.

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة وظنون، لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول، وهي عرضة للتخطئة والخلاف، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، وما كل من يفهمها يقبلها، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته، إذ لا سلطان لها على وجدان العالِم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد، لأن النوع البشري يأبى طبعه وغريزته أن يَدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته، وإن فاقه في علمه وحكمته، وإنما يَدين لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضرب لهذا مثلاً: أنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته، وكان يَعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو في رأيه أعلم منه وأرقى، وكان يكاشفه بذلك فيعرض عنه أو يوبخه، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح وطلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد، حتى إذا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله - قال الرئيس لخادمه اسمع، ماذا يقول المؤذن؟ قال إنه يقول: أشهد أن محمداً رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالك القديم، إنك خادمي لا عمل لك غير خدمتي وإنك أشد الناس إعجاباً بي وإجلالاً وتعظيماً لي، حتى إنك تفضلني على رسول الله ﷺ وتنكر عليَّ أن أؤمن به وأتبعه، وإنك على هذا كله تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار معتذراً بشدة

البرد، وإن هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة، وهي أشد مكان في البلد برداً، حتى إذا لاح له الفجر أشاد في آذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته، إيماناً وإذعاناً، وتعبداً واحتساباً. فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة.

فمن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العلمية الكسبية أن جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسي التعبدي، فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف والتفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحاً، والإيمان بها راسخاً، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فهمها للدين، وتزلزل إيمانها به أو زال، لا ينفعها من دونه علوم العلماء، ولا حكمة الحكماء، وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا العصر، وعم انتشارهما بما لم يُعرف مثله في عصر آخر، وهم لا يذعنون في أنفسهم لإرادة ملك أو أمير، ولا لرأي عالم نحرير، ولا فيلسوف شهير، ولا مشترع خبير، بل صاروا إلى فوضى في الأخلاق والآداب والاجتماع، واستباحة الأموال والأعراض، وكذا الدماء، لم يعهد لها في البشر نظير، صارت بها الأمم والدول عرضة لفتنة في الأرض وفساد كبير.

أكثر البشر يؤمنون بوجود الله وعلمه وحكمته، والمثقفون بالتعليم العصري يؤمنون بوحدانيته، ولم يبق للشرك به تعالى بقية إلا في جهال المتَّبِعين لتقاليد الأديان المنسوبة إلى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما هي من أديانهم في شيء بل هي هادمة لأساسها الأعظم، وهو التوحيد المطلق، فكان فشو الشرك بعبادة الأولياء والقديسين وما يترتب عليه، واقترن به من الخرافات وفساد الأخلاق، من أكبر الشبهات على صحة هذه الأديان والمنفرات عن اتباعها، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالأنبياء دائنين بالخرافات، وإما كافرين بهم منكرين أن الدين وحي من الله تعالى، وتَعَيَّن إرجاع الفريقين إلى هداية الدين الصحيح وما هو إلا دين الإسلام.

إن الدين الذي ينتمي إليه أكثر شعوب الحضارة في هذا العصر هو النصرانية، وإنما سبب بقائه فيهم أن دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية، ولكنه لم يبق له سلطان روحي إلا في قلوب النساء والعوام الخرافيين، وقد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الألماني وهو أرقى شعوب الأرض علماً وفناً وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة يريد بها هدم أساسه من كتب العهد القديم، وتنقيح تعاليم العهد الجديد، وجعل ما يُبقون منه وطنياً ألمانياً خاصاً بالجنس الآري الهندي الفارسي الأصل، والبراءة من كل ما هو سامي منه، وما أنبياؤهم ورسلهم ومسيحهم ومعبودهم إلا من الساميين، بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعظماء أسلافهم الألمانيين، وإنْ هذه إلا وثنية كوثنية اليابانيين، تُذْكي سعير العداوة بينهم وبين سائر الأوربيين.

فلا سبيل إلى إنقاذ البشر في هذا العصر إلا بإثبات الوحي المحمدي الموحِد لإنسانيتهم، المزكي لأنفسهم، المكمل لفطرتهم، الذي فيه السعادة الدنيوية والأخروية لهم في جملتهم. وقد بينا في هذا الكتاب أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين، هو النبي المرسل إلى كافة الناس رحمة للعالمين، وأنه هو الذي أكمل الله به الدين، وأزال العصبيات الجنسية والوطنية لتوحيد الأخوة الإنسانية، فاتباعه هو الترياق المجَرَّب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة، راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهدى لكل من يعقله ويتدبره من مستقلي الفكر، وطالبي معرفة الحق، وإصلاح الخلق، المعنيين بقول الله عز وجل ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة].

الفصل الثاني
في إقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق
في إثبات نبوة محمد ﷺ

إن من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين القديم والجديد، وعلى كتب السنة والسيرة المحمدية، من أحرار الفكر ومستقلي العقل - علم علماً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله، وأن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وأن محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي، ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جِنِّي، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرَضي والبحتري، وقل مثل ذلك في الطبيب والفيلسوف والرياضي والفلكي- كل منهم مع أئمة علمه، وفي كل إنسان صحيح الحواس في المدركات الحسية. فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس، أو نور السراج على نور النهار، ولله در البوصيري حيث قال:

الله أكـــــبر إن ديـــــن محمـــــد	وكتابـــه أقـــوى وأقـــوم قـــيلا
لا تـذكروا الكتـب الـسوالف عنـده	طلـع الـصباح فـأطفيء القنـديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشؤا في النصرانية، وأحاطوا بها علماً وخبراً، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة.

كتب الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية:

«كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه، وكانت العقيدة الدينية، وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه، كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه، فتُحدث فيه كما كانت تُحدث فيهم ذلك

الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية، اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها» اهـ.

فهذا العالم الأوربي المستقل الفكر يقول: إن كل ما كان به أنبياء بني إسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد. ونحن نقول: إن جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد من الشبهات كما سنوضحه، وأما ما فسر به هذه الخصائص، فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في الفصل الثالث.

ولخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعناً لصحة رواياتها. وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام[1] في كتابه (حياة محمد) مذعناً لصحة الرواية ولموضوعها، شارحاً لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى، آسفاً للشقاق بينهم.

وإنا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن أحد علماء الإفرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ، وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حُكمه في نبوة أنبياء بني إسرائيل ووحيهم، ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين، والوحي الذي أنزل عليه.

تعريف الوحي والنبوة والأنبياء عند النصارى

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس المطبوع في المطبعة الأميركانية في بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه مع حذف أكثر رموز الشواهد:

«تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب» وجاء في (جزء ١٢ : ١٠) «هذا الوحي هو الرئيس» أي أنه آية للشعب، وعلى العموم يراد بالوحي

---

(١) يُكتب هذا الإسم في مجلة السياسة (درمنجيم) بالجيم المصرية حيث يُنشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجماً بالعربية وإنما إخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيها إمضاءه هكذا (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الأول من مجلد المنار الثلاثين.

الإلهام. وعلى ذلك يقال «إن كل الكتاب موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهَمين. وذلك على أنواع:

(١) إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل إليها إلا به.

(٢) إرشادهم إلى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاهاً، أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئاً من شخصيته وإنما يؤثر فيه الروح الإلهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى. ولهذا نرى في كل مؤلف من الكُتَّاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك. وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه، غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكُتَّاب ليدونوا إرادته ويُفيدوا الإنسان ما يجب عليه من الإيمان والعمل لكي ينال الخلاص الأبدي» اهـ.

وجاء في تفسير «نبي، أنبياء، نبوة» منه ما نصه:

«النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد. وسمي هارون نبياً، لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظراً لفصاحته (خروج ٧ : ١) أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية، وينبئون بمجيء المسيح، ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الأنبياء، فاشتهر مِن ثَمَّ صموئيل بإحياء الشريعة وقُرن إسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب، وتأسست أيضاً مدارس أخرى للأنبياء في بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى. وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أباً أو سيداً، وكان يُعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب، وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح

الطلبة فيها لتعليم الشعب. أما معيشة الأنبياء وبني الأنبياء فكانت ساذجة للغاية، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوَّافين يضافون عند الأتقياء.

«ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتي، إنما أختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتاً دون آخر حسب مشيئته، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة، على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلاً، فإنه كان راعياً وجاني جميز[1].

«أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ، وأحياناً كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها، فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الأشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح، وكانتصار إسكندر ذي القرنين بإتيان المسيح، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميسين بيوم الحشر. ومن هذا القبيل اقتران خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة، وقد أرسل الله الأنبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الأخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم. وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وإرشادهم إلى سبيل الحق، وكان لهم دخل عظيم في الأمور السياسية» اهـ بنصه.

بعض ما يرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الإلهام بحلول روح الله في روح الملهَم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني إسرائيل ولا علماؤهم، ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع، وقد أشار إلى ذلك بقوله «إن في شرح ذلك التعليم دقة، وأن العلماء اختلفوا في شرحه» الخ، ومن حل فيه روح الله صار إلهاً، إذ المسيح لم يكن إلهاً عند

(١) أي كان له حرفتان هما رعي المواشي وقطف ثمر الجميز لأصحابه.

النصارى إلا بهذا الحلول، فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه أو يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والأنبياء فيؤخذ منه ما يأتي:

(١) أن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر، وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يُؤثر في الأنفس ويحرك الشعور والوجدان، ويثير رواكد الخيال، فلا غرو أن يكون عزراً ونحمياً من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر لملك بابل (ارتحشستا) ومغنيين له، وأن يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما إلى وطنهما وإقامة دينهما فيه.

فالنبوة على هذا كانت صناعة تُعلم موادها في المدارس، ويستعان على الإقناع بها بالتخييلات الشعرية والإلهامات الكلامية، والمؤثرات الغنائية والموسيقية، والمعلومات المكتسبة، فأين هي من نبوة محمد الأمي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً، وقد جاء مفرداً، بأعظم مما جاءوا به كلهم أجمعون مجتمعاً؟

(٢) أن كثيراً من هؤلاء الأنبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الأتقياء المحبين لرجال الدين، كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين، ومن المعلوم أن هؤلاء المحبين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون، ويُسَلِّمون لهم كل ما يدعون، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الأنبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر المعاصي، وإن من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تَفْضُل سيرتهم سيرة هؤلاء الأنبياء في كتبهم، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم إلى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها؟

(٣) أشهر أنواع نبوتهم الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة، وكلها تقع لغيرهم، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي

كان له صور أعلى منها سنبينها بعد[1]. والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى، قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الأنبياء، كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام، ورؤياه هو في صغره.

(٤) أن نبوة الإخبار عن الأمور المستقبلة -وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى- كانت أحياناً كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها، فكان بعضها يختلط ببعض، فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه، كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين بَلْهَ الروحانيين المكاشفين، ومنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه، ولكن التاريخ شرحه.

وكان أعظم نبوات هؤلاء الأنبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك إسرائيل ولا يزال اليهود ينتظرونها[2]، ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لأجل دينونة العالم، وأنه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله. وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء.

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله في موضوعيها
والموازنة بينه وبين موسى وعيسى عليهم السلام

أَنَّى تُضاهيء تلك الأخبار (النبوات) -وهي كما علمت- أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات، كالذي بيناه في خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة) مما وقع من المنافقين، وما هو في سورة الفتح، وقد وقع في عهد النبي ﷺ، وفي غيرهما كقوله تعالى في أول سورة الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم]، وقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النور:٥٥] الآية. وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر، ويستولون على ملك

(١) قد بينتها في الفصل الأول الذي زدته في الطبعة الثانية أيضاً.

(٢) أي ينتظرون صدق هذه النبوة.

كسرى وقيصر، حتى إنه سمى كسرى عصره باسمه، كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم[1]؟

هذا ما يقال بالإجمال في أحد موضوعي النبوة، وهو الإخبار عما سيكون في مستقبل الزمان، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره، أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل، وأعصى على إنكار المرتابين، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية، وسأرد ما يتأوله به الجاحدون للنبوة في بيان بطلان شبهتهم.

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم، أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه، فالنظر فيه من وجهين: (أحدهما) ما ذكروه من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره، ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون بوحي من الله.

(وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً.

فأما الأول الخاص بشخص الرسول فإن العاقل المستقل الفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام فإنه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة، وأن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ االأمم وعلوم التشريع والفلسفة والأدب، حتى إن مكة عاصمة بلادهم وقاعدة دينهم ومثوى كبرائهم ورؤسائهم ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كِتَاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره، كما بيناه من قبل، وسندفع ما يَرِد من الشبهة عليه بعد (في الفصل الثالث).

ويُرى تجاه هذا أن موسى عليه السلام أعظم أولئك الأنبياء في علمه وعمله، وفي شريعته وهدايته، قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض وأرقاه

---

(١) سأورد طائفة من هذه الأنباء بالغيب في ملحقات هذا الكتاب أو الجزء الثاني منه.

تشريعاً وعلماً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستَعبدين مستَذلين تُذبَّحُ أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، تمهيداً لإبادتهم ومحوهم من الأرض، ثم إنه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبياً -أو كاهناً كما يقولون- فمن ثَمَّ يرى منكرو الوحي أن ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشيء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ.

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى معاصراً لإبراهيم ﷺ، وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان في حفائر العراق: إنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى[1]، وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك: أنه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تُعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله تعالى، ولم ينقل أن حمورابي ادعى أن شريعته وحي من الله تعالى.

ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعهدين بها، وأنهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يُذكر أحد منهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة، ويرى أيضاً أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي. بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً، وأعلاهم ذكراً، وأجلاهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة، بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا: إنه لا يَكثر على رجل مثله زكي الفطرة، زكي العقل، ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد

---

(١) قد شرحنا هذه المسألة في المجلد السادس من المنار وذكرنا خلاصتها في تفسير الآية ٣٠ من سورة براءة (التوبة) وهي التاسعة، فتراجع في المنار سنة ١٣٢١ أو الصفحة ٣٤٨ من الجزء العاشر من التفسير.

والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الأدبية[1]. ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك، وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون، وألوف منهم يُنسبون إلى المذاهب النصرانية.

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل الفكر غير المقلد لدين من الأديان أن عقائد الإسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله به ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل، وحُكمه الشوري المرقي للإجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والأناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الإصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الإفرنج، وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير[2] وسيأتي بيانه.

ومن نظر في قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين، وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذا القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الأنبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم، ووصف الأنبياء أيضاً بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف أنبيائه ورسله بالكمال، وأحاسن الأعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيماناً وهدى، فأخبار الأنبياء في كتب العهدين تشبه بستاناً فيه كثير من الشجر والعشب والشوك والثمار والأزهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك

---

(١) على أن منهم من يعزو جُلها إلى كونفشيوس المشترع الصيني وإلى غيره من الحكماء الذين كانوا من قبل المسيح عليه السلام.

(٢) آخرها (ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير) وسنفرد له ملحقاً من علاوات هذه الطبعة.

الأزهار، والعسل المشتار من جني تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله.

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الإفرنج الأحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والإنجيل) لأحد علماء الإنكليز[1]، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك.

صد الكنيسة عن الإسلام وبغيه عِوَجاً

إن رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به أتباعها عن الإسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية، وكاد يقضي على النصرانية في الشرق، ثم امتد نوره إلى الغرب، إلا تأليف الكتب ونظم الأشعار والأغاني في ذم الإسلام ونبيه وكتابه بالإفك والبهتان، وفحش الكلام، الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين أكذب البشر، وأشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه.

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الإسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم أقبح الفضائح، كما ترى في كتاب (الإسلام خواطر وسوانح) للكونت دى كاسترى، وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للمسيو درمنغام، وهذان الكاتبان إفرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والإفك والبهتان، وإعترفا بأدب المسلمين في الدفاع[2].

---

(١) هو تشارلس وطس وطبع في مطبعة (وطس وشركائه في لندن) وترجم بالعربية وطبع بمطبعة الموسوعات في مصر سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م.

(٢) قال مسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك: لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال، وازدادت حدة، ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف. فمن المجادلين =

ولما ظهرت طائفة البروتستانت وغلب مذهبها في شعوب الأنجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الإسلام لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والأدب. والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الإسلام من أحرار علمائهم أصرح قولاً، ولعلهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والإستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الإسلام في أوربة والولايات المتحدة الأميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الإنكليزي في كتابه الحياة الزوجية (واشتهر عنه هذا ونقلته صحف الأقطار الإسلامية).

= البيزنطيين الذين أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم -فيما خلاجان داماسيان- مؤنة دراسته، ولم يحارب الكتاب والنَظَّامون (يعني الشعراء) مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب، فقد زعموا محمداً لص نياق (أي إبل) وزعموه متهالكاً على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق، بل زعموه قساً رومانياً مَغيظاً أن لم ينتخب لكرسي البابوية ... وحَسبه بعضهم إلهاً زائفاً «يقرب له عباده الضحايا البشرية»، وان جيبردنوجن نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين كذا وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابي (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية إنطاكية حديث من رأى صنم ماهوم مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (ويعنون به محمداً عليه السلام) وابولون. وتحسب «قصة محمد» أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج. وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة، فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهوتنجر ويليا تلار وبريد وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات. اهـ المراد منه على كثرته، وإبهام في ترجمته، وهو قليل من إسرافهم، وتراجع ترجمة كتاب (الإسلام: خواطر وسوانح) العربية لأحمد فتحي زغلول.

الآيات والعجائب أي الخوارق

وإثبات النبوة عندنا وعندهم[1]

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على إختلاف مذاهبها، وفيما يدَّعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها. وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام، لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بُني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الأفراد، وترقية مصالح الإجتماع. وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها، وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين، أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الإسلام فيها من القول الفصل.

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه:

«عجيبة: حادثة تحدث بقوة إلهية خارقةً مجرى العادة الطبيعية لإثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لا ضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بمعاكستها، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي. ولنا في فعل الإرادة مثال يُظهر لنا حقيقة أمر العجائب، إذ بها ترفع

(١) سيأتي تفصيل آخر في تحقيق مسألة الخوارق وأنواعها والفرق بين آيات الأنبياء والرسل منها وغيرها، كالكرامات والخصائص الروحية.

اليد وبذلك توقف ناموس الثقل[1]، ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها ويحصره لأنها عوامل لمشيئته، ويناط فعل العجائب بالله وحده أو بمن سمح له بذلك.

«وإذا آمنا بالله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب، وكانت العجيبة الأولى خليقة الكون من العدم بإرادته تعالى. أما المسيح فأقنومه عجيبة أدبية عظيمة، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الأقنوم وأعماله، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه. أما الشيطان فعجائبه كذابة.

«ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيراً ما يستشهد المسيح بعجائبه لإثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وأبدانهم، وكان يفعلها ظاهراً أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم ينكرها أعداؤه غير أنهم نسبوها ليعلزبول[2]. وسواء امتحنَّاها بالشهادة من الخارج أو بمناسبتها إلى إرساليته الإلهية، ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة، فإذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول بأن مقرريها كذَّابون، الأمر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسل[3].

---

(١) أي سنة جاذبية الثقل التي تقتضي سقوط الأجسام إلى مركز الأرض.

(٢) أي إلى الشيطان، والأناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفاً، بل يبالغون في عجائبه وتصرفه في العالم، ومن أسمائه عندهم: إله هذا الدهر. قال في قاموس الكتاب المقدس (فلنا في شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة) راجع ص٦٥٠ جزء أول وتعجب من أهل هذا الدين.

(٣) هذا استدلال غير منطقي، فلا تقوم به الحجة على المنكر ولا يحتاج إليه المعترف المقلد. وحاصله: إما أن نسلم صحة هذه العجائب، وإما أن نقول إن رواتها كاذبون، لكن كذب رواتها لا يسوغ أن يظن بالمسيح والرسل- فثبت أنها صحيحة والمنكر يسوغ كذب الناقلين لها، وله أن يسلم الشرطية المنفصلة ويمنع الاستثناء ويعد مصادره، إذ جعل كلاً من ثبوت كونه مسيحاً من الله وكونهم رسلاً متوقفاً على صدقها، وصدقها متوقفاً على ثبوت ذلك. وهذا دور محال.

«وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل. ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار إليها[1] ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الأدبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير أنه يمكن لله تعالى أن يجددها في أي وقت شاء» اهـ.

ثم وضع المؤلف جدولاً أحصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم وعمورية على قوم لوط إلى « خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت ٦٧ عجيبة، وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» إلى (الصعود إلى السماء) فبلغت ٣٧، وعزز الجدولين بثالث في (العجائب التي جرت في عصر الرسل) أي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من (انسكاب الروح القدس يوم الخميسين) إلى (شفاء أبي بوبليوس[2] وغيره) فكانت عشرين. وقد صرح بأن يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب أنه صنع عجائب.

بحث في عجائب المسيح عليه السلام:

أقول: إن ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة: شفاء مرضى ومجانين لابستهم الشياطين، وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم، وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء إلى خمر، وسحب الشبكة في بحر الجليل، وإشباع خمسة آلاف مرة، وأربعة آلاف مرة أخرى، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود. وإننا نلخص رواية الأناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر ما يقوله فيها منكروا العجائب.

(الميت الأول) شاب من مدينة نايين كان محمولاً في جنازة وأمه تبكي، فاستوقف النعش، وقال له: أيها الشاب لك أقول قم. فجلس وابتدأ يتكلم. فدفعه

---

(١) هذا مذهب البروتستانت ويلزمهم أن عجائب الشيطان بقيت بدون معارض، وأما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر.

(٢) هو رئيس جزيرة كان مريضاً فرقاه بولص وصلى له فشفي (أعمال ٢٨).

إلى أمه، فأخذ الجميع خوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ٧ : ١١ – ١٦).

(الثاني) صَبية ماتت، فقال له أبوها وكان رئيساً: ابنتي الآن ماتت ولكن تعالى فضع يدك عليها فتحيا. فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون، فقال لهم «تنحوا فإن الصبية لم تمت، لكنها نائمة» فضحكوا عليه، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (متى ٩ : ١٨ – ٢٤).

فمنكرو العجائب يقولون: إن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل، وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس أنهم ماتوا. ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الأطباء شهادة بثبوت موته ثبوتاً علمياً فنياً - وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة، أخذاً بظاهر قوله عليه السلام «لم تمت ولكنها نائمة» يعني أنها أغمي عليها فظنوا أنها ماتت وهي لم تمت.

وأما الثالث: فهو ليعازر حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه: مرض في قريتهم (بيت عنيا) فأرسلتا إلى المسيح قائلتين: هو ذا الذي تحبه مريض، فمكث يومين وحضر، فوجد أنه مات منذ أربعة أيام، فلاقته مرثا وقالت: يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي، ثم دعت أختها مريم، فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ فدلوه عليه، فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر، وكان مغارة وقد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه (ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم «ليعازر، هلم خارجاً» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب. اهـ ملخصاً من الفصل ١١ من إنجيل يوحنا.

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية؟ إنني سمعت طبيباً سورياً بروتستنتياً يقول: إنها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبته وحبيبه لإقناع اليهود بنبوته -وحاشاه عليه السلام- وإنما ننقل هذا لنبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية، كما فهم الذين شاهدوها، لأنه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبيها، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها، دع قول المنكرين باحتمال الإحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها أو عدهم إياها -على تقدير ثبوتها- من فلتات الطبيعة[1].

وإذا كان أعظمها -وهو إحياء الميت- يحتمل ما ذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان؟ والأطباء كلهم يقولون: إن ما يدعيه العوام من دخول الشياطين في أجساد الناس ما هو إلا أمراض عصبية تُشفى بالمعالجة، أو بالوهم والاعتقاد، ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة[2].

وفي هذه العجيبة نظر من ثلاث جهات: (الأولى) أن منكر الآيات يقول: إنه يجوز أن تكون التينة يبست بسبب مادي في أثناء وجود المسيح وتلاميذه في أورشليم.

(الثانية) أن الروحيين من فلاسفة الهندوس وغيرهم يقولون: إن كل من كان روحانياً قوي الإرادة يكون له مثل هذا التأثير، فهو من خواص النفس، وهذا

(١) وقد نقل مثلها عن بعض صوفية المسلمين والهندوس، فإن كذبوا النقول القديمة فمنها ما رواه من شاهد من أهل عصرنا كما ترى في الحاشية التالية لهذه وهي: الإيمان، وأن كل مؤمن يقول لأي شيء «كن» وهو يؤمن أنه يكون فإنه يكون، ولو كان أمراً للجبل أن يزول من مكانه.

(٢) خلاصة عجيبة التينة أنه جاع وهو خارج من بيت عنيا إلى أورشليم مع تلاميذه، فرأى شجرة تين مورقة، فجاءها لعله يجد فيها شيئاً يأكله، فلم يجد فيها شيئاً لأنه لم يكن وقت التين فلعنها قائلا (لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد) ولما رجعوا من أورشليم رأوا التينة قد يبست فقال له بطرس: يا سيدي أنظر التينة التي لعنتها قد يبست الخ (مرقص ١١ : ١١ - ١٤) فأجابهم بما خلاصته: إن هذا آية.

بمعنى قول المسيح لهم في تأثير الإيمان، وهو ينافي أن يكون بتأييد من الله خارق للعادات الكسبية الدالة على أن من جرت على يده على الحق.

(الثالثة) أن الناس ينقلون مثل هذا في كل زمان، ومن ذلك ما نقلته جريدة المقطم في عددها الذي صدر بتاريخ ٤ رمضان من عامنا هذا (١٣٥٢) الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٣٣ مترجماً عن كتاب لطبيب اسمه الكسندر، كان في بلدية لندن، له منصب معروف في مستشفى الأمراض النفسية: أنه ألف كتاباً في الشهر الماضي اسمه (العالم غير المنظور) تكلم فيه عن التنويم المغناطيسي والسحر الأسود وغيرهما من (علوم الغيب) ذكر فيه رحلته إلى الهند والتبت، وما رأى فيها من المناظر المدهشة (ومنها شجرة تين تذبل بأمر رجل، وجثة فقدت الحياة مدة سبع سنوات تعاد إليها الحياة).

ثم نقل عن هذا الكتاب في تفصيل عجيبتي إماتة التينة وإحياء الإنسان الميت نبأ قاض إنكليزي إسمه (مكردي) أنذره أنه سيقتل قبل مرور سبع سنين برصاص بندقية تطلق عليه بأمره، وكان الأمر كذلك، وأن المؤلف سمع هذا الخبر من «اللاما» أي كاهن التبت الأكبر ثم قال المقطم ما نصه بعد العنوان:

إماتة الصوفي الهندي للتينة كالمسيح

ويتكلم الطبيب في كتابه عن صديقه (البروفسور ...) ويقول عنه: إنه يزور سريره كل ليلة وعمره مائة سنة، ولكن منظره منظر رجل ابن أربعين. وقد صحبه مرة إلى شجرة تين فخاطبها صاحبها من بعد قائلاً: لقد أحسنت وقاومت عواصف الحياة وسليت نفسي وشفيتها، وقد آن وقت رحيلك عن عالم الغرور والعدم هذا، فموتي الآن، ولا تعودي إلى الحياة مرة أخرى. قال الطبيب: فذبلت التينة حالاً وسمح لي بفحصها أنا وغيري لنتأكد من موتها. وقص حكاية الرجل الذي أعيدت حياته إليه فقال:

إحياء اللاما كاهن التبت للميت

«كان اللاما الكبير على عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا في حلقة واسعة وهم يتمتمون أغنية. فصلى اللاما وفي تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتاً من حجر فأنزلوه ورفعوا غطاءه فرأينا شخصاً منظره منظر ميت. فسمح لي بفحصه فلم أشعر بنبضه ولا بخفقان قلبه وكان بارداً كالحجر وعيناه عينا رجل انقضى عليه يوم كامل وهو ميت ووضعت مرآة على فمه وأنفه فلم يظهر عليها أثر تنفسه. ثم لفظ اللاما كلمات فرأينا الميت يفتح عينيه، ثم جلس في تابوته فساعده راهبان على الوقوف والمشي، فدنا من اللاما وانحنى وعاد إلى نعشه وهو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء) ثم لم تمض دقائق قليلة حتى عاد ولا حياة فيه. فلم أدر أكان ميتاً حقيقة أم في غيبوبة. فقرأ اللاما أفكاري فقال لي: إن الرجل كان ميتاً مدة سبع سنوات أخرى، وإن عمره مئات من السنين وقد يحيا إلى الأبد إذا صح أن نعد هذا حياة.

(يقول محمد رشيد): وفي هذا الكتاب عجائب أخرى ذكر بعضها في المقطم وذكر أن المجلس البلدي عزله من وظيفته عقاباً له عليه. وأنا قد سمعت في صغري حكاية مشهورة عند أهل بلدنا عن رجل معتقد اسمه الشيخ محمد العصافيري أنه نظر إلى شجرة تين، وقال مسكينة مسكينة تموت، فلم تلبث أن عراها الذبول حتى يبست.

وجملة القول أن حكايات العجائب كثيرة في كل زمان وسيأتي تحقيق القول فيها.

آية نبوة محمد العقلية العلمية
وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة[1] أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله بها عبده ورسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه

(١) الرواية المرسلة للحديث هي التي لم يذكر فيها اسم الصحابي الذي رفعه إلى النبي ﷺ.

الإنجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لأن البشر قد بدءوا يدخلون بها في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلي مع هذا الخضوع، بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين: عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلومه، وبإعجازه اللفظي والمعنوي، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه[1]، ليربي البشر على الترقي في هذا الإستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال.

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقص الله تعالى علينا في كتابه: أن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله، فاحتج عليهم بالقرآن في جملته، وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء] وسيأتي تفصيله.

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد. كنصرهم على

(١) قد بينا ذلك في تفسير آية التحدي من سورة البقرة من بضعة وجوه، وسنزيده بياناً في هذا الكتاب، وإنما موضوعنا هنا بيان الفرق بين نبوة نبينا ﷺ ونبوة من قبله.

المعتدين عليهم من الكفار، الذين يفوقونهم عداً وعُدداً واستعداداً بالسلاح والطعام، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الأحزاب، إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

من تلك الآيات: شفاء المرضى، وإبصار الأعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب، وفي غزوة تبوك، كما وقع للمسيح عليه السلام ومنها: تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين، وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر، ولم يصب المشركين من غيثها شيء، ومثل ذلك في غزوة تبوك، إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد، حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم، على قلة الرواحل معهم، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً، فقال أبو بكر «يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فدعا، فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم[١]».

تأثير العجائب في الأفراد والأمم:

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين، استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها. إن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى، وإن أكثر بني إسرائيل لم يعقلوها[٢]، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها ورؤية غيرها في بَرِيَّة سيناء. وقال اليهود في المسيح: لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الإنسان. وقالوا: إن إبليس

---

(١) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتابيهما «دلائل النبوة» و «الضياء في الأحاديث المختارة». و «الروايا» جمع راوية وهو البعير الذي يُحمل عليه الماء، وكذا غيره من الدواب.

(٢) قال تعالى ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[يونس:٨٣]، الذرية صغار النسل والمتبادر أن تنكيرها هنا للتقليل.

أو بعلزبول[1] يفعل أكبر من فعله، وما كان أكثرهم مؤمنين. وقال المنافقون - وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبَّان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ: إننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه. وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سبباً، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب، فالآتي به مظهر للخالق سبحانه، إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك.

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام أنه سيأتي بعده مُسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤).

وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم. وأقول: إن منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام. ونقلوا عن المسيح أنه قال «الحق أقول لكم: ليس كل نبي مقبولاً في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته في الناس، لا الآيات والعجائب فقال «من ثمارهم تعرفونهم» ولم يظهر بعده -ولا قبله- نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا أحد يصدق عليه قوله في إنجيل يوحنا (١٦: ١٢ إن لي أمورا كثيرة أيضاً، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين، من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب: غير محمد رسول الله وخاتم النبيين.

ومن استقرأ تواريخ الأمم، عَلِم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على العجائب من أهل الأديان السماوية، ورأى الجميع ينقلون منها عمن يعتقدون قداستهم من

(١) بعلزبول: من أسماء الشيطان عندهم.

الأولياء والقديسين، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء والمرسلين، ورأى أن أكثر المصدقين بها من الخرافيين.

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها:

وجملة القول: أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه، لا بالآيات والعجائب الكونية، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ، وهذا القرآن الذي جاء به، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من أطوار النوع البشري هو شهادته لها، فإن الكتب التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عُزيت إليهم، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتراً ولا آحاداً، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على إختلافه، وتناقضه، وتعارضه، ولا إثبات صحة التراجم التي نُقلت بها، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً.

إن الكتاب الإلهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عمن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معاً: هو القرآن، وإن النبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ. فالدين الوحيد الذي يمكن أن يعقله العلماء المستقلون في الفهم والرأي ويبنوا عليه حكمهم: هو الإسلام.

وأما خلاصة ما يمكن الإعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوي، فهو أنه وجد في جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى العمل الصالح، وإلى ترك الشرور والرذائل، منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى، مبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمور خاصة بأقوامهم وبزمانهم، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم.

وإذا كان الإسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عُرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل، فإننا نذكر هنا شبهة علماء الإفرنج الماديين ومقلدتهم عليه، بعد مقدمة في شهادتهم الإجمالية له، تمهيداً لدحض الشبهة ونهوض الحجة فنقول:

***

درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ

درس علماء الإفرنج تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلّوها فلياً، ونقشوها بالمناقيش وقرءوا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجم به أقوامهم، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد، وتاريخ الأديان، ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام والنبي والقرآن، مما أشرنا إلى بعضه آنفاً، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

إن محمداً كان سليم الفطرة، كامل العقل كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس قنوعاً بالقليل من الرزق غير طموع بالمال، ولا جنوح إلى الملك، ولم يُعن بما كان يُعنى به قومه من الفخر والمباراة في تحبير الخطب ولا قرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من رؤية ملك الوحي، وإقرائه إياه هذا القرآن، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس.

وزادهم ثقة بصدقه: أنْ كان أول الناس إيماناً به وإهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبداً له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم

حراً، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر[1].

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحاً خالدة من هؤلاء الإفرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على عِلم برهان، وهم يزيدون عاماً بعد عام، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام.

وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها، وتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل، الذي لا يؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعية من عالم الغيب.

قدحوا زناد الفكر، واستوروا به نظريات الفلسفة، فلاح لهم منه سِقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الأستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً، وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا (في الفصل الثالث من هذا الكتاب).

(١) سننقل طائفة من شهادات العلماء الأحرار في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الفصل الثالث

في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الإلهي

وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه الوحي النفسي

خلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي من كلام أُلقي في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده.

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول: إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب، الذي يقال إنه وراء عالم المادة والطبيعة، الذي يعرفه جميع الناس، فإن هذا (الغيب) شيء لم يثبت عندنا وجوده، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت.

ويضربون مثلاً لهذا الوحي: قصة جان دارك، الفتاة الفرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين، الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها.

وإنني أفتتح الكلام في إبطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على (جان دارك) فقد أُلقي إليَّ سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (١٣٢١) وهذا نصه:

شبهة على الوحي

حضرة الأستاذ الرشيد:

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده -حيث وقع اختياري عليها- وقرأت فيها بابي (حاجة البشر إلى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيهاً معقولاً، غير أن الحاجة إلى الشيء لا تستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلاً لا يقتضي حصوله. ثم ما ذُكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الأعمال، وبوقوع الخير للناس على يديه، وهو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئاً، فإنه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته، صادقاً في دعوته -أعني معتقداً في نفسه- سبباً في نهوض أمته، ولا يكون كل ذلك مدعاة إلى الاعتقاد به والتسليم له.

وقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي، إذ كانت مقهورة للإنكليز أن بنتاً تُدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرةً وأسلمهن نيةً، اعتقدت -وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية- أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي، فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رياسة جيش صغير، وغلبت به العدو فتلاً، ثم ماتت غب نصرتها ميتة الأبطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها، فألقوها في النار حية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسماً يعبق نشره وتضوع رياه، وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيداً.

فهل نجزم لذلك أن تلك البنت نبية مرسلة؟ ربما تذهبون إلى أن عملها لا يُذكر مقارناً بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول: هل هناك من ميزان نزن به الأعمال النافعة، لنعلم إن كانت وصلت إلى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلاً على أن يكون أكبر الناس فعلاً، وأبقاهم أثراً، واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك إلى التيقن من رسالته؟

أظن أن هذا كله -مضافاً لغيره- يدعو إلى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبداً على أنني أنتظر أن تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعونني به أو تزيدونني إيضاحاً. ينكشف به الحجاب، وتنالون به الثواب. هذا وإني أعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي، ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الإنسان ولكنني لا أجد في السؤال عاراً، وكل عقل يخطيء ويصيب، ويزل ويستقيم.

أحد قرائكم

جواب المنار

لقد سَرَّنَا من السائل أنه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الإذعان فيسترسل في تعدي حدود الدين إلى فضاء الأهواء والشبهات التي تفسد الأرواح والأجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ إلى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم، بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وإن كثيراً من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند أول قزعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن الانهماك والاسترسال فيها، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري، كما أمات النشوء في الجهل برهانه الكسبي.

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج، لذلك تراه مسلماً المقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما، فإذا هو عاد إلى مبحث (حاجة البشر إلى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله، وأنه أقام

الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل، فإنني أرجو له أن يقتنع. ثم إنني آنست منه أنه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره. فإنه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وإنما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام. وإنني أكشف له شبهته أولاً، فأبين أنها لم تصب موضعها، ثم أعود إلى رأيي في الموضوع.

إن (جان درك) التي اشتبه عليه أمرها بوحي الأنبياء لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب تَدَّعي أن فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين، ولم تأتِ بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها، وإنما كانت فتاة ذات وجدان شريف، هاجه شعور الدين وحرَّكته مزعجات السياسة، فتحرك، فنفر، فصادف مساعدة من الحكومة، واستعداداً من الأمة للخروج من الذل الذي كانت فيه، وكان التحمس الذي حركته سبباً للحملة الصادقة على العدو وخذلانه، وما أسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات، وبما هو أضعف منها، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها، ككلمته المشهورة عند الأهرام.

وأُذَكِّر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها، فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستاني) ما نصه:

«كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت، وكان الناس في جوار دومري (أي بلدها) متمسكين بالخرافات ويميلون إلى حزب أورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا، وكانت جان تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع، تحب أن تتأمل في قصص العذراء، وعلى الأكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت، وهي أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها. ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها، ثم بعد ذلك ببضع سنين خُيل لها أنها قد دُعيت لتخلص بلادها وتتوج

ملكها. ثم أوقع البرغتيور تعدياً على القرية التي وُلدت فيها، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خُيل لها». ثم ذكر بعد ذلك توسلها إلى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها، وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الإنكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان، وأنها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩، ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجُرحت وأسرت.

فمن ملخص القصة: يعلم أن ما كان منها إنما هو تهيج عصبي، سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها مَن نشأت بينهم، مع معونة التحمس الديني والاعتقادات بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها، وهذا شيء عادي معروف السبب، وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر، كمحمد أحمد السوداني، والباب الإيراني (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها أبعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين، وإن كانت أسباب النهضة متقاربة، فإن هذين كانا كأمثالهما يدعوان إلى شيء (ملفق) يزعمان أنه إصلاح للبشر في الجملة.

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، المعروفة السبب، التي لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعي، إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الإنسان والحيوان الأعجم، التي لا حجة تدعمها، ولا معجزة تؤيدها، التي اشتعلت بنفخة، وطفئت بنخة؟ أين هي من دعوة الأنبياء التي بيَّن الأستاذ الإمام أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه] فسار الإنسان بذلك إلى كماله، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى؟ وأين دليلها من أدلة النبوة؟ وأين أثرها من أثر النبوة؟

إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسة لم تَرْتَقِ بإرشاد (جان درك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته، وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت

أمته بسببه ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها، وحكمة حكمائها، وصنع صناعها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد إليه، فلا يقال: إن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عُدَّ سبباً بعيداً، فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الأسطول وتنتصر الأمة.

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء: أميٌّ يتيم قضى سن الصبا وشرخ الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة: إنكم على ضلال مبين، فاتبعونِ أهدكم الصراط المستقيم، فأصلح -وهو الأمي- أديان البشر: عقائدها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض، فدخلت بتعليمه في طور جديد؟

لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم، إذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم، ولا سعة في جواب سؤال كهذا لتقرير الدليل على النبوة بالتفصيل، وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد، ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الأمالي الدينية في المنار، ولا سيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد في جوف الفرا[1]». فإن بقيت عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بياناً، وأنصع برهاناً، ونحن نعاهده على أن نكتم أمره، وإن أبى فليكتب إلينا ما يظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والأمالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن

---

(١) الفرا -بفتح الفاء مقصوراً- اسم لحمار الوحش، وهو خير ما يصاد لكبره وكثرة لحمه وجودته. وأصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً، واصطاد الثالث حمار وحش، فقال لهما وقد أعجبا بما أصابا (كل الصيد في جوف الفرا) أي كل ما يصاد يصغر دونه، كأنه يغيب في جوفه.

يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول، وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين. اهـ جوابنا في المنار[1].

هذا وإن ما بينه الأستاذ الإمام في إثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العلي الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويذعن له، فإنه بَيَّن أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه] ولا يفهمه حق الفهم إلا من أوتي نصيباً من علم الإجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد، ونصيباً آخر من بلاغة اللغة العربية. وإن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن إثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة، وهو ما قهر عقول علماء الإفرنج على تصديق دعوته، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي، ونقفي عليه بإثبات بطلانه.

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التي أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كُتَّاب الإفرنج، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين. وإنه لحسن الثناء ولكنه يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء، فإن كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية: إنكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم، وألبستموها للمسيح عليه السلام، فنحن نقول لهم: إنكم فصلتم قميصاً آخر مما استنبطتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه، وحاولتم خلعها على محمد ﷺ، وإنني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام، وما بلغني عن كل أحد منهم، ثم أكر عليها بالنقض والدحض، وأبدأ بمقدماتها وهي عشر:

(١) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئاً وكذلك الأستاذ الإمام فقد رضي به وأعجبه.

المقدمة الأولى لشبهة الوحي النفسي

دعوى الأخذ عن بَحيرى الراهب

قالوا: إن محمداً لقي بَحيرى الراهب في مدينة بُصرى بالشام، وقالوا إنه كان نسطورياً من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث، وإن محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته. وقالوا في بحيرى أيضاً إنه كان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً وساحراً. وإنه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل إسماعيل إلى الدين المسيحي. بل سمعنا من بعض الرهبان أنه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته. وأن محمداً ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرى وهو سكران. وأسرفوا في هذا الإفتراء والبهتان. وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس وذكر لعمه أنه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى بمعناها ضعيفة الأسانيد، إلا رواية للترمذي ليس فيها إسم بحيرى، وفيها غلط في المتن وليس في شيء من تلك الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرى شيئاً من عقيدته أو دينه.

المقدمة الثانية

دعوى الأخذ عن ورقة بن توفل

قالوا: إن ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة -يوهمون القاريء أنه ﷺ أخذ شيئاً من علم أهل الكتاب- والذي صح من خبر ورقة هذا: ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها بما رآه في حراء، إلى ورقة هذا وأخبرته خبره، وكان شيخاً قد عمي، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي، ولم ينقل أن النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون المؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ما له علاقة بالنبي ﷺ والإسلام فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة

فيها، وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد: إنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الإسلام، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح: أنه كان عند بدء الوحي أعمى ولم ينشب -أي لم يلبث- أن مات، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها، وعدم اطلاعه على ما دُون في كتب الحديث منها، وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا أكان صحابياً أم لا؟ فإن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمناً به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الإنجيل غير ما ذكروه لنقلوه.

المقدمة الثالثة

دعوى انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب

ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم، كقس بن ساعدة الإيادي، وأمية بن أبي الصلت، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. وقد نشرنا بعض بشاراتهم من التوراة والأناجيل وكتب النبوات بنصوصها المعتمدة عندهم في تفسير ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [١٥٧] من سورة الأعراف، ولكن لم يثبت أنه ﷺ سمع منها شيئاً.

فأما قس فقد مات قبل البعثة، وروي أن النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له أحمر، وقيل أورق، بكلام له مونق، قال فيه: إن لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه. والروايات في هذا ضعيفة (بل

بعضها موضوع وبعضها منقطع) وتعددها قد يدل على أن لها أصلاً، ولو حُفظ من كلامه شيء بسند صحيح لبينوه قطعاً.

وأما أمية بن أبي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور، قال أبو عبيدة: اتفقت العرب على أن أمية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار: حدثني عمي قال: كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً، وكان يذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الأوثان وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يُبعث بالحجاز، فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يُسلم، وهو الذي رثى قتلى بدر المشركين بالقصيدة التي أولها:

مـــــاذا ببــــــدر والعقــــــن قــــل مــــن مزاربــــة جحـــاجح؟

وفي المرآة عن ابن هشام أنه كان آمن بالنبي ﷺ فقدِم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر، فعلم بغزوة بدر وقتلى صناديد قريش فيها، فجدع أنف ناقته وشق ثوبه، وبكى لأن فيهم ابني خاله، وعاد إلى الطائف ومات فيها. وصح أن النبي ﷺ إستنشد الشريد بن عمرو من شعره، فأنشده، فقال «كاد أن يسلم» والمعروف أنه كان حنيفياً على ملة إبراهيم ولم يتنصر، ولم يلق النبي ﷺ قبل النبوة ولا بعدها. ومن شعره:

كــل ديــن يــوم القيامــة عنــد اللـــ ـــــه إلا ديــــن الحنيفيـــــة زور

المقدمة الرابعة

حديث إسلام سلمان الفارسي

كان سلمان الفارسي رضي الله عنه فارسياً مجوسياً فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عُبَّادهم، وسمع منهم، أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والأنبياء من العرب، فقصد بلاد العرب، وبيع لبعض يهود يثرب ظلماً وعدواناً، ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده (أي إشترى نفسه منه) وفي قصته روايات متعارضة، وهذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره.

المقدمة الخامسة

رحلة الشتاء والصيف لتجار قريش

ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منها كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب.

المقدمة السادسة

ما قيل من وجود يهود ونصارى بمكة

زعم درمنغام أنه كان بمكة نفسها أناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدماً، وكان رؤساء قريش لا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم، بل كان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء» وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم، أو ما كانوا يحفَلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة، ولكنه ذكر أن أبا سفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر.

فهذه مقدمات يذكرها كُتَّاب الإفرنج لتعليل ما ظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة، يعنون أنه سمع من أخبارها فتعلقت نفسه به، على طريقتهم في الاستنباط، وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة إلى ما قبلها، مع الإلمام بنقدها.

المقدمة السابعة

ما زعمه من سبب نشوء محمد ﷺ أمياً

وما استفاد من رحلاته التجارية

قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: إنه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوهم القارىء أن أولاد الموسرين بمكة

كانوا يتعلمون، كأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له)، ثم قال: ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية، وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيئها، ويقال: إنه في إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بَحيرى في جوار مدينة بُصرى، وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه. وفي الشام عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عُبَّاد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم».

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله، ومبتدعات رأيه، ألبسه حلة من طراز البيان الإفرنسي، إلا مسألة بحيرى الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحفَل بإثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها.

فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه إلى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم، وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته. ثم سافر إليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة، ولم يتجاوز سوق مدينة بُصرى في المرتين، والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمر بمدين وهي أرض سيناء، ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب أو الأعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها، ولم يعرف عن تجارها أنهم كانوا يعنون بلقاء أحبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الأمم والتواريخ والكتب والأديان، ويعنى بلقاء رؤسائها والبحث معهم كما يفعل رواد العلم والتاريخ وجواسيس السياسة من الإفرنج في هذا العصر. إنما اخترع هذا لأنه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الإنباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي. وسترى ما نفند به تعليله وتحليله وتركيبه، على تقدير صحة ما زعمه كله.

المقدمة الثامنة

تصوير مجامع قريش بمكة وشأن محمد فيها

ثم ذكر درمنغام أن العرب -ولا سيما أهل مكة- كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك، وأن التاريخ يشهد بأن محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك، لا لفقره وضيق ذات يده بل لما صوره بقوله «لكن نفس محمد كانت شغوفاً بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً بها وتعلقاً، كما أن النفس العظيمة التي تجلت فيه من بعد ذلك آثارها، وما زال يغمر العالم سلطانها، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح إليه أهل مكة إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به» لعله يريد الملهمين.

هذا الخبر من مخترعات خيال درمنغام، فمحمد لم يكن شغوفاً بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور، ولا أن يسمع ذلك، ولا كان يتحرى أن يعرفه، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت الشمس، فلم ير ولم يسمع شيئاً، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر، على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين: (إحداهما) أن أنداده من قريش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنهم آباؤهم من العلم، وكان حرمانه هذا يزيده شغفاً بالبحث والاستطلاع. (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه ﷺ بعد ذلك من الوحي، وسترى بطلان تعليله.

المقدمة التاسعة

موت أبناء محمد وما أثاره في نفسه

ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب الطاهر، وهو يشك في وجودهم، ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم، وإنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد. هذا زعم ووهم، والحق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكُني به، وأنه مات طفلاً، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة، فهذا متواتر. ثم ولد له آخر سماه عبد الله، والصحيح أن الطيب والطاهر لقبان له لا إسمين لغلامين آخرين كما قيل[1]. ولكن درمنغام قد كبَّر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذين يشك في وجودهم تكبيراً وبنى عليها حكماً، وأثارهما. قال بعد أن زعم ان محمداً تبني زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً.

«فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ما هي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر. والأمر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثر بعبر الحوادث ودروسها، وحوادث أليمة -كوفاة أبنائه- جديرة بأن تستوقف تفكيره، وأن تصرفه كل واحدة منها إلى ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل، فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور».

قال «والأمر كان كذلك، لا ريب أن كانت عبادة الأصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة إليها من الروم، ومن اليمن، متخطية إليها من خليج العرب (البحر الأحمر) من بلاد الحبشة».

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الأبناء المشكوك في ولادتهم عنده هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الأصنام بالقرابين لينقذوها من

---

(١) وقع في الطبعتين السابقتين أنهما كانا لقبين للقاسم وهو سهو. وحكمة موتهما ثم موت ولده إبراهيم الذي ولدته له مارية القبطية أنه لو ترك ولداً ذكراً لفتن بعض الناس بعبادته وعبادة ذريته بأشد مما فتنوا ببعض ذرية بنته فاطمة عليها السلام.

مصيبة الثكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلها بعبادتها التي كان سببها تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الأسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ.

والحق أنه ما تبني زيداً إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عندما جاءا مكة لافتدائه بالمال. فقال لهما «ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما، فقال له «فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» فقال زيد: ما أنا بالذي اختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدُعي زيداً بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام. رواه ابن سعد، ونحوه في سيرة ابن اسحق.

هذا وإن محمداً لم يكن جزوعاً عند موت ولده ولا غيره، بل كان أصبر الصابرين، وأن خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للأصنام شيئاً – وأن اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف، ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة، وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد -وزعم أن سببه إنتشار النصرانية- جديراً بأن يمنع خديجة – وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم- أن تهاجر إلى هذه الأصنام لتنحر لها وتتقرب اليها لترزقها غلاماً[1]، فإن لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والأصنام من طفولته، كما يعترف درمنغام – ولكن اتباع الهوى يُنسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه.

---

(١) إن قريشاً لم تكن تعتقد أن الأصنام تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع وإنما كانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله.

المقدمة العاشرة

ضعف الوثنية في العرب وتعبد محمد في الغار وسببها بزعم درمنغام

زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف، وزعمه هذا له أصل، ولكنه زاد فيه وكبره وفرع عليه قوله:

«وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما في الكون من أسبابها، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس، مكتفياً بالقليل من الزاد يُحمل إليه ليُمضي أياماً طويلة بالغار في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة».

وأقول: إن روايات المحدثين تفيد أنه حبب إليه الخلاء والوحدة والتحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي، وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله إليه، وما ذكره ابن إسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة إنما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي. ولم يكن في أعوام ولا شهور قبله، وأما قوله: إنه كان يتوسل بذلك إلى ما اشتد شوقه إليه من المعرفة وابتغاء الإلهام مما في الكون من أسبابها، فهو مما يخطر في بال الباحث في حياة رجل صدر عنه عقب هذه الخلوة ما صدر من علم ومعرفة وإصلاح، وإرشاد إلى النظر والتفكر في آيات السموات والأرض، ولكن لم يرو عنه ﷺ أنه كان يقصد ذلك ويبتغيه، ولا روي عن أصحابه وأترابه الذين كانوا يعرفون سيرته الطاهرة، وآمنوا به كأبي بكر وعثمان وعميه حمزة والعباس، ولا عن ربيبه وصفيه وابن عمه علي ولا حِبه ومولاه زيد ابن حارثة رضي الله عنهم والتحقيق في ذلك كله ما تراه في المباحث الآتية:

نتيجة

تلك المقدمات العشر

ههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له، فأرخى لخياله العنان، ونزع من جواده اللجام، ونخسه بالمهماز، فعدا به سبحاً، وجمح به جمحاً، وأورت حوافره له قدحاً، فأثارت له نقعاً، وأذن لشاعريته الفرنسية في بريق لمعها، وظلمة نقعها، أن تصف محمداً عند ذلك الغار، بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل، وما تسفعه به شمس النهار، وما تخيل إليه أنه كان يراه في قنة الجبل من صحارى وقفار، وخيام وآبار، وما ثم خيام ولا آبار، ومن رعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار، حتى ذكر البحار على بعد البحار، وسيذكر موج البحر أيضاً، ونسي أن يصف الفلك المواخر فيه، وما يعرض لها في حالة الرهو والريح الطيبة، وحالة العواصف والأمواج المصطخبة، فكل منها ذكر في القرآن، ولم يكن رآه محمد من جبل حراء. وقد أتقن هذا الفرنسي التخيل الشعري، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي.

ثم قال مصوراً لما يبتغيه محمد ﷺ من مشاهداته المزعومة:

«وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الإنسان أن يسمع بصيص ضوئها، وكأنه نغم نار موقدة.

«حقا! إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب بل العالم غيب كله لكن! ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؟ ليرى حقاً؟ وليسمع الكلم الخالد؟ لكن للناس عيوناً لا ترى وآذاناً لا تسمع. أما هو فيحسب (!!) أنه يسمع ويرى. وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ونفس مخلصة، وفؤاد مليء إيماناً؟

«ومحمد في ريب من حكمة الناس، فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص، الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق، والحق ليس فيما يرى حوله، فحياة القرشيين ليست حقاً، وربا المرابين ونهب البدو

ولهو الخلعاء وكل ما إلى ذلك لا شيء من الحق فيه، والأصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً، وهبل الإله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس إلهاً حقاً.

«إذن فأين الحق وما هو؟

«وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متوالية، وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لأن هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى (!) فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً، وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها، وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء وساعات صفوها البديع، إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه (!) وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود - في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب إلى مكنون سره.

(قال درمنغام): فلما كانت سنة ٦١٠ أو نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها، فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وأن الناس نسوا هذا الأمر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والأشباح والبوارح، وأهملوا الحقيقة العليا، ولعلهم لم ينكروها، ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح. وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها، ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد.

«ولقد عَرف أن المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أُوحي به (!) وأن أقواماً غيرهم نزلت عليهم كلمة الله، وأنهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحي إليهم به، وكلما ضل الناس بعثت السماء إليهم نبياً يهديهم إلى الصراط

المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة. وهذا الدين الذي جاء به الأنبياء في كل الأزمان دين واحد، وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يُقَوِّم عِوَجهم. وقد كان الشعب العربي يومئذ في أشد تيهاء الضلال. أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم إلى الحق؟

«وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقاً، وجعل يقضي الأسابيع ومعه قليل من الزاد، وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقليب فكرته صِقالاً وحدَّة، ونسي النهار والليل، والحلم واليقظة، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار، أو مستلقياً في الشمس، أو سائراً بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية، وكأنه يسمع الأصوات التي تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته (!).

«وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره، فأسرَّ بمخاوفه إلى خديجة فطمأنته، وجعلت تحدثه بأنه الأمين، وأن الجن لا يمكن أن تقترب منه، وفيما هو يوماً نائم بالغار جاءه ملك فقال له: إقرأ، قال «ما أنا بقاريء» وكان هذا الوحي وأول النبوة.

«وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة، حياة تأخذ بالأبصار والألباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية» اهـ.

أقول: إن كل ما هنا من خبر أو جله غير صحيح، ولو صحت لكان ما استنبطه منها مما يخطر بالبال، ولكن الوحي المحمدي فوق كل استنباط وكل احتمال، فمن أين علم هذا الإفرنسي أن محمداً نسى الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس الخ، وأنه قضى ستة أشهر في هذا الحال؟ قد افترى في الأخبار[1] ليستنبط منها أنه صار صلوات الله عليه

(١) أي افترى في أثنائها ما ليس له أصل من روايات السيرة، ولم يفترها كلها، كما أنه لم يعرف الصحيح من الضعيف فيها، وفسرها بما وافق رأيه في سبب ذلك الوحي العظيم الذي يعترف هو بعظمته وحكمته.

مغلوباً على عقله، غائباً عن حسه، غارقاً في بحر لُجِّي من خياله أثمر له انبثاق ذلك الوحي العالي من نفسه، وتجليه لبصره وسمعه.

وإنني أبدأ الرد عليه وعلى أمثاله بنقل أصح الروايات في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد -من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها- لتفنيد أخيلته وشعرياته، وإبطال نتيجة مقدماته، والإستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الذي بعد هذا من كتابه. ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما. وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه في كتابه الجامع الصحيح:

باب

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

افتتح الحافظ البخاري هذا الباب -بل الكتاب كله- بروايته لحديث «إنما الأعمال بالنيات» ثم قال:

«حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي[1]؟ قال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس[2] وهو أشده عليَّ، فيفصم[3] عني وقد وعيت عنه ما قال،

---

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الإعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة، منها: الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والإلهام وإلقاء المَلَك وله معنى خاص، هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الإلهي الوارد في قوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى]. وهذا الحديث فيه وصف القسم الأول وذِكر الثالث، وأما الثاني وهو الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون وساطة فقد ثبت للنبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، ولموسى عليه الصلاة والسلام. وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي، والرؤيا الصادقة والإلهام مما وقع ويقع لغير الأنبياء.

(٢) المراد من التشبيه: أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف. والأقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحداً منهم في حال سماعه. وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون: انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالمَلَكية الروحانية والحالة الأخرى عكسها، لأنها انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

(٣) يفصم - على وزن يضرب: ينفك وينجلي.

وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً[1]، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[2]».

«حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت «أول ما بُديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم[3]، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه[4] -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق[5]، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقاريء[6]، قال:

---

(١) أي يظهر بصفة رجل ومثاله، وذلك أن المَلَك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة، فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها. وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصور بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة، وأقواها حرارة الكهربائية، والمَلَك يتصرف في الكهربائية كما يشاء، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] - راجع ص ١٦٢ - ١٦٧ ج ٩ تفسير.

(٢) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد: حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها. اهـ.

(٣) أكثر الرؤى أضغاث أحلام، لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا الصالحة نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لإدراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعد اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والأفكار، ورؤيا الأنبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الإلهي.

(٤) أصل التحنث: اتقاء الحنث أي الذنب، أو مقلوب التحنف، وهو اتباع الحنيفية ملة إبراهيم. وهو رواية ابن هشام. وقوله: وهو التعبد، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث، والليالي ظرف متعلق بيتحنث.

(٥) وفي رواية «فجئه الحق» أي بغته ولم يكن ينتظره والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة، وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق «أن جبريل جاءه في المنام» وهي من مراسيل عبيد بن عمير وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة المرفوعة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه، ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه ﷺ بعد اليقظة، ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده.

(٦) الظاهر: أن الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئاً، ولذلك قال له في الثالثة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي كن قارئاً بإسمه ومن قبله وباقداره إياك على القراءة، لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك

فأخذني فغطني[1] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق][2]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي»[3] فقالت خديجة، كلا، والله ما يخزيك الله أبداً[4]، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة، أما وقد شاء ربك - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول إليه نطفة الزوجين بعد العلوق، فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر ويعقل - شاء أن يجعلك قارئاً لما يوحيه إليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً.

(١) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط، فقالوا: أي ضمني وعصرني، وفي رواية الطبري للحديث «فغتني» بالمثناة الفوقية وعليها ابن هشام تبعاً لإبن إسحاق، والغط: هو الغت مخرجها واحد. وأصل معناهما: الغمس في الماء وضيق النفس وفسره بعضهم بالخنق وهو مبالغة لا تليق هنا. وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي ﷺ حتى يقوى على الاتصال بالمَلَك والفهم منه.

(٢) اختصره هنا وزاد في التفسير ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

(٣) اختلف العلماء في خوفه ﷺ على نفسه، فقيل خشي الجنون وأن يكون ما رآه من الجن، وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر، ولكن الحافظ قال: إنه روي من عدة طرق. (أقول) وهو الظاهر مما أجابته به خديجة. واستشكل بأن الوحي يكون مقترناً بعلم قطعي بأنه من الله وأن الملقن له من الملائكة، وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف المَلَك له وإعلامه إياه بذلك، عند تلقينه الأمر بالتبليغ، وإنما كان ظهور المَلَك له هذه المرة لأجل الإيناس والإعداد لتلقي وحي الأحكام، والأمر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، وإلا كان من تكليف ما لا يطاق. وقيل: إنه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب، وثم أقوال أخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على أنه ﷺ لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبياً، ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام، ويؤيد ذلك مسألة ورقة.

(٤) الخزي اسم، معناه الذل والهوان. أخزاه أذله وأهانه. والكل- بفتح الكاف- المتعب، ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل أثقاله وتكسب - بفتح التاء، وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود قيل: ولا يظهر معناه إلا بتكلف. وقال الخطابي: الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه. اهـ. ولكن الرواية «المعدوم» وهو وصف لمحذوف، وتكسب الثلاثي من الكسب يتعدى بنفسه إلى مفعولين حذف أولهما، والمعنى وتجعل المحتاج العاجز عن الكسب كاسباً للشيء المعدوم الذي يفقده ببذله له، أو بمساعدته على كسبه، والإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل. وما رغب خديجة في التزوج به ﷺ إلا هذه الفضائل التي أحاطت بها خبراً بمعاشرته الزوجية، ولذلك عد بعض علماء الإفرنج إيمانها به أصح شهادة له.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١]، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[٢] الذي نزل الله على موسى: ليتني فيها جذعاً[٣]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب[٤] ورقة أن توفي وفتر الوحي[٥].

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت

---

(١) وفي رواية البخاري في كتاب التفسير من صحيحه «يكتب من الإنجيل بالعربية» وفي معناها رواية مسلم «فكان يكتب الكتاب العربي» ولا تنافي بين الروايات، إذ كان يعرف اللغتين. وورقة ابن عم خديجة، وأما قولها له «اسمع من ابن أخيك» فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم، وكذا قوله للنبي ﷺ «يا ابن أخي» وما زال يستعمل في خطاب أولاد الأقرباء، والأصدقاء.

(٢) الناموس: في اللغة صاحب السر، والمراد به أمين الوحي جبريل وقوله «نزل الله على موسى» ولم يقل وعيسى لأن الشبه بين الوحي إلى موسى ومحمد عليهما السلام أتم، لأن كلا منهما أوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية، وعيسى عليه السلام كان تابعاً لشريعة التوراة وناسخاً لبعض الأحكام التي يقتضيها الإصلاح، ومبشراً بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم، وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين، وفي بعض الروايات الضعيفة: أن ورقة قال «ناموس عيسى»، وفي رواية أخرى حسنة الإسناد في دلائل النبوة لأبي نعيم «أن خديجة جاءت ورقة وحدها أولاً فذكرت له الخبر فقال لها: إن كنت صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم» اهـ. والناموس واحد على كل حال، ولكن رواية الصحيحين «فانطلقت به» تدل على التعقيب أي أنها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى وعليها المعول، وما خالفها مرسل مروى بالمعنى الذي فهمه عبيد بن عمير ومن دونه.

(٣) قوله: ليتني فيها جذعاً: الجذع بفتحتين خلاف المسن من البهائم واشتهرت استعارته للشاب من الناس. والإخراج: النفي من الوطن.

(٤) لم ينشب - بفتح الشين المعجمة - أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي ﷺ ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه أنه أدرك زمن البعثة وإضطهاد المشركين للمؤمنين. والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفى عقب هذا الحديث بقليل.

(٥) فتر الوحي انقطع مؤقتاً ليعود -وكانت فترة الوحي ثلاث سنين- وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بإنذار الناس.

صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت، فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدَّثر] إلى قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثر] فحمي الوحي وتتابع[1]» اهـ.

وأقول: أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها: أن أولها هو أول ما أُنزل مطلقاً، وفي البعض الآخر: أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا، وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية المَلَك بقوله «فجُئِثت منه رعباً» وفي رواية أخرى «فجُئِثت منه حتى هويت إلى الأرض» أي فزعت وخفت، وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول.

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن، والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة، وبعدها بقية سورة المدثر. وقال مجاهد: أول ما نزل سورة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ وهو غلط، وروي عن علي رضي الله عنه أن أول ما نزل سورة الفاتحة، واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب، ويمكن أن يراد أنها أول

---

(١) أي إتصلت مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة، ولكنه كان نجوماً متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى. وقد اختلط الأمر في هذا على درمنغام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحي، والمروي أنه نزل قبلها بضع سور. وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان «أن النبي ﷺ اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى]. اهـ. تُقرأ «ودعك» بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر: البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبو لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم، وكان هذا بعد نزول سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾. وروى ابن جرير من طريقين مرسلين «أن جبريل أبطأ على النبي ﷺ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت» ومعارضة رواية الصحيحين بهاته الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجعاً، وحمالة الحطب قالته شماتة.

سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني، ثم بالأمر بالتبليغ الإجمالي، وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل، أو نزلتا في وقت واحد.

وسيأتي كلام آخر في فترة الوحي وأول ما نزل بعده.

بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ

هاأنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا أنه استفاده من أسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي، وكيف كان بدؤه وفترته، ثم كيف أمر نبيه ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق، وكيف حمي وتتابع؟

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه إلى العقل، ثم أقفي عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ، والصحيح من وصف حالته ﷺ، فأقول:

يقولون: (أولاً) إن عقل محمد الهيولاني -أو ما يسمونه في عصرنا بالعقل الباطن- قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثانياً) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثالثاً) إن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات: من السكر والتسري وعزف القيان، ونقول: الصحيح: أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه.

(رابعاً) أنه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات، ونقول: لا مانع من ذلك.

(خامساً) أنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور. ونقول: إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا.

(سادساً) أن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع. ونقول: هذا مبني على ما قبله، فهو معقول غير منقول.

(سابعاً) أنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه ونقول: إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح. وسيأتي ما فيه.

(ثامناً) وهو نتيجة ما تقدم: أنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار حراء فقوي هناك إيمانه، وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود، وسر النظام الساري في كل موجود، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له المَلَك ويلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الأصل من تلك الينابيع التي ذكرناها، ومما هداه إليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء وأنها خطاب الخالق عز وجل

بواسطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل روح القدس عليه السلام، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى ابن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام.

وقال أحد ملاحدة المصريين: إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانوناً وشريعة لقومه، فليس بِدعاً في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً. وسأبين فساد هذا الرأي أيضاً.

تفنيد تصويرهم للوحي النفسي

وإبطاله من وجوه

(الوجه الأول) أن أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة، أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخية ثابتة، كما بيناه عند ذكرها، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها.

مثال ذلك: زعمهم أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم - ليوهموا الناس أن ما جاء في أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام. وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل: فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة. ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس، حتى إن أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر، وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان[1].

---

(١) في القصة روايات من طرق فيها خلاف فيما قدروا فيه البِضْع وهو في الأصل من ٣ - ٩ فقيل خمس وقيل ست ولام النبي ﷺ أبا بكر على تحديده وقد أبهمه الله تعالى، وفي بعضها أنهم أخطئوا الأجل الأول فأمر النبي ﷺ بأن يمادوهم في الأجل ويزايدوهم في الرهن ففعلوا ورضي المشركون. وكان الذي تولى قمارهم أبي بن خلف فأظهر الله الروم على الفرس عند إنتهائه على رأس السبع من قمارهم الأول.

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين - لا من قِبَل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الأخبار غير الموثوق بها. وقد صح أن إنتصار الروم وقع سنة ٦٢٢م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين وإن كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين، وهو المعتمد في التفسير، والبِضْع يطلق على ما بين الثلاث والتسع.

والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم]، ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً - هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة. وأنباء الوحي والعبر لا تكون باسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور، فهذه الآية فريدة في بابها.

ومثال آخر: ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها، الذي أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها، والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه في المقدمات، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحي الذي جاءه في قصة موسى وقصة شعيب عليهما السلام.

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى من علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما عُلم من سيرة رواته.

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى، فإنهم كانوا

يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة، وهو أنه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد، فضلاً عن الكذب على الله عز وجل كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل ويقينه بكل ما أوحاه إليه.

ومن الشواهد على ذلك: قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص]، وقوله بعد قصة نوح من سورة هود ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، ونحوه في أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف].

ومن الشواهد التي لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران].

الأقلام جمع قلم تطلق على الأزلام والأقداح التي كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه، وعلى أقلام الكتابة، وتكون القرعة بأوراق تخط

بها، كما هو المعهود في عصرنا، والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا في كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه السلام، كما قال تعالى في أول قصتها (٣ : ٣٧).

(الوجه الخامس) أنه لم يرد في الأخبار الصحيحة والمرفوعة[1] أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه، كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت، بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص:٨٦]، أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل، ولا رجاء ولا أمل. فهذا تأكيد وتكميل الشاهد الأول من الوجه الرابع.

(الوجه السادس) أن حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى المَلَك أول مرة. ولم تجد زوجته خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر، وقرأ كتب اليهود والنصارى.

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، والوجدان الملتهب، والقلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده، تجلى له رجاؤه له واعتقاده، بما تم به مراده، لظهر عقب كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة، فكرته الوقادة، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، في بيان أصول الإيمان، وتوحيد الديان، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة والأوثان، وتشريع الأحبار والرهبان واتخاذ الولد للرحمن، وإنذار رءوس الكفر والطغيان، ما سيلقون في الدنيا من الخزي

(١) الحديث المرفوع في اصطلاح المحدثين ما صرح الصحابي بأنه من قوم النبي ﷺ.

والنكال، وفي الآخرة من عذاب النار، كسور المفصل ولا سيما ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ والذاريات والطور والنجم والقمر، ثم الحاقة والنبأ - أو في سورة أو أكثر من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل، بسنن الله في الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون.

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به: خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره - فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه، واستعداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه، والاختبار الذي توهموه.

(الوجه الثامن) أن ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الأمور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر رداً على قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن - فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكر له، وأنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به. قال له الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله[1]، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره من غيره، فنزلت الآيات ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾ [المدَّثر] إلى الآية ٣٠. رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري.

---

(١) وفي رواية: وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

وقد نزلت سورة ﴿اقْرَأْ﴾، فسورة ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾، فسورة المزمل، قبل سورة المدثر، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده في الأسفار، ولا مما وصفوا من أفكاره في الغار، فليراجع ترتيب نزول السور في كتاب الإتقان من شاء.

(الوجه التاسع) أن هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن.

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بَحيرى ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم.

وإن القرآن نزل مصدقاً لكُتب أهل الكتاب من حيث كونها في الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم - ونزل أيضاً مهيمناً عليها، أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (الخامسة)، ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٤ : ٤٤ و ٥١)، أي لا كله، ونسوا حظا آخر منه (٥ : ١٣ و ١٤)، وأنهم حرفوا كَلِمه عن مواضعه (٢ : ٧٥ و ٤ : ٤٦ و ٥ : ١٣ و ٤١)، وبَيَّن كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار.

ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام، سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كإنجيل طفولة المسيح وإنجيل برنابا أم لا؟ فمحمد لم يعقد في الشام ولا مكة مجمعاً مسيحياً كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية، ويحكم بصحة بعضها دون بعض.

إن وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة، وعلى فرض وقوعه يقال: كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حُكمه الخطأ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[1] يعني فيما سكت عنه القرآن، لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، أو يكون ما صدقوهم به مما نسو حقيقته، أو حرفوا أو بدلوا.

(العاشر) أن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى، ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته - وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه، وغير ذلك.

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلهية: ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه.

رويدكم أيها المفتاتون[2] الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتُصورون، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تَدَّعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون.

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم، المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوته، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ، وأحمد والبزار من حديث جابر بلفظ «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي» وسببه أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن اليهود فعلم بذلك النبي ﷺ فغضب وقاله.

(٢) يقال: افتات فلان إذا سبق بفعل شيء وإستبد به ولم يؤامر فيه من هو أحق منه بالأمر فيه، لأنه أعلم به وأجدر بتحقيقه، ويقال: فلان لا يفتات عليه أي لا يتدخل أحد في أموره بدون أمره وإذنه، وأصله الهمز. فيقال: افتأت عليه أيضاً.

سولون الفيلسوف اليوناني الذي شَبَّه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بُعد الشبه بين أمي نشأ بين الأميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة، ودخل في كل أمور الأمة والدولة كسولون هذا[1].

القول الحق

في استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحي

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته: هو أنه خلقه كامل الفطرة ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني ليبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه بَغَّض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الأعلى لتنفيذ ما يوجه إليه من الشرع الأعلى.

فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه وفراغه خمساً وعشرين سنة مع زوجته خديجة كانت في عشر منها كهلة نصفاً أم أولاد، وفي ١٥ منها عجوزاً يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس إليه، وظل يذكرها ويفضلها

---

(١) سولون: أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الأعمال الإدارية والعسكرية وقيادة الجيش. وقد انتُخب في سنة ٥٩٤ ق.م (ارخونا) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (زراكوت) من قبله. فوضع لهم نظاماً جديداً قررت الحكومة والأمة إتخاذه دستوراً متبعاً مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه مُنَقِّحاً ومجدداً لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها، فكان متعلماً وفيلسوفاً وحاكماً وقائداً ورئيساً، أفيقاس عليه محمد ﷺ الأمي الذي لم يقرأ سطراً ولم ير كتاباً، ولا تولى عملاً إدارياً ولا سياسياً، ثم إن ما جاء به لم يكن قانوناً موضعياً مُنَقِّحاً لقوانين أخرى قبله، بل كان إصلاحاً لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم وأحكامهم وسياستهم وحروبهم الخ؟ أنظر أيها القارىء إلى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم الذي هو مناط شرفهم وفخرهم على الأمم!!

على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه، ومكانة والدها العليا في أصحابه. وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق، فكان على شجاعته الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم، لأجل صدهم عن دينه ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً منهم (هو أُبَيّ بن خلف) كان موطناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مِغْفَر ودرع، فلم يجد ﷺ بداً من قتله فطعنه في ترقوته من خَلَل الدرع والمغفر فقتله، وظل طول عمره ثابتاً على أخلاقه، من الزهد والجود والإيثار، فكان بعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يوثر التقشف وشظف العيش على نعمته، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات، ونهيه عن تركها تديناً، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد، وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار.

أكمل الله استعداده الفطري الوهبي «لا الكسبي» للبعثة بإكمال دين النبيين والمرسلين، والتشريع الكافي الكامل لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً، وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة[1]، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ[2] من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء

(١) المنافرة: المحاكمة والمفاخرة في الأحساب والأنساب.

(٢) كان للعرب في عهد الجاهلية أسواق ومجامع في الحجاز يقصدونها في موسم الحج للبيع والشراء ولإظهار مناقبهم ومجد آبائهم وقبائلهم، أولها عكاظ بالضم -بوزن غراب- وهي من عمل الطائف عن طريق اليمن. وقال أبو عبيد: هي صحراء مستوية لا عَلَم -بفتحتين- بها ولا جبل، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق نحواً من نصف شهر في ذي القعدة، ثم يأتون سوق ذي مِجَنَّة -بكسر الميم وتشديد النون- وهي دون عكاظ إلى مكة، فيقيمون فيها إلى آخر ذي القعدة، ثم يأتون سوق ذي المجاز، وهي أقرب إلى مكة، فيقيمون فيها إلى يوم التروية -وهو اليوم الذي قبل عرفة، الذي هو تاسع ذي الحجة- ومنها يصدرون إلى منى فعرفات.

لغتهم، وإتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية بن الصلت فقال «إن كاد ليسلم» وقال «آمن شعره وكفر قلبه» وقال «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر حِكَماً» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله «إن من البيان لسحراً» فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر.

قلنا: إن الله تعالى جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطرياً وإلهامياً لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، وإنه لم يُرو عنه أنه كان يرجوها، كما رُوي عن أمية بن أبي الصلت، بل أخبر الله عنه أنه لم يكن يرجوها كما تقدم ولكن رُوي عن خديجة رضي الله عنها أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته، وما قاله بَحيرى الراهب فيه، تعلق أملها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح، كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً.

فإن قيل: إنه يقويها حلفها بالله أن الله تعالى لا يخزيه أبداً، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله. ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه.

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعدادا الوهبي، ولذلك الاستعداد السلبي، من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى المَلَك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يَخَف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞﴾، وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا

ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾، وألم به في رسالة التوحيد إلماماً مختصراً مفيداً، فقال:

«من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[1].

«ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بُغِّضَت إليه الوثنية من مبدإ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضُّحى] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تُلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل، إلى ما هُدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اهـ.

(أقول) وجملة القول أن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة، بما يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة، لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر.

(١) كأمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل.

الأمثال النورانية

لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه، وكتاب الله تعالى ودينه

لقد كان محمد ﷺ في فطرته السليمة، وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل، الذي تلوته عليك آنفاً من آخر سورة الشورى، هو مضرب المثل في قوله تعالى من سورة النور ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

فمصباح الروح المحمدية، في زجاجة فطرته الزكية، المتلألئة كالكواكب الدرية، يوقد من شجرة مباركة قدوسية، زيتونة لا شرقية ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية، بل هي إلهية علوية، أشبه بها عرف الناس في عصرنا بالكهربائية، يكاد زيت كمالها الفطري يضيء بذاته ولو لم تمسسه نار، فمسه نور الله بها أوحاه إليه، فاشتعل بها عم العالم من الأنوار، ولا غرو فقد جعل الله محمداً نوراً، وجعل كتابه الذي أنزل إليه نوراً، وجعل دينه نوراً.

قال تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ [1] وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة]، وقال ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء]، وقال ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر:٢٢]، وقال ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وقال في خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد ﷺ من الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد]، وقال فيمن

---

(١) النور هنا هو محمد رسول الله ﷺ بدليل عطف الكتاب عليه.

استجاب لهذه الدعوة ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومما كان يدعو به ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل لي في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً» رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس.

فيا مسيو درمنغام! إنك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج، فلا تحسبن أن محمداً اقتبسه من أعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام، أو استوراه من تفكره في أمور الكون والناس، فالأمر أعظم من ذلك، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية العربية، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائه الأصلية، إنما هو فائض من نور الله الأعظم، على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، هو كما قال البوصيري:

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفيء القنديلا

وكما قال في أول همزيته:

كيف ترقى رقيك الأنبياء؟ ... يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

أنت مصباح كل فضل فما تص ... در إلا عن ضوئك الأضواء

أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات، التي أشرقت بنورها الأرض والسموات، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون في ظلمة الوثنية الهالكة، ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة، الذين ضرب

لهم الله المثل بعد مثل النور الذي اقتبسناه من سورة النور بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور].

فارجع أيها الناظر المنصف إلى وجدانك، وتأمل هذه الأمثال الإلهية، وما تراه في سائر هذا الكتاب، لعل الله يتم نور إنصافك، فتكتب كتاباً آخر تثبت به الوحي الإلهي المعصوم لمحمد خاتم النبيين، ببلاغتك الفرنسية، وتدعو قومك إلى الاهتداء بكتابه القويم، ومعالجة مفاسد إلحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم.

***

هذا ما نراه كافياً لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده.

ويتلوه ما هو أقوى دليلاً، وأقوم قيلاً، وهو موضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة، وحجته الناهضة، ومصدر جميع تلك الأنوار الفائضة، وهو:

آية الله الكبرى

القرآن العظيم

القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد، الكتاب العزيز

الذي

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾

هو كتاب لا كالكتب، هو آية لا كالآيات هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار، هو سر لا كالأسرار، هو كلام لا كالكلام، هو كلام الله الحي القيوم، الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من

سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقاه عن الروح الأمين، ثم بيانه لهم بالقول والعمل ليهتدوا به. فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وهدايته وتأثيره وعلومه، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ولا مواهبه، من علومه ومعارفه، وفصاحته وبلاغته، وهو ﷺ لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به، بل فيه آيات صريحة ناطقة بأنه لم يكن يعلم شيئاً من علومه - تقدم بعضها، وبأنه كان يعجز كغيره عن الإتيان بمثله، وهو ما أمره تعالى أن يقوله للناس في تحديه إياهم واستدلاله به على نبوته، وهو قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾؟ [يونس]، أي لو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته، ولما أعلمكم هو به، فإني إنما تلوته عليكم بمشيئته وأمره، فقد أقمت فيكم عمراً طويلاً لم أتل عليكم شيئاً، أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يصدر عنه علم ولا عرفان، ولا بلاغة لسان، لا يمكن أن يصدر عنه بعد الاكتهال، ما لم يكن له أدنى نصيب منه في سن الشباب[1]؟

وقد بينت في الكلام على آية التحدي بالقرآن من تفسير سورة البقرة (٢ : ٢٣) أهم وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي بالإجمال والإيجاز، وهي بضعة أنواع[2].

---

(١) راجع تفسير الآية في ص ٣٢٠ من جزء التفسير الحادي عشر تر ما يؤيد هذا الدليل العقلي من العلم العصري.

(٢) هي: (١) أسلوبه ونظمه. (٢) بلاغته. (٣) ما فيه من علم الغيب الماضي والحاضر والآتي. (٤) سلامته من الاختلاف بأنواعه. (٥) ما فيه من العلوم الدينية والتشريع. (٦) عجز الزمان عن نقض شيء منه بما تجدد فيه من العلوم. (٧) اشتماله على مسائل كثيرة لم تكن معروفة في عصر نزوله للبشر. ويتلو هذه الأنواع وجوه دلالتها على نبوة محمد ﷺ وتفسير الآية في الجزء الأول من تفسير المنار (ص ١٩١ - ٢٢٨).

ثم تكلمت عن التحدي ببلاغته ونظمه في آيتي يونس (١٠ : ٣٧ و ٣٨)، ومنه دلالتهما على عجز النبي ﷺ عن الإتيان بسورة من مثله كغيره ومنه وجه التحدي بعشر سور مثله مفتريات، ووجه الإعجاز في السور القصيرة وسأعود إلى هذا في آخر الكتاب.

وأوجه الكلام هنا إلى هداية القرآن بإسلوبه وتأثيره وعلومه المصلحة للبشر، بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل، وهو القدر الذي يُعلم منه أن هذه العلوم أهدى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الأنبياء والحكماء، وواضعي الشرائع والقوانين، وساسة الشعوب والأمم، وأن إعجازه من هذه الناحية أقوى البراهين على كونه وحياً من الله تعالى تقوم به الحجة على جميع البشر.

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عليماً حكيماً رحيماً مريداً فاعلاً مختاراً، فلا مندوحة له ولا مناص من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم، وتزكية أنفسهم وإصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازباً عاماً كما قال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

ومَن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم، فهذا القرآن حجة ناهضة على وجوده الحق، بكونه ليس من المعهود في الخلق، وبما اشتمل عليه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق، فمن لم يهتد إلى فهمها، فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين. ويكون الواجب بمقتضى العقل أن يعترف له هؤلاء بأنه أفضل البشر على الإطلاق، وأولاهم بالاتباع، ولا غرو فقد اعترف له بهذا كثير من علماء الشرق والغرب، سنورد بعض شهاداتهم بعد.

بل رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعتقدون أنه ما وجد ولن يوجد مثله في المستقبل: منهم الأستاذ وليام موير الإنكليزي المشهور[1]، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة، المادي الكهولة، الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب إلينا كتاباً نشرناه في الجزء الأول من مجلد المنار الحادي عشر سنة ١٣٢٦ هذا نصه:

مكتوب الدكتور شبلي شميل المادي في تفضيل محمد على جميع البشر

«إلى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

«أنت تنظر إلى محمد كنبي وتجعله عظيماً، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم ونحن وإن كنا في الاعتقاد «الدين أو المبدأ الديني» على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع، والإخلاص في القول، وذلك أوثق بيننا لعرى المودة.

الحق أولى أن يقال

دع من محمد في سدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات

إني وإن أك قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الآيات

أو ما حوت في ناصع الألفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات

وشرائع لو أنهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات

نعم المدبر والحكيم وإنه ... رب الفصاحة مصطفي الكلمات

رجل الحجا رجل السياسة والدُّهى ... بطل حليف النصر في الغارات

ببلاغة القرآن قد غلب النهى ... وبسيفه أنحى على الهامات

---

(١) قال السير وليام موير في كتابه (حياة محمد) بعد أن ذكر طائفة من صفاته ﷺ: وبالاختصار: فإنه مهما ندرس حياة النبي محمد ﷺ نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخُلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

مــن دونــه الأبطــال في كــل الــورى   مـــــن ســـــابق أو حـــــاضر أو آت

الإمضاء

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون كما قلنا، ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قليلون، وإن محمداً ﷺ لحجة عليهم فيما شهدوا له به وعزوه إلى استعداده وكسبه، وأسنده هو إلى وحي ربه، مع ما عُلم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع، ولكن شبلي شميل كان يزعم أنه نسج قرآنه من سدى الحكمة ولحمة الدين، ليقبله جمهور الناس، وقد بطل هذا الزعم بما بسطناه في هذا الكتاب، وأثبتنا به نبوته ﷺ وهو يتضمن الحجة على وجود الرب تعالى بل هو مجموعة حجج عقلية وطبيعية على الألوهية وعلى النبوة.

وسترى أيها القارىء بسط هذه الحجة في خاتمة هذا الكتاب، وأمهد السبيل لها بفصلين في إعجاز القرآن للخلق، من وجهين هما أوجه وأقوى مما ألف فيه علماؤنا المصنفات الممتعة وأحراها بإقناع أهل هذا العصر المستقلي الفكر، فأقول:

الفصل الرابع
في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته وتأثيره وثورته

أسلوب القرآن في تركيبه المَزْجي:

لو أن عقائد الإسلام المنزلة في القرآن من الإيمان بالله وصفاته، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من الحساب والجزاء، ودار الثواب ودار العقاب، جمعت مُرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلاً ككتب العقائد المدونة.

ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والأذكار، وضع كل منها في بضع سور أيضاً مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة.

ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والأعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والأمثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء، فُصلت في عشر سور أو أكثر، ككتب الأخلاق والآداب المؤلفة.

ولو أن قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية، رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية.

ثم لو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الإلهية، سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ.

لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها إصلاح شئون البشر جُمع كل نوع منها وحده، كترتيب أسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم أحد مُرتبها، أو كتب العلم والفقه والقوانين - لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول من التشريع وحكمة التنزيل وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو للقليل من سوره -حتى القصيرة منها- كثيراً من مسائل الإيمان والفضائل والأحكام والحكم المنبثة في جميع السور، لأن السورة الواحدة لا تحوي

في هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فمن لم يحفظ إلا سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها فلا شك أنه يملها.

وأما سوره المنزلة بهذا الأسلوب الغريب، والنظم العجيب، فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة، والسورة الواحدة القصيرة عدة ألوان من الهداية، وإن كانت في موضوع واحد، فترى في سورة الفيل وقريش على قصرهما ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته، بما مَنَّ عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه، وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم، ومعقل حياتهم، ومَجبى تجارتهم ورزقهم.

قلت: إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول. وأقول أيضاً: إنه لو أنزل هكذا، لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية. كلا، إن كل واحدة من المزيتين مقصودة لذاتها، فالأولى أن يعبر عن المزية الأولى بالموضوع وعن الثانية بالشكل، كاصطلاح المحاكم، فيقال: لو كان القرآن مرتباً مبوباً كما ذُكر لكان خالياً من أعظم مزاياه على غيره من الكتب شكلاً وموضوعاً.

يُعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين العليم الحكيم الرحيم، وهو مَزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض، وتفريقها في السور الكثيرة، الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب، المحركة للشعور، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني والنغم الذي يحرك في القلب وجدان الخشوع، وخشية الإجلال للرب المعبود، والعرفان بقدسه وكماله والملاحظة لجماله وجلاله، والتعرض لتجلي أسمائه وصفاته، والتفكر في آيات مصنوعاته، والرجاء في رضوانه ورحمته، والخوف من غضبه وعقوبته، والاعتبار بسننه في خَلْقه، والقابلة لأنواع أخرى من الإلقاء الخطابي في الترغيب

والترهيب، والتعجب والتعجيب، والتكريه والتحبيب، والزجر والتأنيب، واستفهام الإنكار والتقرير، والتهكم والتوبيخ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر، ولا رجز ولا سجع، فبهذا الإسلوب الرفيع في النظم البديع، وبلاغة التعبير الرفيع، كان القرآن كما ورد في معنى وصفه أنه لا تبلى جدته، ولا تخلقه كثرة الترديد[1].

وحكمة ذلك وغايته تُعلم مما وقع بالفعل، وهاك بيانه بالإجمال:

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن
في الأمة العربية فسائر الأمم

القرآن كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الأخلاق، لم تملكه تقاليد دينية، ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الأمم، يكتسح من العالم

---

(١) المعنى المراد من الحديث هنا: أن القرآن لا تنقضي عجائبه الدالة على أنه من الله تعالى، ولا يُمل ويُسأم من كثرة التلاوة، ولا يَخْلِق بطول الزمان، وهو من: خَلِقَ الثوب إذا بَلِيَ، وأخلقه أبلاه، وأصح ما ورد في هذا ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في كتاب المصاحف والحاكم المستدرك وصححه والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه « إن هذا القرآن مأدبة الله، فأقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، الف ولام وميم». قوله «لا يزيغ فيستعتب» معناه لا يميل عن الحق فيطلب منه العتبى أي الرجوع إليه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجاه بصالح بن عمر، أي ولم يُخَرِّجه البخاري ومسلم بسبب ما قيل في صالح بن عمر في سنده، وليس كذلك فإن صالحاً قد خَرَّج له مسلم وإنما تركاه بسبب شيخه إبراهيم بن مسلم الهَجَري (بفتحتين) الذي ضعفه الجمهور، وما ضعفوه بطعن في صدقه أو حفظه، وإنما وجدوا أنه رفع عدة أحاديث إلى النبي ﷺ هي موقوفة على عبد الله بن مسعود، وكذا على عمر رضي الله عنه، ولكن صرح سفيان بن عيينة بأنه جاء إبراهيم هذا فأعطاه كتبه فصحح له المرفوع والموقوف بقوله: هذا عن النبي ﷺ، وهذا عن عبد الله ابن مسعود، وهذا عن عمر، والظاهر: أن هذا الحديث مما رفعه سفيان، ولذلك خَرَّجه ابن أبي شيبة ومن ذكرنا مرفوعاً. وروي نحوه من حديث علي رضي الله عنه واعتمده القاضي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن.

الإنساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية، الذي هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلى في عالم الأرض، إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات - وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية، والتقاليد المذهبية، التي أحالت توحيد الأنبياء الأولين شِركاً، وحقهم باطلاً، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه، وأذل نفسه، وسلبه إرادته، من استبداد الملوك الظالمين، والرؤساء القاهرين.

ثورة تُحرر العقل البشري والإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق تعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم، والتصرف في إراداتهم وأبدانهم وأموالهم، فيكون بهذا العِتق كل امرئ اهتدى به حراً كريماً في نفسه، عبداً خالصاً لربه وإلهه، يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه.

مثل هذه الثورة الإنسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

وكيف يكون تغيير الأقوام لما بأنفسهم من العقائد والأخلاق والصفات الثابتة، التي طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون يقول فيه: إنكم أيها الناس ضالون فاسدون، ومضلون مفسدون، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتَصْلُحوا، أو قانوناً مدنياً يقول في مقدمته: نفذوا هذا القانون تُحفظ حقوقكم، وتعتز أمتكم وتقوَ دولتكم؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين، كما فعل أهل الملل الأولون، والمسلمون المتأخرون؟

كلا، إنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها، وأنى لمحمد ﷺ فعل هذا في الأمة العربية العاتية عن كل سيطرة ونظام، وقد بُعث بالحجة والبرهان، فريداً وحيداً لا عصبة له من قومه ولا سلطان؟ على أنه جاء بأعدل الأصول التي تَبني عليها أمة قوانينها، عند تكوين دولتها في الأحوال

الملائمة لها، جاء لإصلاح الأخلاق والطباع، بالحجة القيمة وطرق الإقناع، والخضوع لوازع الاعتقاد النفسي، دون وازع الحكم القهري، ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار، لا بالقوة والإجبار، فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته في نظام الاجتماع. وقد نطق القرآن بأن الرسول إنما هو مبلغ ومذكر، غير جبار على الناس ولا مسيطر.

كلا إن هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به، وهو تأثير هذا القرآن في أنفس الأمة العربية، التي كانت أشد الأمم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الإسلام فيها، كما بيناه في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً.

ذلك بأن من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر، والعمل بمقتضى المعرفة، وإن خالف مقتضى الأهواء والشهوات، والتقاليد والعادات، أن مجرد البيان والإعلام والأمر والنهي، لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضى العلمي لهما ما أشرنا إليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية، إلا في بعض الأفراد من الناس، دون الجماعات والأقوام.

بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس، وصدور آثارهما عنهما بالعمل، أنه يتوقف على صيرورة الإيمان بهما إذعاناً وجدانياً حاكماً على القلب، راجحاً على ما يخالفه من رغب ورهب، وأمل وألم، وإنما يكون هذا في الأحداث بالتربية العلمية العملية، والأسوة الحسنة لهم فيمن يَنشؤون بينهم من الوالدين والأقربين والمعاشرين.

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الإيمان بالحق المطلق والخير العام إذعاناً وجدانياً لجمهورهم إلا بالأسلوب الذي نزل به القرآن، بل بالقرآن الممتاز بهذا الأسلوب، فقَلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم، وحولها إلى أضدادها عِلماً وعملاً بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية

خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره بالتبع، لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه، كما كان آية معجزة في إصلاحه للأمم بهديه وتعليمه.

اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن في العرب وتأثير التوراة في بني إسرائيل

واعتبر هذا ببني إسرائيل سلالة النبيين، فإن كل ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام ثم ما رأوه في برية سيناء ومدة التيه فيها، ومن عناية الله تعالى بهم، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم -ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم- لم يتغير بذلك كله ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها الراسخة في قلوبهم، ولا من تأثير السياسة الفرعونية المستبدة في أخلاقهم، فقد عذبوا موسى عذاباً نكراً، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حنيناً إلى ما كان من عبادة مستعبديهم الفرعونيين للعجل (أبيس) حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعصل الطباع[1] المانع من الانقياد، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة، ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالاً عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه، أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة، وأن يعملوا بها ويجاهدوا في سبيلها، وإنما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام.

فأين بنو إسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره، في رسوخهم في الإيمان وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم. ثم مجاهدتهم لهم عند الإمكان بعد الهجرة، ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ. وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه،

(١) أي اعوجاجها مع صلابتها من عصل الشيء -من باب فرح- اعوج في صلابة فهو عصل -ككتف- وأعصل والجمع عصال، كسهام.

وكان نصفها قد ذهب في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد وفتح وتأسيس.

ثم تأمل ما كان من تدفقهم أنفسهم كالسيل الأتي[1] على الأقطار من نواحي الجزيرة كلها، والظهور على مُلكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الأرض، وإزالة الشرك والظلم منهما، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الأمم في دين الله أفواجاً مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الأرض في زهاء نصف قرن، وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل[2] وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب[3].

وأنىَّ يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب المتمرد الصلب الرقبة[4] درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩] الآية: فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي نشأ وشب على الشدة والقسوة في الجاهلية، حتى قيل: إنه وأد بنتاً له، صار بالإسلام من أرحم الرحماء بالناس، حتى إنه يطبخ الطعام هو وزوجه ليلاً لامرأة فقيرة في المخاض، وبعلها حاضر لا يساعدهما، ولم يكن يعلم أنه أمير المؤمنين.

لا جرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الأسلوب الذي نراه في المصحف، فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين، كما أمره الله بقوله ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، ثم كان به يُربي المؤمنين ويزكيهم، كما

(١) الأتي - بالتشديد- كقوي والأتاوي: الغريب الذي يأتي من حيث لا يعلم.

(٢) قال الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون، في كتابه حضارة العرب والإسلام: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب.

(٣) في مقدمتهم نابليون بونابارت أشهر قواد الحرب في العالم، وهو الذي قال: إن العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن، وصرح بأنه يدين بالإسلام كما تراه في علاوات كتاب حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب (ص ٢٤ ج ١ طبعة ثانية).

(٤) راجع آخر الفصل ٣١ من سفر التثنية وغيره.

قال الله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية. وبهدايته والتأسي بمُبَلِّغه ﷺ ربوا الأمم وهذبوها، وقلما يقرؤه أحد، كما كانوا يقرأون، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي، واختلاف الزمان لا يخفى.

المسلمون أرحم البشر بهداية القرآن:

وكيف لا يكون المؤمنون بالقرآن أرحم الناس؟ وقد امتن الله عليهم به في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]. وقد قلنا في الكلام على الرحمة من هذه المزايا الأربع للقرآن من تفسير المنار (جزء١١) ما نصه:

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، وهي صفة كمال، من آثارها: إغاثة الملهوف، وبذل المعروف وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر وقد وصف الله المؤمنين بقوله ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩]، وبقوله ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد:١٧].

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية. فالموعظة: التعاليم التي تشعر النفس بنقصها، وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخلية، يتبعها طلب التحلية، بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته: هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يُحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم: إنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الإحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة وقسوة القلب، وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً: أرحم الناس، وأشدهم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين،

الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة]، وقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء]. وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم، حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه صار من أرحم الناس، وسيرته في ذلك معروفة كما أشرنا إليه آنفاً.

وقد قال ﷺ «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» رواه أبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد صح عنه ﷺ «أنه كان إذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته -أي إختصرها وخففها- رحمة به وبأمه». وروى ابن إسحق أن بلالاً رضي الله عنه مر بصفية وبإبنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة خيبر، فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب، وهي تصيح وتبكي، فقال ﷺ له «أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟» وجاء أعرابي إليه ﷺ فقال «إنكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم. فقال له ﷺ: أوَ أملك لك[1] أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها والمراد: إني لا أملك أن أشعرك بما لا تشعر به، لأن الله نزع الرحمة من قلبك، فأجعلك رحيماً.

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات، وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها «جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال: يا رسول الله إنني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن، فلففتها معهن بكسائي، فهن أولاء معي، فقال: ضعهن. قال: ففعلت، فأبت أمهن إلا لزومهن، فقال ﷺ: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟ قالوا: نعم، قال: والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم

(١) قوله «أوَ أملك» همزته للإستفهام الإنكاري، والواو مفتوحة وما بعدها معطوف على محذوف، تقديره: أتكون هكذا وأملك لك من الله شيئاً غيره؟ وقوله «أن نزع» بفتح همزة أن، وتقدير لام التعليل أو باء السببية قبلها، أي بأن نزع الرحمة من قلبك.

الفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن، فرجع بهن» رواه أبو داود من حديث عامر الرامي رضي الله عنه. وروى مالك والبخاري ومسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة مرفوعاً حديثين خلاصتهما: ان الله غفر لرجل ولامرأة بغي -أي مومس- لأن كلاً منهما رأى كلباً قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه «قالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر» ورواه أحمد عن عبد الله بن عمر وسراقة بن مالك بلفظ «في كل ذات كبد حَرَّى أجر».

وقال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه الترمذي وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، ورويناه مسلسلاً بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي. وقال ﷺ «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة -وفي رواية- ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن النار» رواه البخاري ومسلم والترمذي. اهـ.

***

هذا ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غَيَّر ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، ولم يكن عند العرب شيء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن، والأسوة الحسنة بمُبَلِّغه ومُنَفِّذه الأول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته وتجديد ثورته، ولعنة الله على من يصدونهم عنه، زاعمين

استغناءهم عن العمل به وبسنة مُبَيِّنه - بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يُحيي الإيمان ويُعلي الأمم ويزكي الأنفس، ويبعث على الجهاد بالأنفس والأموال.

أما وحق القرآن علينا، والله لم ينزل غيره إلينا، إنه لا يغنينا عن تدبره والاهتداء به، ولا عن فهم سورة واحدة من سوره، جميع ما في الأرض من الكتب المنزلة، ولا من الكتب المصنفة، وما فَتَن الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنهم بصدهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة المبينة له، وعن دعوة جميع أهل الملل به إليه، وقد بينا لك الفرق بين تأثيره وتأثير التوراة، وهاك إجمالاً لما فعله في الأمة العربية ثم في العالم:

فعل القرآن في أنفس الأمة العربية
وإحداثها به أكبر ثورة عالمية

تهوَّد أناس من العرب وتنصر منهم أناس آخرون من قبل الإسلام بقرون، وكان كل منهم يمدح دينه ويدعو إليه بالطبع، فلم يعاد الجمهور أحداً منهم ويحتقره لدينه. بل كان لزعماء اليهود المستعربين وشعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين، ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية أدنى صولة في مكة، ولا خافها رؤساء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية، فلما قام فيهم محمد بن عبد الله يتلو عليهم القرآن باسم الله، زلزلت الأرض بهم زلزالها، وثاروا عليه ثورتهم الصغرى، ثم ثارت الأمة به ومعه ثورتها الكبرى، وهي التي بدلت الأرض غير الأرض، والقلوب غير القلوب، والعقول غير العقول، وقلبت نظام الاجتماع العام.

قد كان فعل القرآن في أنفس العرب، وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين: أولها ما أحدثه من الزلزال في المشركين. وثانيهما تزكيته للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من غل وجهل وظلم وفساد، حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح في العالم كله، وأمهد لبيان ذلك بكلمة في حالهم في عصر ظهور الإسلام.

بَيَّنا مراراً أن الله تعالى قد أعد الأمة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم إلى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة في التعبير والتأثير، وأقواهم استقلالاً في العقل والإرادة، لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم ويفسدون بأسهم، ويذلون أنفسهم بالقوة القاهرة، ولا رؤساء دين أُولي سلطان روحي، يسيطرون على عقولهم وقلوبهم ويتحكمون في عقائدهم وأفكارهم، ويسخرونهم لشهواتهم، وكانت جميع الأمم ذات الحضارة والملل، مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرياستين، حاش العرب.

فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، كانوا على أتم الإستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم: في التمتع بالثروة الواسعة، والعظمة الكاذبة، والشهوات الفاتنة، والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الأديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام، الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - فرأوا أن هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يُفَضِّل عليهم بعض الفقراء والموالي، وأنه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الأنعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم إلى صد محمد عن دعوته ولو بتملكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك، فقد أجاب عمه أبا طالب لَمَّا عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الأسواق والمجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية، إلا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة أو جوار أو ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون، كانوا أعلم الناس بصدق محمد، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام]، فقد كابروا الحق بغياً واستكباراً للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهماً، وأوسعهم بإعجازها علماً، ولكنهم عتوا عنها عتواً ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤]، كفرعون وقارون وهامان في آيات موسى.

فعل القرآن في أنفس مشركي العرب

قلنا: إن فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين: فعله في المشركين وفعله في المؤمنين، فالأول تأثير روعة بلاغته، ودهشة نَظْمه وأسلوبه، الجاذب لفهم دعوته والإيمان به، إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً، لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية.

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلى، والذي يحطم ما تحته، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد أن فكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، وأدبر واستكبر، كما تقدم.

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعن له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين، ويتلاقون في الطريق متلاومين[1].

---

(١) هم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد يأتي من ناحية فيستمع إلى قراءته ﷺ من حيث لا يراه الآخرون، فإذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا وتواعدوا ألا يعودوا لئلا يعلم بهم غيرهم فيقتدوا بهم. وفي الثالثة تعاهدوا ألا يعودوا. فلما أصبحوا ذهب الأخنس فأتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها (يعني أنه لا ينكرها) فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم ذهب الأخنس إلى أبي جهل في بيته فسأله عما سأل عنه أبا سفيان، فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟

وهذا التأثير للقرآن هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام، لِمَا كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم، فاتخذ مسجداً له بفناء داره، فطفق النساء والأولاد الناشئون ينسلون من كل حدب إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن، فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال، وأنهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الإسلام، حتى ألجئوه إلى الهجرة فهاجر، فلقي في طريقه ابن الدغنة[1] سيد قومه، فسأله عن سبب هجرته فأخبره الخبر، وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الإسلام، فأجاره وأعاده إلى مكة بجواره، أي حمايته، ومنعه منهم.

وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة من صحيحه، وفيه ما نصه «فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة (أي إجارته) وقالوا لابن الدغنة: مُر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا[2]، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه[3] نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره،

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا (يعني الحمل على الإبل والدواب) وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع إليه ولا نصدقه. رواه البيهقي في دلائل النبوة. وهذا إقرار من أبي جهل بأن الوحي غاية لا يملك إدراكها لأنه معجز للبشر.

(١) هو بضم الدال المهملة المشددة عند أهل اللغة وبكسرها عند رواة الحديث وكسر الغين المعجمة، وفي تخفيف النون وتشديدها روايتان.

(٢) أي يحولهم عن دينهم إلى دينه بتأثير قراءته للقرآن وخشوعه وبكائه فيها.

(٣) من التقذف، أي يتدافعون ويزدحمون فيقذف بعضهم بعضاً عليه، وفي رواية فينقذف بالنون، ويروى يتقصف وينقصف عليه.

فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك[1] ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل» اهـ.

قلنا: إن هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه، حتى إنهم كانوا يقذفونه بالحجارة، وهو سبب تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلَت].

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة[2] فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية: إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى، وقال في الرد عليهم: إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أوَّاهاً متألهاً فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين. (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة.

ومن الشواهد الكبيرة على صحة قول الفيلسوف: ما روي أن كبراء قريش اجتمعوا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. فقالوا أنت يا أبا الوليد، فجاء النبي ﷺ فكلمه فيما

---

(١) أخفره: نقض عهده وأبطله.

(٢) رأيت شيخنا الأستاذ الإمام محمداً عبده يطالع في كتاب قال لي إنه لأحد فلاسفة فرنسة وأسمعني منه ما ذكرت خلاصته هنا ولم أحفظ اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه منه، وقال إن الكلمة التي وصف بها النبي ﷺ في حال القراءة تدل على أنه كان يكون متأثراً في نفسه ومؤثراً في غيره، وأنه لا يعرف كلمة عربية بمعنى هذه الكلمة الفرنسية.

قالوا عنه، وما يخافون من عاقبة أمره أن يُفضي إلى قيام بعضهم على بعض بالسيوف، وعرض عليه كل ما يمكن أن يريده من المال والرياسة والتزوج بعشر من خير نساء قريش. حتى إذا أتم كلامه تلا عليه النبي ﷺ سورة حم السجدة (أو فُصِّلَت ٤١)، حتى بلغ قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصِّلَت] قام عتبة فأمسك على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه. فلما رجع إليهم وجدوه متغيراً فقالوا قد صبأ (أي مال) إلى محمد، وقص عليهم خبره، وما وقع من الرعب في قلبه من قراءته. ومما قاله: قد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية أنه قال: كلمني بكلام والله ما سمعت أُذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له. اهـ مختصراً من رواية المحدثين وهو مفصل في السيرة النبوية.

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس، إذ قال تعالى مخاطباً له ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس، وقال في آخر سورة النمل ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل].

إن رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الإسلام بوقعه في أنفسهم هم ما لم يعرفه غيرهم، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة فقال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر: خذوا على يديه، قبل أن تجتمع العرب عليه، ففعلوا. وكان من ثباته ﷺ على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الإيذاء له ولمن يؤمن به، حتى ألجؤهم إلى الهجرة إلى الهجرة بعد الهجرة، ثم إجماع الرأي على قتله، لولا أن خرج من وطنه مهاجراً، ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد

الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة. وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وهو الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجاً، فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالسلم والأمان أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الإسلام.

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن -ليعبد الله بتلاوته- ويُعَلَّم الصلاة، ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام غيرها. فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الإسلام، قال تعالى في أول سورة المزمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا (٢) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا (٣) أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا (٤)﴾ [المزَّمل]، ثم قال في آخرها ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزَّمل: ٢٠]، أي في صلاة الليل وغيرها، ثم ذكر الأعذار المانعة من قيام الليل كله، ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر، وما سيكون بعد سنين، وهو القتال في سبيل الله.

ومما ورد في صفة الصحابة رضي الله عنهم أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك. وكان هو يصلي في كل ليلة إحدى عشر ركعة يوتر بواحدة منهن، وما قبلها مثنى مثنى، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام، فأنزل الله عليه مُرفِّهاً ومسلياً ﴿طه (١) مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (٢)﴾ [طه] الخ.

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية، وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليه آنفاً، وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وتدبره في غير الصلاة، وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها، وكانوا يقرءونه في كل حال حتى مستلقين

ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١]. وأعظم ذكر الله: تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة، وأحكامه وحكمه، وسننه في خلقه، وأفعاله في تدبير ملكه كما تقدم.

وقد وصف الله تعالى فعل القرآن في هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[الزُّمَر:٢٣] الآية.

ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون، لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع، وتغيير الأوضاع، بل لكانت تلاوته تمل فتترك. فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع إعجازه اللغوي، وتأثيره الروحي. ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلها، بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالإجمال الموجز تارة، وبعض التفصيل تارة، وبالإطناب فيه أخرى، كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل كالذاريات، والقمر، والحاقة، وفيما فوقها، كالمؤمنون، والشعراء، والنمل، وفيما هو أطول منها، كالأعراف وهود - ثم لينظر ما يفضي إليه عجزه من السخرية والتكرار المملول، الذي يغشّى منه الذوق غثياناً، وتمجه القلوب وتستفرغه استفراغاً.

وقد بين غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) أن تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية في الخطب والمقالات التي تثير الجماعات وتدُعُّهم (تدفعهم بعنف) إلى الانهماك والتفاني فيها دعًّا، هو الذي يثبتها في القلوب، ولذلك يعتمد عليه خطباء السياسة رؤساء الأحزاب ومؤسسوها، وكذلك التجار وغيرهم فيما ينشرونه من الإعلانات في الصحف ويعلقونه في الشوارع.

ونقول: ما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والأقوام، فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الأعصار، وإنما

القرآن كلامه، وليس فيه من التكرار، إلا ماله أكبر الشأن في انقلاب الأفكار، وتغيير ما في الأنفس من العقائد والأخلاق. ولو جُمعت أبلغ خطب رجال السياسة التي أحدثت التأثير في أحزابهم، وقُرئت بعد ذلك مراراً قليلة، لسارع الملل إلى نفس كل قاريء، حتى أتباع ذلك الخطيب أنفسهم، وقراءة القرآن لا يملها أحد يفهم معانيها، ويذوق حلاوة أسلوبها.

ألا وإن تقليب القلوب والأفكار، لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال، وقد ضرب الله لها المثل بقوله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]، وهكذا كان تأثير القرآن في العرب، فهذا مثلهم. وأما مثل بني إسرائيل بعد رؤيتهم آيات الله لموسى فقوله لهم بعد سردها ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].

حسبنا ما بَيَّنا به تأثير القرآن وما أحدثه من الثورة العربية العالمية من ناحية أسلوبه ونظمه، وتكراره المعجز للبشر بشكله. ونقفي عليه بإصلاحه وإعجازه بموضوعه، وهو تعاليمه الدينية والسياسية والمدنية، وغيرها، فنقول:



الفصل الخامس
في مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان
وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم، وإدخالهم في طور الرشد، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم، وترقية عقولهم، وتزكية أنفسهم: منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة، لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة، ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ويبدو صلاحه ويَيْنَعْ ثمره، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة، ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية.

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم، لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفي أن يُذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة، كالمعهود في متون الفنون وكتب القوانين. وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، فآياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة.

وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا: إن ما جاء به محمد ﷺ هو أعلى وأكمل مما جاء به مَن قبله من جميع الأنبياء والحكماء والحكام، فهو برهان علمي على أنه من عند الله تعالى، لا من فيض استعداده الشخصي.

وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع، ونبين حكمة القرآن، وما امتاز به في كل نوع منها بالإجمال، لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد، وكون القرآن وفَّى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه. وإنما هذا الفصل نموذج منه.

المقصد الأول من مقاصد القرآن

في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة

التي دعا إليها الرسل، وضل فيها أتباعهم

إن أركان الدين الأساسية التي بعث الله تعالى بها جميع رسله، وناط بها سعادة البشر: هي الثلاثة المبينة بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]. وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز، لأن المراد هنا بيان أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف في سائر الأديان، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف، وما ابتدعوا فيها من الأهواء والتقاليد، وليس المراد بيانها في ذاتها بالتفصيل الذي يتوقف عليه العمل، حتى إذا ثبت ما نقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله عز وجل أوحاه إليه، عُلم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه.

وهذه الأركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين. وغرضنا في هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة أن ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما

أوحاه الله إلى رسله الذين ظهروا في أسلافهم، ولا هو بالمصلح لهم في أنفسهم وأعمالهم، وأن الإسلام هو الدين الحق الثابت عقلاً ونقلاً، المبين لكل ما يحتاجون إليه من الهداية. وبهذا الاعتبار جعلناها مقصداً واحداً لا ثلاثة، وجعلنا المقصد التالي له في موضوع الرسل والرسالة.

الركن الأول للدين

الإيمان بالله تعالى

إن الركن الأول الأعظم من هذه الأركان -وهو الإيمان بالله تعالى- قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم، حتى أقربهم عهدا بهداية الرسل، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد، قد غلب عليهم التشبيه، وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه، فقد جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل، كخلقه الإنسان، لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة[1]، وزعموا أنه كان يظهر في شكل الإنسان حتى أنه صارع إسرائيل، ولم يقدر على التفلت منه، حتى باركه فأطلقه[2]، وعبدوا بعلاً وغيره من الأصنام.

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة، واتخذوا المسيح رباً وإلهاً، وعبدو القديسين وصورهم، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة - على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التي جعلوها أساس الدين، بل الدين كله، هي عقيدة الهنود في كرشنة وثالوثه في جملتها وتفصيلها، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة، وتبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويُرَبَّى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه، وطغت الوثنية على أهلها.

---

(١) في سفر التكوين (٣ : ٢٢ وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منه عارفاً بالخير والشر) وفيه (٦ : ٦ فحزن الرب) وفي ترجمة أخرى (فندم أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه).

(٢) راجع آخر الفصل ٣٢ من سفر التكوين.

هدم القرآن معاقل هذة الوثنية وحصونها المشيدة في الأفكار والقلوب وما كان ليتم هذا بإقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل، بل لا بد فيه من دحض الشبهات، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده، واعتقاده أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملوكاً وعبيداً له، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد، ولا لأنفسهم، إلا فيما سخره الله من الأسباب المشتركة بين الخلق.

وأما تكرار توحيد الربوبية، وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني، فليس لإقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط، بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده. فشر الشرك وأوغله في إفساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول، وحَمْلِهم على التدين بالأوهام والخرافات، المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله في المخلوقات(1)، إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الأسباب، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة، بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة، لأنه روح العبادة ومخها، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي من تعليم الوحي فهو يغذيها وينقيها من شوائب الآراء، وينفي عنها تقاليد الأهواء.

---

(1) اشتدت وطأة البرد في شتاء هذا العام (١٣٥٢هـ ١٩٣٣م) وجاءت الأنباء من الشرق والغرب بكثرة الثلوج في أقطارهما الشمالية وبعض المعتدلة، فعلل بعض المسلمين سلامة مصر منها بوجود أهل البيت فيها، يعني القبور المشيدة لأسماء بعضهم، فبينتُ لمن سمعتُ منهم ذلك خطأهم من الناحية الدينية ومن ناحية سنن الله تعالى في أسباب الحر والبرد والمطر والثلج، وكون وجود القبور أو أهلها لا شأن له في ذلك. وحدث في هذا الشتاء زلزال عظيم في الهند هُدم به بعض البلاد، ما عدا المعابد الوثنية في بعضها فاعتقد أهلها أن سبب بقائها عناية الله بحفظها لرضاه عن عبادتهم فيها، وإنما سببه قوة بنائها فإن أكثر معابد الأمم قوية البناء تمر عليها القرون وتفنى سائر الأبنية وهي باقية.

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى وحده، وبعضها نهى عن دعاء غيره مطلقاً، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد ومنها أمثال تُصور كل منهما بالصور اللائقة المؤثرة، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب، وأن كل من يُدعى من دونه تعالى فهو عبد له، وأن أفضلهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء، يدعونه هو ويبتغون الوسيلة إليه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ويتبرؤون منهم، وأمثال ذلك مما يطول شرحه، بل يضيق المقام عن تلخيصه.

وثَمَّ أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذي التوحيد، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه، من التنزيه والتقديس والتسبيح له، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال، وبحكمه في الخلق والتدبير لأمور العالم، وسننه وطباع البشر وفي شؤنهم الإجتماعية، ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشيئة، وحلم وعفو ومغفرة ورحمة، وحب ورضا وما يقابل ذلك، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لإجلاله أو لعدله، والرجاء في رحمته وفضله، وناهيك بما سُرد منها سَرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها في شهوده عن شهودها، بَلْهَ أهواءها وشهواتها. تراه في فاتحة سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد] الخ، وفي آخر سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر]، فهذه الأسماء الإلهية هي ينابيع الحياة الروحية في القلوب، ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول،

ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية، والكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، والأدعية والقصائد في حبه ومناجاته، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه.

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ليكون الله تعالى غالباً على أمرهم، كما قال في وصف يوسف عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، فيمقتون الباطل والشر، ويكون كل حظهم من الحياة الحق والخير، لما يثمره الذِكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كما قال عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولاً غير مملول، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه، وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب في الشعوب الإسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن، وقل تدبره الذي فرضه الله عليهم، واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة، وفي أعمال عباداتهم على كتب الفقه الجافة، وفي تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة، ضعف التوحيد في قلوب الكثيرين، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع[1] اعتقاداً وعملاً، وتأولاً وجدلاً. فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة في التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة، وهجروا القرآن هجراً غير جميل، وعاقبهم الله بما أوعدهم، كما هو مشاهد ومعلوم.

(١) أي مصداقاً لقول النبي ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

على أن بعض المتكلمين قد تأولوا صفات الله تعالى بنظرياتهم الجدلية، وبعض الصوفية قد بالغوا في التوحيد وفهم الصفات أو حملها على الأذواق والوجدانات الروحية، حتى أنكر بعضهم تأثير الأسباب في مسبباتها، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء، وقال بعضهم بوحدة الوجود، بيد أن الأولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم إليه النظر العقلي أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني، مع الاعتماد في فهم النصوص على صميم اللغة والمأثور عن السلف، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لا حظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان، وإنما يتبعون أهواء العوام، ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين، ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب -وهي سورة الإخلاص- لما وجد الشرك إلى أنفسهم سبيلاً.

إن عقيدة التوحيد القرآني هي أعلى المعارف التي تُرَقِّي الإنسان إلى أعلى ما خُلق مستعداً له من الكمال الروحي والعقلي والمدني. وقد صرح كثير من علماء الإفرنج بأن سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الأكبر لقبول الأمم له وانهزام النصرانية من أمامه.

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكملهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم، وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم، وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير في كتابه (تطور الأمم): إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها جيل التقليد، وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاختصاص، قال: إلا العرب وحدهم. فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدأوا فيه بمزاولتها.

وأقول: إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى، وتوطيد أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً، وقد خَفِي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية، وزوال النهضة العربية، وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن.

الركن الثاني للدين

عقيدة البعث والجزاء

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، هو الركن الثاني للدين الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثاً على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان، وكان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الإنكار. وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل -التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم وحرفت واستحوذت عليهم الوثنية- فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون في صفتها لا في أصلها، ولكن إيمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجُل فائدته في إصلاح الناس وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلائف النصارى المُتَّبِعين لدين القيصر قسطنطين: هو وجود المخلص الفادي، الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل واحد منهما عين الآخر وكل ما تقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقول الهنود في كرشنة وبوذى في اللفظ والفحوى كما تقدم، قلما يختلفان إلا في الاسمين: كرشنة، ويسوع[1].

---

(١) عقيدة التثليث والفداء معروفة في وثنية قدماء المصريين والبابليين والأوروبيين أيضاً. وقد فُصِّل ذلك في كتاب خاص بالشواهد التاريخية اسمه (العقائد الوثنية، في الديانة النصرانية) تأليف الأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي وطبع سنة ١٣٣٠.

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل وادعاء محاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة، ويسمونه إله إسرائيل، كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته، ومحتاجاً إلى الإصلاح مثله.

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول، وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان، من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله. وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه، بدون محاباة شعب على شعب. والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل، فالحسنة بعشر أمثالها، وقد يضاعفها الله تعالى أضعافاً كثيرة.

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من هذا الإصلاح هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبي الأنبياء المعروفين الذين يدين الله بنبوتهم اليهود والنصارى. وإلى موسى والأنبياء الذين كانوا من بعده على شرعه، فقال ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾؟ [النجم]، أي إن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة -أي خاطئة- خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره. وأن ليس للإنسان إلا سعيه وعمله، فلا يجزى بعمل غيره. وقد يدخل في عموم عمله ما يكون سبباً له، كالذي يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة، فله مثل جزاء من يعمل بها من بعده.

الأصل الجامع في ذلك قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]، أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل، قد جعلها بإلهام الفطرة

والغريزة مستعدة للفجور الذي يرديها ويدسيها[1]، والتقوى التي تنجيها وتعليها، ومتمكنة من كل منهما بإرادتها، والترجيح بين خواطرها ومطالبها، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر. فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالإيمان ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة، والضد بالضد، فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني ولذلك قال تعالى ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[الأنعام:١٣٩]، وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الإنسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان.

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزاء، ومن وفساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى، وأن تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الباطل والشر والظلم والبغي، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل في شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها في القرآن بالأساليب العجيبة التي فيها من حسن البيان، وتقريب البعيد من الأذهان، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الأمثال، وقد تكرر في آيات بينات، لعلها تبلغ المئات. ومن إعجازه أنها لا تمل ولا تسأم. بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها، وإنْ تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها. فتأمل ذلك في سور المفصل، تر تكرار الكلام على البعث والجزاء فيها بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب والنظم والفواصل، ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ، والنازعات مع عبس، والتكوير مع الإنفطار، والمطففين مع الإنشقاق وغيرهن.

قلنا: إن الإيمان بالبعث والجزاء، وهو الركن الثاني في جميع الأديان من لوازم الركن الأول، وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه. ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله بعد ذكر البعث وجزاء

(١) أصل معنى ﴿دَسَّنهَا﴾ أخفاها مبالغة من دسه في التراب واستعملت هنا ضد زكاها، فإذا كان معنى زكاها طهرها فأظهرها وأعلى قدرها، فمعنى دساها دنسها بما يدفن جميع مزاياها، كأنها ليست نفساً ناطقة. وأصل دساها دسسها قُلبت السين الثانية ياء وله نظائر.

الكافرين في آخر سورة المؤمنين ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله في آخر سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[القيامة]، فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان، يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم، وبتفضيله على أهل عالمه (الأرض)، حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعد بمصيره إليه، ويستلزم جهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم، الدال على أنه خلقه لحياة لا حد لها ولا نهاية في الوجود.

ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خُلق عبثاً لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغَّص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام، وأنه يُترك سدى، لا يُجزى كل ظالم من أفراده بظلمه، وكل عادل وفاضل بعدله وفضله، وإذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الأفراد، تَعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام كما قال تعالى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران:١٨٥].

ومن أبدع أساليبه المكررة الجامعة وأروعها: المحاجة في النار بين الأتباع والمتبوعين، والغاوين والمغوين، والضالين والمضلين، من شياطين الإنس والجن وبراءة بعضهم من بعض، ومنه التنادي والتحاور بين أهل الجنة وأهل النار.

البعث الإنساني جسماني روحاني

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء: أن الإنسان في الحياة الآخرة يكون إنساناً كما كان في الدنيا، إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والأرواح العالية، يكونون أكمل أرواحاً وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا، وأصحاب الأنفس الخبيثة والأرواح السافلة يكونون أنقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا. ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين أن الأديان القديمة كانت تُعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد، إلا

أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم فيبعثون بها عينها، ولكن بَيَّن القرآن أن كل من على الأرض فان، وأنها تكون بقيام الساعة هباءً منبثاً، وقال علماء العقائد من أهل السنة: إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام، وقال تعالى ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ [الواقعة].

ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرَّم من الخلق، المؤلف من روح وجسد، فهو يُدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية، ويتحقق بِحِكَم الله «جمع حكمة» وأسرار صنعه فيهما معاً، من حيث حَرَم الحيوان والنبات من الأولى، والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية، وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصاً في الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان، أو أضعفها. وأصل هذا الإفراط والتفريط: غلو الهنود في احتقار الجسد، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة، وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث، على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي (متى ٢٦ : ٢٩). وجرى اليهود على عكس ذلك، وجاء الإسلام بالاعتدال، فأعطى الإنسان جميع حقوقه، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته، مرجحاً لروحانيته على حيوانيته، متزوداً من دنياه لآخرته.

ويؤخذ مما ورد في الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة: أن القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الأجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة وأهل النار -وإنَّ ترقي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات

والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الإنسان، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف] من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه - وها نحن أولاء نخاطب من مصر عواصم أوربة بالمِسرة (بالكسر، آلة التليفون) ونسمع خطبهم ومعازفهم بالمذياع (آلة الراديو) وسنراهم ويروننا بآلة التليفيزيون[1] مع التخاطب حينما يعم انتشارها.

وأما علماء الروح من الإفرنج وغيرهم فقد أثبتوا أن الأرواح البشرية تكون بعد الموت قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كالملائكة والجن وكما يقول الصوفية في الإنس[2]. وهذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل في تفسير المنار وإنما نذكر هنا بالإجمال رداً على من زعموا أن القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ الباطن وإلهاماته الروحية[3].

---

(١) هي آلة حديثة، بها ينظر الإنسان من يكلمه على بعد مهما يكن سحيقاً.

(٢) قال بعض من شاهد في فرنسة روح إمرأة تجسدت: إنها ظهرت أولاً بشكل بخار أو ضباب، ثم تكاثف فكانت جسداً تام الجمال في ثوب أبيض فسألها أن تعطيه قطعة من ثوبها فسمحت له، فقصها فلم تلبث أن تكون مثلها في موضعها، ثم عرضها على معامل النسيج في باريس، وسألهم هل يوجد مثل هذا النسيج المهلهل؟ قالوا لا، ولكن يمكن إيجاده إذا طُلب. وهذا مثل ما يحكيه صوفيتنا عن الذين يتجردون من أجسادهم تارة ويتشكلون كابن عربي، ومنهم قضيب البان الذي طُلب مرة فوُجد مالئاً للبيت الذي كان فيه حتى يتعذر خروجه بجسده ذاك، ثم صغر فخرج، ومن لم يصدق هذا من علماء الكيمياء لأنه لم يشاهد مثله لا ينكر إمكانه. اهـ من حواشي الطبعة الثالثة.

(٣) من هذا القبيل ما رواه الشيخان عن جابر مرفوعاً في وصف أهل الجنة «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم» قرأنا في جريدة الجهاد أن امرأة في رومانيا تخرق أشعة بصرها الحجب فترى ما وراءها كما يروى عن الأرواح المجردة، ثم نقلت لنا في هذه الأيام (١٣ المحرم سنة ١٣٥٤) عن بعض الصحف الإنكليزية أن كاتباً إنكليزياً اسمه (جيرالد أوركاردزا) كتب في إحدى الصحف الإنكليزية يقول إن في معبد شيلي في أمريكة وثائق مكتوبة تثبت أنه ولد في الصين ولد عادي سمي (شي شوان) ولكنه بعد سنوات صار جسمه يشف حتى صار كالزجاج يُرى جميع ما في بطنه. وسأعود إلى هذه المباحث في الجزء الثاني من هذا الكتاب كما وعدت في التصدير إن شاء الله تعالى.

ويناسب هذا ما جاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الإيمان به من عقيدة البعث والجزاء، ولم يوجد له أصل عند أهل الكتاب ولا غيرهم، ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه ونظرياته العقلية وجملته: أن قارعة -والظاهر أنها كوكب- تقرع الأرض قرعاً، وتصخها صخاً وترجها رجاً، فتكون هباءً منبثاً، أي غباراً دقيقاً متفرقاً في الفضاء، وحينئذ يختل ما يسمى في عرف العلماء بسنة الجاذبية العامة، فتتناثر الكواكب، ثم يدخل العالم في طور جديد هو المراد بالحياة الآخرة[1]. وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد من علماء الكون ولا من علماء الدين، فلا يمكن أن يقال إن محمداً ﷺ سمعه من أحد في بلده أو في سفره، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه، وسنفصل ذلك بالشواهد على ما جاء في القرآن موافقاً لأصول العلم الحديث في ملحقات الكتاب، من الجزء الثاني له[2].

ولقد كان أعظم آيات الجزاء تأثيراً في أنفس العرب وصف نعيم الجنة وعذاب النار ببلاغته العجيبة في المبالغة التي امتازت بها لغتهم، وفيها ما يدل على أنها غيبية مخالفة للمعهود في الدنيا، كقوله تعالى في صفة النار ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهُمَزة]، وفي الجنة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وقوله بعد ذكر النعيم الحسي ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، وناهيك بمناجاته تعالى ورؤيته التي أنكرها وتأول نصوصها المعتزلة ومن تبعهم وعدوها من المتشابهات ولا غرو فكل أمور الآخرة متشابهات. قال تعالى في ثمارها ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها «لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء» أقول: فكيف يشبه خالقها شيئاً من خلقه؟

---

(١) إقرأ سورة الواقعة والقارعة والتكوير والإنفطار.

(٢) رحمه الله، لقد كان الناس في حاجة إلى هذا الجزء الثاني.

الركن الثالث للدين

العمل الصالح

الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح أثر لازم للإيمان بالله وبالحساب والجزاء في الآخرة وثمرة له، وهو يمده ويستمد منه. فكل من الإيمان والعمل يغذي الآخر ويقويه، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر، فمن فسد إيمانه فسد عمله، وكان رياءً ونفاقاً أو تقليداً صورياً. فلا يكون العمل صالحاً مصلحاً لعامِله إلا بجعله على الوجه الذي شرعه الله لأجله. وهذا مكرر في القرآن في سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليدياً، غير مُزَكٍ للنفس، ولا مصلح لشئون الاجتماع ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الأصل الذي يتبعه غيره، على أنه يقرنه به.

ولولا الحاجة إلى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية في الإصلاح العلمي العملي على قصرها، كسورة الإخلاص في الركن الأول الاعتقادي، وكل منهما تكتب في سطر واحد. فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته، وكسورة الزلزال في الركن الثاني وهي تكتب في ثلاثة أسطر: وقد روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة] فقال: حسبي أن لا أسمع غيرها. وروي أن بعض الأعراب سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال «نعم» فقال الأعرابي: واسوأتاه، ثم قام وهو يقولها فقال النبي ﷺ «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان». وروي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النبي ﷺ «دفع رجلاً إلى رجل يُعلمه فعلمه، حتى بلغ هذه الآية، فقال: حسبي. فذكر الرجل المعلم ذلك للنبي ﷺ فقال له: دعه فقد فقه» نقل هذه الروايات وغيرها السيوطي في الدر المنثور عن مخرجيها، ومنها أن بعض كبار الصحابة كان ربما يعطي المسكين حبة عنب، ويقول: إن فيها

ذرات كثيرة، اهتداء بهذه الآية، وبقوله ﷺ في حديث مسلم «لا تحقرن من المعروف شيئاً».

فتدبر هذا تعلم منه قدر استعداد عقول العرب لهداية القرآن، وكيف صلحت به أنفسهم، وصاروا أئمة الناس في الإصلاح، آمن بعضهم بأنه يرى في الآخرة جزاء عمله خيره وشره وإن قل فكان كالذرة، فوطن نفسه على عمل كل ما استطاع من الخير وترك كل عمل من الشر، وهذا فقه الدين كله كما شهد له مُبلغ الدين ﷺ.

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله في الدرجة الأولى، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم. وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب، فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضاً بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للفطرة الإنسانية، دون تقاليد الوثنية التي لا شأن فيها لعلم الإنسان ولا عمله في سعادته، لأن مدارها على إيمانه بوجود الفادي الشفيع، أو على إقراره به، وإن كان لا يعقله، بل ينكره عقله، وتأباه فطرته، وقد أبطل القرآن عقيدة الفداء والشفاعة الوثنية في آيات عديدة.

ويدخل في الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها إلى الله تعالى وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر، كبر الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الإسراء وهي ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا [1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ

---

(١) كلمة «أف» تدل على أقل التضجر، والانتهار الإغلاظ في الإنكار، والقول الكريم هو ألطف ما يقال، وأدله على الأدب والإحترام.

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا(١) مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ(٢) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء].

هذه الآيات أجمع وأعظم من الوصايا العشر التي في التوراة: وتأمل آيات الوصايا في سورة الأنعام (٦ : ١٥١ – ١٥٣)، وآية البر في سورة البقرة (٢ : ١٧٧) وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل، والزجر عن الرذائل، والمعاصي الضارة بالأبدان والأموال، والأعراض والعقول والأديان، ومثارها الأكبر: اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان، ويضادهما ملكة التقوى، فهي اسم جامع لما يقي النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا أو الآخرة، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها، وهاك كلمة وجيزة في الموضوع.

---

(١) أي ملوماً من الناس وفي حسرة من نفسك.

(٢) السلطان هو القصاص، والإسراف فيه: قتل من لم يثبت عليه القتل.

سنة القرآن في تهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال
والفرق بينها وبين كتب الفلسفة والآداب

القرآن كتاب هداية فعلية، لا كتاب فن وعلم نظري، فهو يرشد متدبره والمتفقه فيه إلى داعيتي الحق والخير، والباطل والشر من نفسه، وإلى طريق تزكيتها بمحاسبتها على أعمالها، لتغليب الحق والخير على ضدهما. وتجد هذا التهذيب والتثقيف فيه يدور على أمرين فطريين لا يتوقف فهمهما على فلسفة أرسطو ولا ابن سينا، وهو مجاهدة النفس بالتخلي عن اتباع الهوى، والتحلي بفضيلة التقوى. وقد تكرر فيه ذم اتباع الهوى والنهي عنه، وتعليله بأنه يصد متبعه عن الحق والعدل في زهاء ثلاثين آية، وتكرر ذكر التقوى والمتقين في زهاء مائتي آية أو أكثر.

وأكتفي هنا بذكر آية واحدة في كل منهما:

قال الله تعالى في عبادة الهوى بعد أن ذكر لنبيه ﷺ أنه آتى بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على عالَمي زمانهم، وآتاهم بينات من الأمر -أمر التشريع- فاختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. ثم ذكر له أنه جعله على شريعة من الأمر، وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وهم المشركون الذين لا شريعة لهم. وأعلمه أن الظالمين من الذين تفرقوا بعد العلم فكان ضاراً بهم ومن الذين لا يعلمون: بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين دون كل منهم. وأن هذا القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون، وأنه تعالى لم يجعل الذين اجترحوا السيئات، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا في المحيا ولا في الممات. وأنه خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت، لا كما يزعم المشركون من تركهم سدى، ولا كما يدعي أهل الكتاب من كونه تعالى يحابي بعض الشعوب وبعض الناس بأنسابهم، أو لأجل من يفديهم ويشفع لهم، - قال تعالى بعد آيات في هذه المعاني:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية]، وفي معناها من سورة الفرقان

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في ثمرة التقوى للمؤمنين بعد عدة وصايا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]، وقد قلت في تفسير هذه الآية من جزء التفسير التاسع ما مختصره:

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعمها، والأصل الجامع لها ولغيرها، وكلمة (الفرقان) فيها كلمة جامعة ككلمة (التقوى) في مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة. وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها في أصل اللغة: الفصل بين الشيئين أو الأشياء، والمراد بالفرقان هنا: العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص، وإن شئت قلت: بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمركبات والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبين كل شيء من ذلك، ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازاً من غيره، وإيراد الأمثلة على ذلك يطول (وقد ذكرنا نموذجاً منها في التفسير).

فقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩] معناه: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتزيلون بين الحجة والشبهة. وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل، وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمي الحكمي. وعن بعضهم تفسيره بالنصر يفرق بين المحق والمبطل، بما يعز

المؤمن ويذل الكافر، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة، وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي. ذكر كل منهم ما رآه مناسباً لحال وقته أو حال من لقنه ذلك، ولم يقصد تحليل المدلول اللغوي، ولا المعنى الكلي الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها. وهذا النور في العلم الذي لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة.

أمر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وباتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصي وباتقاء الفتن العامة في الدول والأمم -وتقدم في وصايا هذا السياق- وباتقاء الفشل والخذلان في الحرب، وباتقاء ظلم النساء، وبين أن العاقبة في إرث الأرض للمتقين، كما أن الجنة في الآخرة للمتقين، وقال ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] - ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق] - ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق]، وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير.

فمعنى التقوى العامة: اتقاء كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه الإنساني القريب والبعيد، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن. ولذلك قال العلماء: إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات، وزدنا على ذلك: اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين، بحسب سنن الله تعالى في الكون، كالنصر على الأعداء وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض، كما هي في الواقع ونفس الأمر، وكلمة الذين كفروا هي السفلى كذلك، وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة، وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الإنسان مجتمعاً ومنفرداً، كما أرشد إليه في آيات من كتابه، ومن ثَمَّ كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله وما

يجب تركه. وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى، كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم، فكل متق لله في شيء يؤتيه فرقاناً فيه.

وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم في الأرض حتى في عهد الفتح. قال بعض حكماء الإفرنج[1]: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب. ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم، فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة، وحرمانهم من فرقانها، فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم، مع جهل هذا الفرقان المبين وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس، المؤهلة لها للإصلاح في الأرض، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش، لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم وفجارهم، وإنما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] هذا عطف على ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] أي ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود إليها المؤدي إلى الإصرار المهلك، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال]، ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم (وهو الفرقان) بقسميه السلبي والإيجابي جزاء للتقوى وأثراً لها. انتهى تفسير الآية مختصراً.

سنة القرآن في الإرشاد إلى العبادات:

وأما سنة القرآن في الإرشاد إلى الأعمال الصالحة فهي بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالإجمال. وأكثر ما يحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا، والاجتماعية المثلى، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية

(١) هو الدكتور غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب والإسلام وغيره من المصنفات.

الكبرى، كرر الأمر بهما في آيات كثيرة، وبين أهم منافعهما بقوله ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقوله ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج]ز

ولم يكرر فيه ما يُحفظ بالعمل والاقتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج، بل لم يذكر منها إلا ما لذكره فائدة خاصة. وذكرت فيه أحكام الصيام في موضع واحد من السورة الثانية، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه، لأن كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل، وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للإيمان، وسيأتي بعض فوائد الزكاة في الكلام على إصلاح القرآن المالي من المقصد السابع.

وسنعقد في ملحقات الكتاب من الجزء الثاني منه فصلاً في أسرار العبادات الإسلامية من روحية واجتماعية وصحية يبين به فضلها وامتيازها على جميع عبادات الملل الأخرى، فيعلم به أنه لو لم يجيء محمد ﷺ بغيرها لنهضت برهاناً على نبوته وإكمال الله الدين به.

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الإنجيل

نحن (المسلمين) نؤمن بأن إنجيل المسيح عليه السلام هدى ونور بشهادة القرآن له، وإن كنا لا نعرفه وإنما نؤمن أنه هداية خاصة مؤقتة، لا عامة دائمة، وأن الله تعالى إنما أكمل دينه ووحيه بالقرآن، ففضائله أتم وأكمل، وأعم وأشمل، وأبقى وأدوم.

وأذكر فضيلتين من فضائل الإنجيل بزعم النصارى أن ما هو مأثور عندهم فيهما أكمل وأفضل مما جاء به الإسلام: (الأولى) قول المسيح عليه السلام «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى من يبغضكم، ومن ضربك على خدك

الأيمن فأدر له الأيسر»[1] ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين، وإنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين.

أمثال هذه الأوامر لا تأتي في دين الفطرة العام لأن امتثالها من غير المستطاع والله تعالى يقول﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة، قال تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى].

ولا يخفى أن العفو والمغفرة للمسيء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه، فيكون سبباً لاستبدال المودة بالعداوة، في مكان الإغراء بالتعدي ودوام الظلم، ولذلك قال ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت].

فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل؟ أفليس هذا الإصلاح الأعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين، دليلاً على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين.

(الثانية) مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والأمر بتركها وذم الغنى، حتى جعل دخول الجمل في ثقب الإبرة أيسر من دخول الغني ملكوت السموات.

---

(١) راجع هذه الأوامر في أواخر الفصل الخامس من إنجيل متى.

ونقول: إن هذه المسألة وسابقتها إنما كانتا إصلاحاً مؤقتا لإسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم، وآثروا دنياهم على دينهم، والغلو يقاوم مؤقتاً بضده. وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان، والفسق والطغيان.

وأما الإسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يُقَرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم، وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الإسراف والطغيان، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء، ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه، وإنفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الأمة، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها.

وسيرى في المقصد الثامن ما هو أعظم من هذا في إصلاحه المالي.

فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، فيما أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله إلى أمثال هذا الإصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً. فهل الأقرب إلى العقل أن يكون بوحي من الله عز وجل، أم من نفس محمد ﷺ؟

ومهما أَنْسَ من شيء فلن أنسى أول كلمة في المفاضلة بين فضائل الإسلام والمسيحية طرقت سمعي ووعاها قلبي، أتحسبون أنني سمعتها من أحد شيوخنا الأعلام كالعلامة الشيخ حسين الجسر أو الأستاذ الإمام؟ لا،لا، إنما سمعتها من أكبر وجهاء النصارى في طرابلس الشام (إسكندر كاستفليس) الذي كان قنصل دولتي روسية وألمانية معاً، جئته من قِبَل والدي في مسألة مالية وأنا تلميذ، وكان يسمع أنني عصري حر الفكر، فلما انتهى الحديث الذي جئته من أجله فتح لي باب الحديث في الأمور القومية والوطنية والترقي العصري، فسمع مني انتقادا لتقصير مسلمي بلادنا وتأخرهم عن غيرهم خلافاً لما يرشدهم إليه دينهم، ولم يكن يتوقع هذا مني، فعاملني بمثل حريتي، على ما كان يصفه به وجهاء بلادنا من التعصب

الديني السياسي لا الاعتقادي، وكان مما قاله هذه الكلمة: إن في الإسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ، ولكنكم دفنتموها حتى لا تكاد تعرف أو ترى؟ ونحن عندنا شيء قليل ضئيل ككلمة «حب الله والقريب» فما زلنا نمطه ونمده ونقول الفضائل المسيحية حتى ملأ الدنيا كلها.

شبهة فلسفية على عمل الخير لمرضاة الله تعالى

على ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير بهداية الدين يلوكونها بألسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الكمال البشري: أن يعمل الإنسان الخير لذاته، أو لأنه خير لا لعلة.

ويعدون من أكبر العلل أن يعمله لمرضاة الله أو رجاء في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها. حتى إنني قرأت لكاتب اشتهر بأنه يمدح الإسلام ويدافع عنه مقالاً يهذي فيه بهذه الفلسفة. ومعنى هذا - إن كانوا يفقهون أن من النقص في الإنسان أن يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد إليه الدين من تزكية نفسه وترقية روحه، بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الأعلى وأهلاً لجواره في دار كرامته، وإنما يكون كاملاً إذا خرج عن طبعه، وقصد بعمله النفع لغيره دون تزكية نفسه ودون إرضاء ربه، أو عمل العمل لذاته أي لا لمصلحة ولا لمنفعة فيه، وهذا سفه وعبث ينزه عنه العقلاء.

(فإن قيل) بل نقصد به المصلحة العامة أو المنفعة الخاصة بغير العامل. (قلنا) إن هذا مما شرعه الدين وجعله مما يُرضي الله تعالى ويُنال به ثوابه، فهل تشترطون في كونه خيراً أن يكون فاعله كافراً بالله لا يبتغي رضوانه ولا ثوابه، وأن يحب نفع الناس بشرط أن لا ينتفع هو بعمله فيما لا يضرهم؟ ألا إن هذا لمن الحماقة والسفه، لا من الحكمة والفلسفة.

مثال ذلك: أن جميع الصدقات الواجبة والمستحبة من الخير الذي يفضل بها المؤمن غيره على نفسه وأهله، وقد مدح الله فيها الإيثار على النفس، حتى مع الحاجة والفقر، فقال في أنصار نبيه ﷺ ورضي عنهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

﴿خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩]، وذم الرياء فيها وفي كل عمل وهو منفعة دنيوية. وقلما يفعل غير المؤمن خيراً إلا لأجل الرياء والسمعة. أفتقولون: إنه مع هذا من الخير، وإنما يخرجه من محيط الخير، أن يرتفع به إلى القربة عند الله عز وجل؟ وأي خير وفضل وكمال، أعلى من القرب إلى الله ذي العزة والجلال؟

وجملة القول: أن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الملل القديمة وذلك دليل على أن أصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب إليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها، فجاء محمد النبي الأمي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها، الذي جعلها غير كافلة لسعادة البشر الآخذين بها، من شوب الإيمان بالله والشرك، وتشبيه الخالق بالخلق، وجعل الجزاء بالمحاباة والفداء لا بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو، غير مثمرة لتزكية النفس، ولا راجحة في ميزان العقل، فجاءت عبادات الإسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الإنسان.

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره، ومَن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلهما. وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة. على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته، وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في المقصد الأول. ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد، وعبدوهم أيضاً، على

أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه في وقت الشدة، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه، وأنه لعن أكبرهم وسماه شيطاناً وأنه قال لهم «كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة» واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم[1]، وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله وعموم رحمته وفضله، ومن مفسدات نوع الإنسان، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه. فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ﷺ.

(١) بعثة الرسل في جميع الأمم ووظائفهم:

قال الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]. وكرم الله الإنسان بجعل التشريع الديني من حقوقه وحده، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام، وطاعتهم تابعة لطاعته، وقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة مَن دونهم من القديسين، وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الأمم المتدينة ولا سيما البوذيين والنصارى.

ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الإصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم. قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] الآية. وقال في جملتهم من وسطها ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦]، ومثلها في سورة الأنعام (٦ : ٤٨) وفي معناهما آيات أخرى بعثهم

(١) راجع تفصيل هذا في (ص ٢٦٣) من جزء التفسير العاشر.

مبشرين ومنذرين بالقول والعمل، لا متصرفين في الكون بالنفع والضر بأنفسهم ولا بتأثيرهم في إرادته تعالى. وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف]، وقد بين ذلك ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلاً، حتى فطن لذلك بعض علماء الإفرنج الأحرار فقال: إن محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بأن يقولوا «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

(٢) أطوار النصارى وما انتهوا إليه في الدين:

ومن عجيب أمر النصارى: أن وثنيي أوروبة غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذي كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين: وأسس لهم كنائس كهياكل قومه الوثنيين، ورياسة دينية رومانية تناويء اليهود أو الساميين، إلا فلسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين، ثم وضع لهم الأحبار والأساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة، لم يبن شيء منها على أساس التوراة التي هي ناموس موسى عليه السلام ونقلوا عن المسيح أنه قال وقوله الحق «أنه ما جاء لينقض الناموس وإنما جاء ليتممه» ولكن هؤلاء الأوروبين نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تممه به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغي والعدوان، وعادوا أتباعه اليهود في كل شيء.

ولما بُعث خاتم النبيين الذي بشر به موسى وعيسى والنبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام، وبين للفريقين -لليهود والنصارى- ما اختلفوا فيه من أمر الدين، ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كبير في

دينهم، قاتل عليه بعضهم بعضاً حتى صارت أوربة فريقين متكافئين في القوة وكل ذلك معروف بالتفصيل في العالم كله.

ثم حدث بعد ذلك أن حزب دين الإصلاح (البروتستنت) ما زال يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث في الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح.

ثم حدث في هذا العام أن جاهر الجمهور الأعظم في الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الأمة على قواعد جنسها الآري، وهدم قواعد الجنس السامي الدينية وأنبيائه من بني إسرائيل، فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون إلى الوثنية القديمة فعلم من هذا الحدث الجديد أن الديانة النصرانية التي هدمها الشيوعيون في شرق أوربة وآسية (الروسية) وطفقوا يبثون الدعوة بهدمها هي وسائر الأديان، والتي تلاهم الفاشيون من الجرمان بهدمها في قلب أوربة - ليست بالديانة التي تثبت في عواصف هذه الفتن الجديدة، وإنما الذي يقوى على ذلك دين الإسلام وحده، فلا سبيل إلى إنقاذ أوربة وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والإباحة إلا به.

(٣) مسألة الشفاعة:

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا، وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة، فقد نفاها القرآن وأبطلها، وأثبت أن الشفاعة لله جميعاً، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)**﴾ [الأنبياء]، وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيرها مراراً - ومنه أن الشفاعة الثابتة في الأحاديث غير الشفاعة الوثنية والنصرانية المنفية في القرآن.

وقد قرر هذه المسألة في بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية.

فأنت ترى أن القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر، فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب، فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم؟ أم هو نابع من نفسه وهو يقتضي أن ما ينبع منها أعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له.

(٤) الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم:

ومما بينه القرآن في مسألة الأنبياء والرسل أنه يجب الإيمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الإيمان، وأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لأن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة، ووظيفتهم في إرشاد المكلفين وتبليغ رسالته وشرعه واحدة، قال تعالى في خواتيم سورة البقرة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥]، وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الإيمان هي الكفر حق الكفر، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان، وهو الآيات (٤ : ١٥٠ - ١٥٢).

وهذا مبني على الإيمان بأن دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في أصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم، وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة. وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام، ومقتضيات الزمان والمكان، حتى بعث الرسل العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان، مع الإذن بالاجتهاد في مصالح التي تختلف باختلاف الأطوار والأحوال. فالإيمان ببعضهم دون بعض في رسالتهم الإلهية، اتباع للهوى في الإيمان وجهل بحقيقة الدين، فلا يعتد به، لأنه عين الكفر.

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون أهل الملل الوثنية من المجوس والهندوس، ودون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بأنبياء بني إسرائيل وأبيهم

وجدهم، على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها (كما تقدم).

وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الأمم رسلاً هادين مهديين، فهم يؤمنون بهم إجمالاً، وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلاً، فقد كرم الإسلام بهذا نوع الإنسان، ومهد به السبيل للألفة والأخوة الإنسانية العامة التي نبينها بعد، فالمسلم صديق ومحب وحبيب لجميع الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة، وتجاه هذا يصح أن يقال: إن غير المسلم عدو لله ولهم كلهم، لأن تكذيبه لبعضهم تكذيب لرسالتهم ولمرسلهم سبحانه.

وهذه المزية لأمة محمد ﷺ من المزايا التي كانت بها حجة على سائر الأمم وأهلاً لمنصب الإمامة فيها، قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣] فهي الوسط العدل في الإيمان بجميع الرسل وما جاءوا به من أركان الدين الثلاثة -كما بيناه في المقصد الأول- وفي غير ذلك من الفضائل والأعمال.

وأما شهادتها على الناس فهي تابعة لما كُلفته من دعوة جميع الأمم إلى حقيقة دين الرسل التي تلقتها من خاتم النبيين ﷺ وحلت محله في الدعوة إلى ما جاء به مَن بعده، فهو ﷺ يشهد عليها يوم القيامة كما يشهد كل رسول على قومه الذين كانوا في زمانه كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[النساء].

ومن المعلوم بنص القرآن أن بعض الأنبياء والرسل أفضل من بعض بتخصيص الله تعالى، وبما كان لكل نبي من عمل في نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جداً، قال الله تعالى ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية أن محمداً خاتم النبيين، الذي

أكمل الله به الدين، وأرسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالإجمال[1] وفصلناه في هذا الكتاب أقصَد التفصيل.

وإنك لتجد مع هذا أنه ﷺ قال لأتباعه «لا تفضلوا بين أنبياء الله» قاله إنكاراً على رجل من المسلمين لطم يهودياً لأنه قال «لا والذي اصطفى موسى على البشر» فشكاه إلى النبي ﷺ فغضب غضباً شديداً على صاحبه المسلم وقاله وبَيَّن مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال «ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى» والحديث رواه الشيخان في الصحيحين، وفي رويات أخرى للبخاري «لا تخيروا بين الأنبياء» وفي بعضها «لا تخيروني على موسى» والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص أحد من الأنبياء عليهم السلام، ومن التعادي بين الناس لأجلهم، ومن الغلو فيه ﷺ وإلا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء «والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» رواه أبو يعلى من حديث جابر.

ذلك بأن مثل الأنبياء كمثل ولاة الأقطار في مملكة واحدة، أو مثل قواد الجيش في المعسكرات المتفرقة لدولة محدودة، ومثل خاتمهم صاحب الرسالة العامة كمثل القائد والوالي العام عند إرادة توحيد السياسة والقيادة. وهذا معنى تبشير الأنبياء بمحمد ﷺ[2]، وأخذ الميثاق عليهم بوجوب الإيمان به ونصره واتباعه إذا جاءهم فرضاً، كما تراه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية[3].

---

(١) راجع أول ج ٣ تفسير.

(٢) راجع تفصيل ذلك في ص ٢٥١ ج ٩ منه.

(٣) راجع تفسيرها في ص ٣٤٩ ج ٣ منه.

بحث في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله

وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها من خوارق العادات

وضلال الماديين والخرافيين فيها

تكلمنا في الفصل الثاني في آيات الأنبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات، ويعدونها قسماً من خوارق العادات، وكان الكلام فيها هنالك للمقابلة والموازنة بين آيات الأنبياء الكونية وآيات خاتمهم الكبرى العلمية العقلية الدائمة وهي القرآن، وتأثير كل في الاهتداء إلى الإيمان. ونأتي هنا ببحث آخر في تلك الآيات، وما يشبهها أو يشتبه بها من الكرامات، وسائر خوارق العادات، وما كان من إصلاح الإسلام لضلال البشر فيها، والصعود بهم إلى أعلى مراقي الإيمان، اللائق بطور الرشد العقلي لنوع الإنسان، والعلم الواسع بسنن الأكوان، الذي مُنحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام فنقول:

آيات الله نوعان:

آيات الله تعالى في خلقه نوعان: (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه تعالى العامة المطردة في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وإرادته، وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته. (والنوع الثاني) الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها، وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام هذا العالم، فالسنن مقتضى حكمته وإتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة. ولولا هذا الاختيار لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لا علم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار، وآلات البواخر والمعامل الكبيرة. والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام (بنظرية الميكانيكية) وهم

يتكلفون اختراع العلل والأسباب لكل ما يرونه مخالفاً لسننه المعروفة، ويسمون ما لا يهتدون إلى تعليله من الأمور المخالفة لها بفلتات الطبيعة، ويقيسون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وإن لم يقم عليه دليل يثبته، ويقولون إن ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً. وهذا دأبهم في جميع نظرياتهم العلمية، إذ ليس عندهم علم قطعي بشيء منها، وهذا مرادهم من تسميتها بالنظريات، فمعناها المسائل الموضوعة للنظر والبحث والاستدلال[1].

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب:

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الأكبر وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي بإذن الله تعالى وتسخيره، نعتقد أن لله تعالى سنناً في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة، وأن الإنسان هو حلقة الاتصال بين العالمين، فجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة، وروحه من عالم الغيب، وهو ما دام في عالم الجسد المادي فإن جميع مداركه تكون مشغولة بعالم المادة وسننها، وحاجاته الشخصية والنوعية منها، فيحجبه ذلك عن عالم الروح الغيبي حتى روحه وهي الفصل المقوم لحقيقته، وإنما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة، إلا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فأعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليبلغوا عباده عنه أمرهم به، وقد يشرف غيرهم من الأصفياء وأصحاب الرياضات النفسية على بعض الخواص الروحية دون ما يطلع عليه الله أنبيائه ورسله عليهم السلام.

الغيب قسمان: حقيقي وإضافي:

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان: غيب حقيقي، لا يعلمه إلا الله، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض، لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد

---

(١) لا يزال يظهر للباحثين منهم ما ينقض ما كانوا يعدونه من أثبت القواعد، ونقل إلينا أخيراً أن الأستاذ شبنجلر ألف كتاباً في سر فلسفة القدر نقض فيه جميع قواعد العلوم والفنون وأسند كل شيء من أطوار الكون إلى القضاء والقدر.

الفطري والعمل الكسبي، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة[1].

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أوتوا نصيباً من الإشراف على ذلك العالم بانكشاف ما للحجاب، وإدراك ما لشيء من تلك الأنوار، كان بها إيمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان. وقد روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال: لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً. يعني والله أعلم أن الله قد شرح صدره للإسلام فكان على نور من ربه بلغ به مقام الإطمئنان. وقد صح عن بعض من دونه من الصحابة في العلم والعرفان، أنهم رأوا النور الغيبي بالعيان، ورأوا الملائكة عليهم السلام، في غير ما كانوا يرون جبريل متمثلاً بصور إنسان.

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الإهتمام بشهوات الجسد، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة تصرفها عن حسها، وتوجه قواها النفسية إلى ما شاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها - قد يكون لهؤلاء الأفراد في بعض الأحوال من قوة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم فيخبرون بها فتقع كما أخبروا، وثبت هذا وذاك عند بعض الماديين في هذا الزمان[2].

---

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات ٤٢١ و ٤٥٦ - ٤٥٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في (ص ٥١٣) من الجزء التاسع.

(٢) منه ما يسمونه بقراءة الأفكار وبمراسلة الأفكار، ولا يزالون يصدقون العرافين والعرافات كما نرى في الصحف عن جرائد أوربة، وآخرها ما قرأته عند تصحيح هذه الكراسة في المقطم الذي صدر في غرة صفر سنة ١٣٥٤هـ مايو سنة١٩٣٥م عن العرافة (مدام ترفران ليلي) أنباء قالتها للوزراء والملوك والرؤساء في أوربة ثم وقعت كما أنبأت، منها قتل دومر رئيس جمهورية فرنسة ومنها عودة كارول ملك رومانيا المنفى إلى بلاده، ومنها أن أحمد زوغو سيصير ملكاً لألبانية، ومنها الانقلاب في ألمانية الخ.

الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم:

إن الأمور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة، أو الخارقة للعادات المألوفة، منقولة عن جميع الأمم في جميع العصور نقلاً متواتراً في جنسه دون جميع أنواعه أو أفراد وقائعه، وليست كلها خوارق حقيقية، فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور وإن منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص، وإن منها لما هو من خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالبها، وفي تأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الأمور والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم، ومنها بعض أنواع العمى والفالج، فإن من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة. وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغؤورهما الذي أبرأه المسيح عليه السلام بإذن الله تعالى.

ومنه انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون، ومنه ما فعله سحرة فرعون المبيَّن بقوله تعالى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]. ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن، إذ يتكلمون ليلاً بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم أن ذلك صوت الجني، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم[1] فلا ينبغي أن يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم. ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب أنهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة. وأنهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والانتفاع بهم.

---

(١) قد حدث في هذه السنة افتضاح دجالة اتخذت دعوى استخدام الجن صناعة لها فرُفعت عليها قضايا وقد قرأنا في بعض الجرائد عند تقديم هذه الكراسة لجمعها للطبعة الثانية أن حيلتها الصناعية بالكلام الذي يسمع صوته من جوفها وتوهم به المخدوعين أنه كلام الجني قد عرفت في أثناء التحقيق.

وقد بينا هذه الأنواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الأعراف[1] وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه.

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الأمم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل، يغترون بما عندهم منها، ويخضعون للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها، ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الأولياء وعجائب القديسين. ويقل تصديق هذا أو الانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الأمم من ذلك. على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكة. ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهمج الزنوج وغيرهم.

بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الأعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها. وان ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم. حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها. ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى، فولى مدبرا ولم يعقب[2] لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه؟ أولم تقرأ قوله لمحمد ﷺ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]؟ أولم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب به مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٣]، وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠] وما في معناها؟

---

(١) راجع ص٤٥ – ٦٠ ج ٩ من تفسير المنار.

(٢) يعقب بتشديد القاف: أي لم يلتفت ولم يرجع.

إن الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة. وذلك لا يكون إلا بإظهارها. فهو واجب لإتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها. وما كان الأنبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير ما يؤيدهم به من الآيات الدالة على صدقهم في دعوى الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء. وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصبر هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك إلا نادراً. وقد سألته المرأة التي كانت تُصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها، فشكت إليه أنها تتكشف عند النوبة وسألته أن يدعو لها ألا تنكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه.

وكان المشركون يقترحون عليه الآيات الكونية كآيات موسى وعيسى عليهم السلام فيجيبهم بأمر الله تعالى بما هو صريح في أن الآيات عند الله وهو القادر عليها دون الرسول، ومنه التعجب من طلبهم بقوله تعالى له ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]، وفي معناه ما حكاه من جواب الرسل الأولين لأقوامهم الذين كانوا يطالبونهم بمثل ذلك بقوله ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

والأصل في الكرامة الإخفاء والكتمان وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة للناس.

وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة وقد صرح بهذا محققو العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافاً للمشهور بين العامة.

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية:

(الحجة الثانية) قالوا: لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة. والجواب: منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي إنما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي. وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار، والكرامة مبناها على الإخفاء، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص لا على الكثرة والعموم. وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح. اهـ. ثم قال:

(الحجة الرابعة) قالوا: لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الأنبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سراً. فإن من أصول معظم جماعتكم أن الأولياء لا يُظهرون الكرامات ولا يدعون بها وإنما تظهر سراً وراء ستور، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ويكون ظهورها سراً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فإذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه؟ وأيضاً تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الأولياء، وذلك يصدهم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم.

وقال في الجواب: لأئمتنا وجهان: الأول: منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد، وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكروه. والثاني -وهو لمعظم أئمتنا- قالوا: إنه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات. اهـ.

وأقول: إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والأصول على منع توالي الكرامات وتكرارها، ومنع إظهارها. قال الشيخ محي الدين بن عربي إن ما

يتكرر لا يكون كرامة لأنه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات. وقال الشيخ أحمد الرفاعي إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض وصرحوا بأنها ليست بشرط للولاية ولا دليل عليها.

جَهل هذا الأصل المحكم من عقائد الإسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وأن الأنبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاءوا، ويغرون[1] الناس بإتيان قبورهم ولو بشد الرحال إليها لدعائهم والاستغاثة بهم عندها ليدفعوا أو يرفعوا عنهم نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالأسباب العادية -كالأطباء مثلاً- ويتقربون إليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون إلى آلهتهم من الأصنام وغيرها وهم يأكلونها سحتاً حراماً ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم، حتى قال بعضهم إنهم يخرجون من قبورهم بأجسادهم، ويتولون قضاء الحاجات، وكشف الكربات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات. وقال بعضهم في كتاب مطبوع إن فلاناً من الأقطاب يميت ويحيي ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني. بل قالوا وكتبوا ما هو أبعد من ذلك عن نصوص الكتاب والسنة القطعية المحكمة، والعقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة في الأصل، وما كان عليه مسلمو القرون الأولى، فصارت بانتشار الخرافات والجهل من الكرامات التي تؤول وتحرف لأجلها الآيات المحكمات. وقد فصلنا هذا في تفسير المنار مراراً ونجمله فيما يأتي:

الكافرون بالآيات صنفان

مكذبون ومشركون، وعلاج كل منهما

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان: صنف يكذبها كلها ولا يؤمنن بشيء منها، وصنف يشرك بالله غيره فيها فينحله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه،

---

(١) من الإغراء أي يحضونهم على ذلك ويرغبونهم فيه.

بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك وصرَّفهم في العالم كرامة لهم، أي هو الذي أشركهم معه كما كان المشركون يقولون في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وإنما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخَلق دون معانيها، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكَذِّبهم به كتابه المنزل، ونبيه المرسل، ولكنهم يؤولون ما هو حجة عليهم، ويحرفون ما هو شبهة لهم، فيحتجون به على جهلهم، كآية ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٣٤]، وهي كأمثالها في جزاء جميع المؤمنين المتقين في الآخرة، ويذكرون أن الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب، وما كان رزقها من فعلها، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها، ويذكرون وحيه إلى أم موسى بإرضاعه وإلقائه في اليم، وما هو من فعلها أيضاً، وقد قيل بنبوتها، ويذكرون عرش ملكة سبأ وهو من آياته تعالى لنبيه سليمان، وليس في الآية تصريح برؤيته مستقراً عنده كيف كانت، فقيل إن الذي جاء به جبريل، وقيل ملك آخر وقيل ولي هو وزير سليمان، وهذا من الإسرائيليات غير المعقولة.

إن إفساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لأشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها، ذلك بأنهم هم أكبر أسباب هذا الإنكار والتكذيب، بزعمهم أن الأنبياء ومَن دونهم مِن الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه، أو يبدلها بغيرها ويحولها عما وضعت له، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه، فكذبوا بالدين من أساسه، فدعوى تصرف الأنبياء والصالحين في الكون قول على الله بغير علم، وافتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله، وهو أشد أنواع الكفر بالله، لأن ضرره متعد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة.

علاج خرافة تصرف الأولياء في الكون:

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات

القرآن، دون نظريات كتب الكلام، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل وحصر اختصاصهم بالتعليم والإرشاد تبشيراً وإنذاراً، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة. ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم إليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومَن دونهم من أولي القربى. فوالد إبراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدو لله ورسوله وخليله، وولد نوح أول الرسل إلى الأمم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى لنوح بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين، وكان أبو لهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ، بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع، لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة «لا أله إلا الله» ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] رواه مسلم في صحيحه. وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤] الآيات[١] ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الأنعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يَحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع[٢]. وإذا كان الأنبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤتاه الأولياء وغيرهم؟

المنكرون للمعجزات
وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون للآيات فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرهما من

(١) ص ٥٣٤ – ٥٦٥ ج ٧ تفسير.
(٢) ص ٥٧١ – ٥٧٨ ج ٨ تفسير.

النبيين عليهم السلام ولا يسلمون صحة تواترها، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل، ويحتجون على ذلك بأن يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح عليه السلام لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الأناجيل التي ألفت بعده، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر فإن لم يستطيعوا تعليلها قالوا إنه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه (كما بيناه في الكلام على عجائب المسيح من الفصل الثاني).

أعجوبة من خوارق الهنود

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الأيام[1] من أخبار سائحي الإفرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجوهارداياس وقعت في سنة ١٨٣٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد إظهاره؟ فقال: إنه يدفن أربعين يوماً ثم يعود إليهم حياً، فأحضر المهراجا نفراً من أطباء الإنكليز والفرنسيس وأمراء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم، فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه -كما أوصاهم- وخاطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها، وأمر اثنين من رجال حرسه الأمناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الأوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا.

---

(١) هي جريدة الاتحاد، وكان هذا في أثناء الطبعة الأولى للكتاب في أوائل عام ١٣٥٢.

ولما تمت الأربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها، ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فإذا هو كما وصفه أحد أولئك من الإنجليز، قال:

لما فتحوا الصندوق وأخرجو الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلاً على إحدى الكتفين، فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ أمد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال إنه لم يجد أثراً للنبض البتة، ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ.

ثم نُفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد إخراجه، فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الأوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الأذنين والأنف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى، وتقلصت الأعصاب والأطراف ثم اضطربت، فسال منها عرق غزير وعادت الأعضاء إلى حالتها الأولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد إليهما لونهما الطبيعي. فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً إليه داهشاً متحيراً قال له «أرأيت ما مولاي صدق قولي وفعلي؟» وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يُحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحير العقول. اهـ.

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة وهي أعجب من رواية الإنجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه عليه السلام، وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضاً من بعض الوجوه، فإن الفقير الهندى قد سد أنفه، ولف في كفن، ووضع في تابوت دفن تحت الأرض، فحيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف، وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم فتلطف هواءه من

حيث لا تصيبهم، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين إن قوله تعالى ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ [الكهف:٢٥] الآية - حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم، فإن كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ [الكهف:٢٦]. والله أعلم بكل حال على كل حال وإن خفي سر آياته على خلقه، ولا شيء من الأمرين بمحال، وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر.

ولكن ما جرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لأبدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء إنكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها، وهو خالق كل شيء بقدرته، وواضع نظام السنن والأسباب بمشيئته، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به، وإنما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بأنه مناف لحكمته، ومن ذا الذي أحاط بحِكمه أو بسننه علماً؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الأسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل، وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم. وقد ثبت في هذا العصر من خواص الكهرباء وغيرها ما لو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات لحكموا على مدعي إمكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات كما قلنا من قبل[1].

---

(١) إن الصحف قد نقلت إلينا في هذا العام من عجائب صوفية الهند أيضاً ما هو أعجب مما تقدم وقد لخصنا بعضه في حاشية.

المعجزات قسمان، تكوينية وروحانية تشبه الكسبية:

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الأنبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان: قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الأحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات، أو ما يكون بإرادة سَنية من الملوك لمصلحة خاصة -ولله المثل الأعلى- وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية.

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى عليه السلام وأثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر فهي من القسم الأول، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري، وكذلك الآيات الأخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني إسرائيل ومدة التيه، بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى عليه السلام إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى ولم ينقل عن أحد من الأنبياء آية كهذه الآيات فضلاً عمن دونهم. ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الأسباب الروحية التي تكون لأحد من الناس بالرياضة وتوجيه الإرادة أو خواص المادة وقواها.

وأما المسيح عليه السلام فالآيات التي أيده الله تعالى بها -على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس- قد يظهر فيها أنها كلها أو جلها حدث على سنة الله في عالم الأرواح كما كان خلقه كذلك، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها (وهو المَلَك جبريل عليه السلام) كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل، فلا غرو أنْ كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحانيين من الأنبياء والأولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم، والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل وأقدس وأفضل، وأنها لم تكن بعمل كسبي منه، بل من أصل خلق الله عز وجل إياه بآية منه، كما قال ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء]، وقال ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ

﴿وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، فآيتهما هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الإلهي، لا بسبب التلقيح البشري، ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والأنوثة في رحمها، كوجودها في بعض الأحياء الدنيا.

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفوا الأناجيل الأربعة (وروي أنها منصوصة في إنجيل الطفولة الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً بإذن الله تعالى ومشيئته، والمروي أنه كان يطير قليلاً ويقع ميتاً. ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة، فإن توجيه سيال روحه القوى إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سبباً روحانياً لإعادة روحه إليه بإذن الله ومشيئته، كما يمس النور ذبال السراج المنطفيء فتشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الإيجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منهما، وما ينقل عن صوفية الهنود من إعادة الحياة إلى ميت مؤقتاً، فهو إن صح مكسوب بالرياضة. وقد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة الحياة الحيوانية إلى فاقدها عقب فقدها بعملية جارحية أو بمعالجة للقلب.

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الأمراض ولا سيما العصبية سواء أكان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الأناجيل أم غيره، فإن الشيطان روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا لشيخ الإسلام إبن تيمية وغيره من الروحانيين، حتى أن تلميذه العلامة المحقق إبن القيم ذكر أنه أرسله أو رجلاً أخر إلى مصروع وخاطب الجني الذي فيه بقوله: الشيخ يأمرك أن تخرج، فخرج وشفي الرجل في الحال، وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به وبما دونه من تأثير النفس.

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه[1] بقوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩]. وقد أنبأ غيره من أنبياء بني إسرائيل وغيرهم وكذا غيرهم من الروحانيين ولا سيما صالحي أمة محمد ﷺ بما هو أعظم من هذا من الأمور المستقبلة ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف، وطول المدة وقصرها، والثقة بالمرئي وعدمها، وإدراك الحاضر الموجود، والغائب المفقود، وما كان في الأزمنة الماضية، وما يأتي في الأزمنة المستقبلة، فأعلاها خاص بالأنبياء، إذ لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الأولى، كإخبار القرآن عن الرسل الأولين مع أقوامهم، أو ما يقع بعد سنين في المستقبل كإخباره عن عودة الكرة للروم على الفرس، وإخباره ﷺ بفتح الأمصار واتباع الأمم لأمته، ثم بتداعيهم عليها كما يتداعى الآكلون إلى قصعة الطعام، وقد أخبر بعض أصحابه بأعيانهم بما يقع من ذلك في زمنهم كسقوط ملك كسرى. وسنعقد فصلاً خاصاً بأخبار الغيب في القرآن والحديث في الجزء التالي كما وعدنا في فاتحة هذه الطبعة. ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الأفكار، وقد شاهدنا من فعله، ومنها مراسلة الأفكار كما تقدم.

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى عليه السلام بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية، وأن آياته لعيسى عليه السلام بخلاف ذلك، والنوع الأول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر، ليعدها من نظام الأسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم.

عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى

وإنما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهاً ولم يعبدوا موسى كذلك -وآياته أعظم- لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه

---

(١) وقد سبقه إلى مثل هذا يوسف عليه السلام بما حكى الله من قوله لصاحبيه في السجن ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧] الآية.

واتحاده به بزعمهم، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلاً مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات.

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر، ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الأسباب والمسببات، الداخل عندهم في باب الكرامات، وهو خاص بالرب تعالى، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الإله ولا الخالق، إذ الأسماء اصطلاحية، وإنما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن يشاء وصرفهما عمن يشاء بما يسخره من الأسباب وبدونها إن شاء - وأن المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الأسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والأعضاء وفي وسائلها. وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الأنبياء ولا غيرهم، لأن الأنبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس إلى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها، فمنافع الدنيا لا تُطلب منهم أحياء ولا أمواتاً وإنما تطلب من أسبابها، وما وراء الأسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وقد قتل الظالمون بعض الأنبياء والأولياء، وآذوا بعضهم بضروب من الإيذاء، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم، ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ما عبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى، كما قال ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] الآية ومثلها آيات. وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل، فقال ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ

اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الجن] الآيات. وقد فصلنا هذه المسألة مراراً.

ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية:

(١) أن الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال، وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات. فمخلوقاته العليا والسفلى، هي مظهر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولهذا قال حجة الإسلام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وهذا النظام المطرد في الأكوان، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن – هو البرهان الأعظم على وحدانية خالق السموات والأرض ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢].

(٢) إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل، وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفاً، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون. ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجو، حتى تكاد تبلغ محيط الهواء، وبعض مراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار، ونراهم يتخاطبون من مختلف الأقطار، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام[1]، وقد يغمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلت عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين، وبينهما المهامه الفيح، والجبال الشاهقة، ومن دونهما البحار

(١) روي لنا أن آلة المذياع (الراديو) الناقلة للأصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقي فيه.

الواسعة، والجاهلون بهذه السنن الإلهية، والفنون العملية، لا يزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الأسباب -التي ضيق الجهل عليهم سبلها- إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين، ليقضوا لهم حاجتهم ويشفوا مرضاهم، ويعينوهم على أعدائهم، بل ينتقموا لهم من أصدقائهم الذين عادوهم بغياً وفساداً: من زوج وقريب وجار ووطني، وأعداؤهم في دينهم ووطنهم من الأجانب قد سادوا حكومتهم واستذلوا أمتهم، واستأثروا بجل ثروتهم، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وإذلالهم!!

(٣) إن الأصل في كل ما يحدث في العالم أن يكون جارياً على نظام الأسباب والمسببات وسنن الله التي دل عليها العلم، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها، ولا تبديل لها ولا تحويل، فكل خبر عن حادث يقع مخالفاً لهذا النظام والسنن فالأصل فيه أن يكون كذباً اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خُدع به ولُبس عليه فيه، فإن كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التي يجهلها المخبر، كما حققه علماء الأصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه.

(٤) إن آيات الله التي تجري على غير سنته الحكيمة في خلقه لا يثبت العلم بها إلا بدليل قطعي. وقد كان من حكمته أن أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لإقامة حجتهم وتخويف المعاندين لهم، وقد انقطعت هذه الآيات ببعثة خاتمهم محمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته، وجعل ما أوحاه إليه آية دائمة، وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا، وأنزل عليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه، وهذا الكتاب في جملته وتفصيله مشتمل على كثير من الدلائل العقلية العلمية على كونه من عنده، كما فصلناه من قبل، ونزيده بياناً فيما بعد.

وقد ادعى الباب والبهاء والقادياني الوحي في القرنين الأخيرين، فجاءوا بأسخف مما عُزي إلى مسيلمة الكذاب، وسأورد نماذج من وحيهم الشيطاني في الجزء الثاني من هذا الكتاب مما فيه عبرة لأولي الألباب.

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعوا الأديان والنحل الجديدة، لما كان لختم النبوة معنى. وقد بلغ من غلو مارقة الصوفية الروحانية أن امتروا في ختم النبوة[1] فأنكروه أو تأولوه لادعائهم نوعاً منها، ومنهم من ابتدع اسماً أو وصفاً للنبوة التي ادعوها وهو النبوة الظلية، وفتن بفتنتهم البابية والبهائية، حتى عبدوا الباب والبهاء إذ ادعيا الألوهية، وفتن بها (غلام أحمد القادياني) فادعى النبوة والمسيحية له ولخلفائه بلا انقطاع، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع.

وقد بين شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الأمم بارتقاء نوع الإنسان في الإدراك والعقل، كارتقاء الأفراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة حتى بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا (هداية القرآن) بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يدهش حسه ويعي عقله من آيات الكون (يعني أنه بلغ هذا الرشد في جملته واستعداده كثير من أفراده لا كلهم ولا أكثرهم).

بَيَّن في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة أن سمو عقل الإنسان وسلطانه على قوى الكون الأعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه وعلته، فاعتقد أنه من قِبَل السلطان الغيبي الأعلى لمدبر الكون ومسخر الأسباب فيه، فكان من رحمة الله تعالى به «أنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة في الإقناع

(١) حُكي عن إبن سبعين لعنه الله أنه قال: قد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله «لا نبي بعدي».

بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه».

ثم قال في رسالة محمد ﷺ: نبي صدَّق الأنبياء ولكنه لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام، وسلطان البلاغة، وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت].

لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء إلا بالقرآن

(٦) إنه لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا إلى هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها. أقول هذا تجاه إنكار العلماء الواقفين على كتب الأديان التي قبل الإسلام -حتى كتب اليهود والنصارى- وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات واشتباههم في كونها خوارق حقيقية، وفي كون الخوارق تدل على نبوتهم، وحجتهم على الأول: أن التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها، وهو نقل الجمع الكثير الذي يؤْمَن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس، وحمله عنهم مثلهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل بدون انقطاع، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه. وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له، وعدم إمكان رده إعتقاداً ووجداناً، وهذا غير حاصل في رواية آيات الأنبياء الأولين عندهم، بل زعم بعض علماء الأفرنج أن قصة المسيح وضعية خيالية لا واقعة حقيقية، ولها أمثال في التاريخ. وتقدم الكلام في آياته والمراء فيها.

وشبهتهم على الثاني: أن وقوع الخوارق المذكورة لا يدل على النبوة والرسالة كما بيناه في الكلام على الآيات والخوارق وإثبات النبوة من أواخر الفصل الثاني.

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة، وكل واقف على تاريخ الإسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه الدالة على أنه وحي إلهي، وقد شرحنا شبهتهم عليه وبينا بطلانها في هذا الكتاب - وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى، فقد وجب الإيمان بكل ما أثبته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها: يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ.

وإذا كان لا يجب على مسلم أن يؤمن بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ، فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الأمم أكثره كذب، وبعضه صناعة علم، أو تأثير نفس، أو شعوذة سحر - وأقله من خواص الأرواح البشرية العالية. وعلامته أن يكون علماً صحيحاً موافقاً للمنقول الشرعي، والمعقول القطعي، أو عملاً نافعاً مشروعاً، وأن يكون من صدر عنه مؤمناً عاقلاً صالحاً، فكل ما ينقله المتصوفة مخالفاً لذلك من التصرف الضار بالناس في دينهم أو صحتهم، فهو إن صح، من تأثير الأنفس الخبيثة، كالإصابة بالعين والتنويم المغناطيسي الضار، لا كله.

(٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الأنبياء المرسلين المعينة قليل جداً، فما كانت دلالته من هذه النصوص قطعية فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية، يعد ارتدادا عن الإسلام، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص أو دليل مثله أو أقوى منه، فإن عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالأدلة المعروفة، والخروج عن ذلك ابتداع.

الإيمان بالقدر والسنن العامة
وآيات الله الخاصة

إننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته، واختياره وحكمته وأنه ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [٧] كما قال في سورة الم السجدة، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [٨٨] كما قال في سورة النمل، وأنه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور كما قال في سورة الملك ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾، وأنه خلق كل شيء بنظام وتقدير لا جزافاً ولا أنفاً[١] كما قال في سورة القمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، وقال في سورة الفرقان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾، وقال في سورة الحِجر ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ[٢] ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

وأن له تعالى في نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الإجتماع، سنناً مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وأن سننه تعالى عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح. وقد ورد ذكر السنن الاجتماعية باللفظ في سور المائدة والأنفال والحجر والإسراء والكهف والأحزاب وفاطر وسورة المؤمن[٣] والفتح.

فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام في الخلق، الذي تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التي وضعها الخالق لها، لا ما اشتهر عند الجماهير من الناس من أن المقدر ما ليس له

---

(١) الأنف -بضمتين- هو الذي يفعل ابتداءً من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر.

(٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي أظهرتها العلوم الحديثة، فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المئوية.

(٣) سورة المؤمن = سورة غافر. (فؤاد)

سبب، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن، وقد يصح إطلاقه على ما لا يعرفون سببه، ولا يحيط بأسباب الحوادث علماً إلا خالقها، ومقدر سببها وسننها.

ونؤمن بأن له تعالى في خلقه آيات بينات، وأن له في آياته حكماً جلية أو خفية، وأن ما منحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير، وسنن التدبير، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه، وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة، لا عن خلل ولا عبث، وأن ما خفي علينا من حِكمه تعالى فهو كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه، نبحث عنها لنزداد علماً بكماله، ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا، وقد ثبت لأعلم علماء البشر في كل عصر أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً.

أجمع على هذا علماء هذا العصر الماديين على سعة علمهم بالمادة وسننها، وكثرة ما أحدثوا من الصناعات والمنافع بتسخيرها، فما قولك بعالم الروح والغيب؟ إنه ليظهر فيهم كمن قبلهم صدق قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الإسراء].

ونؤمن بأن الله تعالى قد أرسل إلى البشر رسلاً هدوهم بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس، وما يستنبطه الفكر منها باديء الرأي، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الأجسام وأعراضها، وبقياسهم ما جهلوا على ما عملوا منها. وما ينكره الإنسان ويعتقد استحالة وجوده لا يبحث عنه.

وقد علمنا من التاريخ أن الإيمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر، وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الأجيال المختلفة، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب منهم نصيب في ذلك - فهذا الإيمان بالأركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر إلى علوم

وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها.

فتبين لنا بهذا وبما قبله أنه كان للبشر بآيات الأنبياء ثلاث فوائد هي من حِكم نصبه تعالى لتلك الأيات:

(الأولى) جعلها دليلاً حسياً على اختياره تعالى في جميع أفعاله، وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له، لا حاكمة عليه، ولا مقيدة لإرادته وقدرته.

(الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه، ونذراً للمعاندين لهم من الكفار، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم، أو تقع منهم باستعداد روحي فيهم، لما كانت آية على صدقهم.

(الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات، وضيق نطاق المحال في المعقولات، وإلى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والأمور المعهودة والسنن المعروفة، لا يقتضى أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه، ويُكذب المخبر به ولو مع قيام الدليل على صدقه، وإنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح، وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون وسبب من أسبابه المطردة، والماديون المنكرون لآيات الرسل لن يجدوا هذه الآية في عالم المادة وإنما يجدونها في القرآن.

ذلك بأن كل ما في عالم المادة فهو خاضع لما يسمى في عرفهم بالأسباب والنواميس والعلل، وفي لغة القرآن بالسنن والقدر (كما قرأنا عليك آنفاً) ولذلك نجدهم يبحثون بالتحليلات المادية عن الموجود الأول في الأزل، وما كان يبحث عنه الفلاسفة المتقدمون بالدلائل العقلية ويسمونه علة العلل، وإنما الموجود الأول هو الله تعالى واجب الوجود، الذي صدر عنه كل ما عداه من الموجودات، وهم لمَّا يعرفوا أول ما صدر عنه بمحض قدرته ومشيئته المعبر عنها عندنا بكلمة التكوين

وهي قوله تعالى للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة] وهذا غيب الغيوب، ومنهم من يرى أن العلم به متعذر، ومنهم من يطلبه ويرجوه.

ولكن الأمر قد انقلب عندهم إلى ضده فإن كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم والأعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا إليه من الإيمان بالغيب من العقول، قد صارت هذه العلوم نفسها سبباً لإنكارهم ما كان سبباً لها وموصلاً إليها (وهو الآيات والإيمان بالغيب) لإنكار إمكانه في العقل. بل إنكار ثبوته بالفعل، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون نظيراً له في الغرابة، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيقته، كما قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣]، ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في أنفسهم أو من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة أو فرضوها فرضاً بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه، وظلوا على لبسهم، كالذين طلبوا من محمد ﷺ أن ينزل عليهم ملكاً رسولاً، فقال الله فيهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]، أي لمَّا كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا المَلَك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم، وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم؟ فلو جعل الله ملكاً رسولاً إليهم لجعله رجلاً مثلهم، ولالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسل بشراً مثلهم.

وهكذا يفعلون الآن: ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة فشبهوها بما عرفوا من الأمور المادية، فأطلقوا على تلك المكاشفات اسمي قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار، وقالوا إنها من قبيل نقل الكلام بالسَيَّال الكهربائي من مكان إلى مكان، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية أو غيبية من الخالق لا تخضع لعلمهم، وهم ما زالوا يرتقون في الأسباب إلى أن وصلوا من ظواهر تكوين الكهرباء الإيجابية والسلبية (بما يسمونه الإلكترون والبروتون) إلى مستوى قريب من عالم الغيب، وظنوا أنهما أصل لكل ما في عالم الشهادة من شيء، على أن الكهرباء

ليست بمادة محض، ولا بقوة محض، ولكنها شيء موجود دخل في حكم علمهم بوجه ما، وهم عتاة لا يؤمنون إيماناً تعبدياً إلا بآية تعلو على مدارك علمهم وعقولهم.

الخطر على البشر من إرتقاء العلم بدون الدين:

إن حرمان هؤلاء العلماء من الإيمان بآية كونية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم، وجميع علمائهم المصلحين، وساستهم الدهاقين، في حيرة من تلافي هذا الخطر ولن يُتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين، وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين، ولأجله أثبت الآيات بكتابه، وفي كتابه المبين، إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم بقيام الدليل على أنه من السلطان الغيبي الإلهي الذي هو فوق استعدادهم. ولا يظهر هذا السلطان والبرهان في علوم الكون، لما ذكرنا من شنشنتهم فيها، وإنما يظهر أكمل الظهور في هذا القرآن، وسنتحداهم به أتم التحدي في خاتمة هذا الكتاب.

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام

بجعل الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل، كلف البشر[1] مقاومة فطرتهم بها، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعاً للرؤساء الذين يلقنونهم إياها، فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين، وإن خالفوهم سراً أو جهراً كانوا من الهالكين، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين، ولكن عجز عقلاؤهم

(١) كلف بالتشديد من التكليف، وهو هنا مبني للمجهول لأنه يتعدى بنفسه إلى مفعولين وعلماء الأصول والفقه يعدونه إلى الثاني بالباء.

وحكماؤهم عن انتياشهم (إنتشالهم) من مهاوي التهلكة، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد، إلى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال.

حتى إذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين - كان هو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وبين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة، والعقل، والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والإستقلال، وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله، وإنما رسل الله هداة مرشدون، مبشرون ومنذرون، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا. ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول:

(١) الإسلام دين الفطرة:

قال الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم].

الحنيف صفة من الحنف -بالتحريك- وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الضلالة إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، ويقابله الزيغ، وهو الميل عن الحق إلى الباطل إلخ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الإنسانية[1] الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية، والروحانية الملَكية، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما، وما أودع فيها (أي الجبلة) من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق قوى الكون والسنن والأسباب التي قام بها نظام كل شيء في العالم، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والأرض وما فيهما،

(١) قال في المصباح المنير: الجبلة -بكسرتين وتثقيل اللاّم- والطبيعة والخليقة والغريزة بمعنى واحد، وجبله الله على كذا فطره عليه، وشيء جبلي: منسوب إلى الجبلة، كما يقال: طبيعي أي ذاتي منفعل عن تدبير الجبلة في البدن بصنع بارئها ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس].

والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري وطلب العرفان الغيبي المودعين في الغريزة.

فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني، إلى هذا الرب الغيبي، في كل ما يعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه، ويعجز عنه بكسبه، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته، والوصول إليه مما لا نهاية له. وأعني بالإنسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره، ويعد مساعدة غيره له عليه من جنس كسبه، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر. فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه، وخضوع الضعيف للقوى لاستنجاده واستعدائه على أعدائه، وخنوع السوقة[1] للملك أو الأمير لخوفه منه أو رجائه - لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل، وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية، التي هي فوق ما يعرفه الإنسان ويعقله في عالم الأسباب، ولا سيما الدعاء عند العجز وفي الشدائد، قال ﷺ «الدعاء هو العبادة[2]» هكذا بصيغة الحصر، أي هو الركن المعنوي الأعظم فيها لأنه روحها المفسر برواية «الدعاء مخ العبادة»[3] وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان الغيبي فهو عبادة له[4].

هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر، لا ما زعمه بعض الكتاب المعاصرين من أن دين الفطرة في الآية الكريمة أن يعمل الإنسان متبعاً شعوره وأفكاره ووجدانه بمقتضى طبيعته دون تلقي شيء من غيره. فهذ جهل، لا يقره دين ولا عقل، وفوضى لا يستقيم معها أمر. فإن الإنسان يجني على فطرته وغرائزها وقواها

---

(١) السوقة بالضم (كغرفة) غير الملك، يطلق على الواحد والمثنى والجمع.

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه الترمذي عن أنس.

(٤) هذا تحقيق لمعنى العبادة أو حد لها وكل ما قيل غيره في تعريفها فهو رسم.

بجهله وسوء اجتهاده. فشعوره الفطري الذي بيناه هو الذي ولد له العقائد الوثنية بعبادته كل ذي تأثير لا يعرف له سبباً، لحسبانه أنه هو صاحب السلطان الغيبي القادر على نفعه وضره. ومن ثم كان محتاجاً إلى تكميل فطرته بالوحي الإلهي.

وعلى هذا الأصل بُني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله إلى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل، ولا يقبل البشر هذا الدين التعليمي بالإذعان والوازع النفسي إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيداً في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى، والتصرف المطلق في جميع العالم، الذي تخضع له الأسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها، سواء كان له هذا التصرف لذاته وهو رب العالمين، أو كانت له بولايته له تعالى ونيابته عنه. وقد شرحنا هذه الحقيقة آنفاً مختصراً مما بيناه في مواضع من التفسير والمنار في معنى كون الإسلام دين الفطرة، وأنه شُرع لتكميل استعداد البشر للرقي في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها.

فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه فهو لنوع الإنسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الأستاذ الإمام.

قد كان دين الله الذي بعث به جميع رسله لجميع الأمم مصلحاً لما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم، ثم بتقليد بعضهم لبعض، على أنهم كانوا إذا طال الأمد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن أتم الله الدين وأكمله للبشر، كما تقدم بيانه في المقصدين الأول والثاني من مقاصد القرآن. وفي حديث الصحيحين «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» يعني أنهما يفسدان فطرته الاستعدادية بتلقينه ديناً محرفاً منسوخاً بدلاً من إكمالها.

وكان من فضل الله على عباده بعد إكمال دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنسيان، والزيادة والنقصان، فقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحِجر]، وعصم أمة خاتم النبيين أن تضل كلها عنه، كما ضلت

الأمم قبلهم، فإن كان ﷺ قد أخبر بما أطلعه الله عليه من مستقبلها أنهم سيتبعون سنن من قبلهم من اليهود والنصارى (كما تقدم) فقد أخبر أيضاً بأنه لا بد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة الله على خلقه، فقال ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»، رواه أحمد والبخاري ومسلم عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه، وفي رواية لهم عن معاوية رضي الله عنه «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون للناس»، ورواه مسلم والترمذي وابن ماجة عن ثوبان بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك إلى قيام الساعة[1]»، وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعاً «لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»، وروى آخرون من طرق ضعيفة يقوي بعضها بعضاً أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ولله الحمد.

(٢) الإسلام دين العقل والفكر:

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب والنهى، لا لأن هذه المادة لم تذكر في كتب العهدين مطلقاً، بل لأنها لم ترد فيها أساساً لفهم الدين ودلائله والاعتبار به، ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه، وقائم به وعليه، وكذلك أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل.

أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة. وأما ذكر أولي الألباب أي العقول ففي بضع عشرة مرة، وأما كلمة أولي النهى (جمع نُهية بالضم كغرفة) أي العقول، فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه.

---

(١) زدنا في هذه الطبعة (الثالثة) رواية معاوية وحديث ثوبان رضي الله عنهما لأنهما أصح وأبسط من حديث عمر وأبي هريرة في الموضوع.

أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته، كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة]، ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه، كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]، وكرر قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أكثر من عشر مرار، كأمره لرسوله ﷺ أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾؟[يونس]، وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة المُلك ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك]، وما في معناه قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، ووقوله في سورة الحج ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦] الآية.

كذلك آيات النظر العقلي والتفكر كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وأن الغافلين عن الدين يعيشون كالأنعام، لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الأنفس ولا تثقف العقول، ولا تصعد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال، ومنها قوله تعالى ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦]، وقوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم:٨]، وقوله في صفات العقلاء أولي الألباب ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟ [الأنعام].

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عقلان في الأرض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه.

كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر، حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تَعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رءوسهم فحرَّموها على أنفسهم، إلا قليل منهم، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم، وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم فيها وفي ثمراتها، ونقل شيخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم في كتاب الإسلام والنصرانية.

(٣) الإسلام دين العلم والحكمة والفقه:

ذُكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم تناهز المئة، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها، فمن العلم المطلق: قوله تعالى في وصايا سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]، أي لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية، أو بالرويات السمعية، أو بالبراهين القطعية، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث.

قال الراغب في تفسير ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تحكم بالقيافة والظن. وقال البيضاوي ما ملخصه: ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب. اهـ. ومنه قوله تعالى في العلم المأثور في التاريخ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ

﴿عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف]، ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم] إلخ، وقوله في العلم الروحي ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وهاتان الآيتان في بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوي منه لا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علماً بمضمونهما، وبأن علمهم لا يتجاوز الظواهر، وقد صرح بعض فحول علماء الغرب بأنهم كلما ازدادوا علماً علموا من حاجتهم إلى تحقيق ما سبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون، كما قال الإمام الشافعي:

كلـــــما أدبنــــــي الدهـــــــــر أراني نقـــــــــص عقـــــــــلي

وإذا مـــــــا ازددت علـــــــماً زادني علـــــــماً بجهـــــــلي

وقوله تعالى في العلم العقلي ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾﴾ [الحج]، الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير، وهو هدى الدين والوحي. وقوله في العلم الطبيعي ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] بكسر اللام، أي علماء الكون. ومثل قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] الآية، فالمراد هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحِكَمه فيها، وهو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها، وفي معناها آيات في سورٍ أخرى.

عظَّم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تعلوه عظمة أخرى، بقوله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران:١٨]، فبدأ عز وجل

بنفسه، وثنى بملائكته، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومَن دونهم من أهل الدرجات في قوله ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ما ورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٣٦]، ومثله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم]، وقوله في قول النصارى بصلب المسيح ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء:١٥٧].

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم البرهاني أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه، وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر، فقال ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال في بر الوالدين الكافرين ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت:٨]، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان، لأنه ضروري البطلان، وترى تفصيل هذا فيما بعده من تنظيم أمر الحجة والدليل، وما يليه من ذم التقليد.

الحكمة والفقه

وأما الحكمة فقد قال الله تعالى في تعظيم شأنها المطلق ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى في بيان مراده من بعثه محمد خاتم النبيين ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران. وقال

لرسوله ممتناً عليه ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، وقال له ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال له في خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهي عن كبار الرذائل، مع بيان عللها وما لها من العواقب ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٩]، وقال لنسائه رضي الله عنهن ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤].

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة ولكن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية، ونسخها بولس من النصرانية بنص صحيح. قال الله تعالى في اليهود ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]، فالكتاب أعلى ما يؤتيه تعالى لعباده من نعمه، ويليه الحكمة ويليها الملك. وقال في نبيه داود عليه السلام ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾[البقرة:٢٥١]، وقال لنبيه عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة:١١٠]، وقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان:١٢]، وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها.

فالحكمة أخص من العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق وسنن الاجتماع، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الإسراء التي نقلناه آنفاً ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[الإسراء:٣٩].

ويكثر في القرآن ذكر الفقه، وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالِم حكيماً عاملاً مثقفاً، فراجع منها في سورة الأنعام (٦: ٢٥ و ٣٥ و ٩٨) وفي سورة الأعراف (٧ : ١٧٨) وفي سورة الأنفال (٨ : ٦٥) وفي سورة التوبة (٩ : ٨١ و ٨٧ و ١٢٢) وحسبك ما في هذه السور الأربع تعريفاً بالفقه، وأنه هو الحكمة لا علم

ظواهر الأحكام من الطهارة والبيع والإجارة إلخ، فإن تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية. ومنه ما هو ضد فقه القرآن، كالحيل التي تُعلم الناس التفصي من حكمة القرآن.

(٤) الإسلام دين الحجة والبرهان:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، وقال ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون]، قَيَّد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به، مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك، تعظيماً لشأن البرهان، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه، كما قال ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص].

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء:٢٤] الآية. ومثله في سورة النمل ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

وقال في سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾؟ [الأنعام]، ثم قال في آخره ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام]. فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي في

العلم، ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه.

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٣٥] الآية، وفي معناها من هذه السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[غافر:٥٦] الآية، وفي عدة سور أخرى أنه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

(٥) الإسلام دين القلب والوجدان والضمير:

قال الفيومي في المصباح: ضمير الإنسان قلبه وباطنه، والجمع ضمائر، وقال والقلب من الفؤاد معروف - يعني أنه ضميره ووجدانه الباطن، (قال) ويطلق على العقل. اهـ. وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الأعراف[١] وقد ذُكر القلب في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية.

منها قوله تعالى في سورة ق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾، وقوله في سورة الشعراء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، ومنها مدحه لخليله إبراهيم ﷺ بقوله ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[الصافات]، وقوله حكاية عنه ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة:٢٦٠]، وقوله في صفة المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد]، وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾[الحديد:٢٧] إلخ[٢].

---

(١) راجع ص ٤١٩ من جزء التفسير التاسع.

(٢) الاطمئنان ما يعبر عنه براحة الضمير في الاعتقاد الثابت بالأدلة النظرية بحيث يكون وجداناً، أو كالوجدان في انشراح الصدر له، وعدم احتمال غيره.

ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب، وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ، وعبر عن فقدها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها، أي إنها كالمختوم المطبوع عليه، فلا يدخله شيء جديد، أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين، وهو الصدأ أو الدنس، فلا تقبل الصقل والجلاء.

وإذا كان الإسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، فقد أبطل ما كان عليه النصارى وغيرهم من الإكراه في الدين والإجبار عليه، والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بيناها في محلها، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليله أهله.

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود :

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واليقين فيه، واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان، والمطالبة بالبرهان، وذم اتباع الظن والخرص فيما يطلب فيه العلم والإيمان - يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة، كقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾؟ [المائدة]، ذمهم من ناحيتين: (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقي في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الإنسان الحي العاقل، فإن الحياة تقتضي النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد. (والثانية) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء في العمل، ويؤيده قوله ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾؟ [الأعراف]، وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ

﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزُّخرُف]، وتراجع الشواهد على هذا في قصة إبراهيم مع قومه في سورة الأنبياء والشعراء والصافات.

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى والاطمئنان في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب، التي امتاز بها البشر، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجاً، ثم نكس المسلمون على رءوسهم إلا قليلاً منهم، وإتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم، التي وكل الله دعوتها إليهم، وصاروا حجة على دينهم، فكيف يدعون إليه وحجته القرآن، وهم يحرِّمون الاهتداء به، حتى أن أدعياء العلم الرسمي[1] فيهم ينكرون أشد الإنكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله، وهدى رسوله، وسيرة السلف الصالح من أهله، ونحن معهم في بلاء وعناء، نقاسي منهم ما شاء الجهل والجمود من استهزاء، وطعن وبذاء، وتهكم بلقب (المجتهد) الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء.

ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم فيه أفواجاً حتى يعم الدنيا، لأن التعليم العصري في جميع مدارس الأرض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم، واتباع الدليل في جميع بلاد الإفرنج والبلاد المقلدة لهم، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع

---

(١) المراد بالعلم الرسمي الذي يعتمد مدعيه في انتحاله على الشهادة الرسمية من المدرسة التي تعلم فيها، دينية كالأزهر، أو مدنية، وكم من حامل شهادة بالعلم وهو جاهل.

الأديان تقليدية، ويعتدونها نُظماً أدبية، واجتماعية للأمم، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام في صورته التي خصه بها القرآن، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين، والسلف الصالحين، رضوان الله عليهم أجمعين.

بيد أن محافظة الإفرنج على نظام النصرانية بدون إيمان إذعاني سيزول، فقد كثرت الجمعيات الدينية والعلمية التي تصرح بإنكار ألوهية المسيح وأكثر تقاليد الكنائس، كما تقدم تفصيل ذلك[1].

دحض شبهة وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين أن دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمهما التي اشتهر المنار بها في عصرنا، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى أتباعهم بما هو ابتداع جديد، واستبدال للفوضى بالتقليد، وهو وهم سببه الجهل بالدين وبالتاريخ، فمذاهب الابتداع والإلحاد قديمة، قد نجمعت قرونها في خير القرون، وعهد أكبر الأئمة، وكان أشدها إفساداً للدين الدعوة إلى اتباع الأئمة المعصومين الذين لا يُسئلون عن الدليل، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين، بعد محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ، ولكن المقلدين لهؤلاء المحرِّمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم، حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم، بل بأقوال كل من ينتمي إليهم من أدعياء العلم على اعتقادهم وإقرارهم بأنهم غير معصومين.

---

(١) لا تزال تشتد دعوة الشعب الألماني بتأييد حكومته النازية إلى ترك النصرانية وتفضيل الوثنية الآرية عليها.

وإنما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل، ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة، ولانعني بالاهتداء بالكتاب والسنة أن كل منهم إمام مجتهد مطلق كمالك والشافعي رضي الله عنهما فهذه أعلى درجة في العلم، والعلم درجات، كما قال الله عز وجل، وقد كان يوجد في السلف قبل تدوين المذاهب عوام وخواص كلهم يهتدون بهما.

وصاحب المنار قد وقف نفسه على الرد على جميع الملاحدة والبهائية والقاديانية والقبوريين، وسائر مبتدعة عصرنا، وهو لم يَدَّعِ مذهباً له يدعو إليه، ولم يخالف إجماع الأمة، ولا فَرْقَ عنده بين الأئمة، ولله الحمد والمنة.

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الإكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة:

هذه المزية من مزايا الإسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الإكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس]. علَّم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه، فيؤمن بعض ويكفر بعض، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر[1].

---

(١) راجع تفسير هذه الآيات من آخر سورة يونس في آخر (ج ١١) من تفسير المنار.

ثم قوله تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾[البقرة:٢٦٥] الآية، فأمرهم ﷺ أن يخيروهم، فمن اختار اليهودية أُجلي مع اليهود ولا يكره على الإسلام، ومن اختار الإسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية من جزء التفسير الثالث.

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الأول لشرعية القتال في الإسلام، وسيأتي بيانه في المقصد الثامن من هذا الكتاب.

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى، ففيها آيات مبينة في القرآن، وأحاديث صريحة في السنة، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم الصلاة والسلام، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[الغاشية].

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان

وحدة الأمة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع بالمساواة في العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة.

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون في الأنساب والألوان، واللغات والأوطان والأديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات والسياسات: يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر، فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول

الكتاب الإلهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الإنسانية، لا يمكن بسطها إلا بمصنف كبير فنكتفي في هذا المقصد من إثبات الوحي المحمدي بسرد الأصول الجامعة في هذا الإصلاح الإنساني الداعي إلى جعل الناس على ملة واحدة، ودين واحد، وشرع واحد، وحكم واحد، ولسان واحد، كما أن جنسهم واحد، وربهم واحد. ونبدأ بالأصل الجامع في هذا، ونقفي عليه بالأصول والشواهد المفصلة له:

الأصل الأول للجامعة الإسلامية الإنسانية: وحدة الأمة

قال الله تعالى في سورة الأنبياء مخاطباً أمة الإسلام بعد ذكر خلاصة من قصصهم ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾[1].

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾، ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس، وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم، فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم وبمن بينهما، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً إلى أن كَمُل الدين كما تقدم.

الأصل الثاني: وحدة الجنس البشري

الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، وشاهده العام قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٣]، وقد بلَّغ النبي ﷺ ذلك في حجة الوداع، فتلا الآية وقال ما خلاصته «إنه ليس لعربي على عجمي ولا لأبيض على

---

(١) قرأ الجمهور ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ بالرفع على أنها خبر، و﴿أُمَّةٗ﴾ بالنصب على أنها حال لازمة، و﴿وَٰحِدَةٗ﴾ صفة لأمة.

أسود فضل -ولا العكس- إلا يالتقوى» من حديث العدَّاء بن خالد في المعجم الكبير للطبراني. وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف، وإلى ترك التعادي بالتخالف[1].

الأصل الثالث: وحدة الدين

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر، وشاهده الأعم قوله تعالى ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[البقرة:٢٦٥].

الأصل الرابع: وحدة التشريع بالمساواة في العدل

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبَر والفاجر، والملك والسوقة، والغني والفقير، والقوي والضعيف، وسنذكر بعض شواهده في إصلاح التشريع من المقصد السادس.

الأصل الخامس: وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد

الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في أخوته الروحية: عباداته، وفي الاجتماعي للاجتماعي منها، كالصلاة ومناسك الحج[2]، فملوك المسلمون وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج، ولا تجد شعوب الإفرنج

---

(١) من شواهد القرآن في الوعيد على التفرقة بين الناس باختلاف أنسابهم قوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[القصص].

(٢) وكذا الصيام والمساواة فيه أظهر، وإن كان هو تركاً للشهوات لا فعلاً يُرى بالأبصار، ولكنه فعل نفسي يُرى أثره ولا يَخفى على أحد أمره.

المنتسبين إلى النصرانية ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم، قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠]، وقال في أحكام المشركين المحاربين ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

الأصل السادس: وحدة الجنسية السياسية الدولية

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامي متساوية في الحقوق العامة، كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة في جزيرة العرب ولا سيما الحجاز، فإنه خاص بالمسلمين، لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد. وحكم الإسلام في معابد الملل الداخلة في ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم، المسلمون وغيرهم في هذا سواء.

الأصل السابع: وحدة القضاء

وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية، فإن الإسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك. فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم، وهذا ضرب من المساواة ليس له في غير الإسلام ضريب لأنه إشراك في الحكم والتشريع، وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم، والأصل فيه قوله تعالى ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، وقوله بعد آيات ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [٤٩].

الأصل الثامن: وحدة اللغة

وحدة اللغة، ووجهها: أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة[1]. وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة، يتعاونون بها على التعاون والتآلف، ومناهج التعليم والأدب، والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية، وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما، والاتحاد بأخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتاباً عربياً، وحكماً عربياً، وكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه، والاتعاظ والتأدب به، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية، كما هي عادة البشر في ذلك وكذلك كان الأمر في الفتوحات الإسلامية العربية كلها.

وقد فصلتُ في المنار والتفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية في دين الإسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين، كما قرره الإمام الشافعي رضي الله عنه في رسالته، وهو الذي جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين، إلى أن كثر الأعاجم، وقل العلم، وغلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله في العبادات من القرآن والأذكار[2].

الشواهد من السنة على وحدة الجنس واللغة:

كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد، كما شبههم بقوله «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

---

(١) المراد أنه لا يمكن هذا مع حرية الدين التي قررها الإسلام إلا باللغة.

(٢) راجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع.

والحمى» رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة. أما الأول فمشهور: ومنه أن أبا ذر رضي الله عنه وهو من السابقين الأولين المتقين تغاضب مع بلال الحبشي مولى أبي بكر رضي الله عنهم وتسابا، فقال له أبو ذر: يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي ﷺ فقال لأبي ذر «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخاري في مواضع ومسلم بدون ذكر اسم بلال، ولفظ البخاري في كتاب الأدب عن أبي ذر «كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرني إلى النبي ﷺ فقال لي: أساببت فلاناً؟ قلت: نعم، قال: أفنلت من أمه؟ قلت: نعم، قال: إنك امرؤ فيك جاهلية. قلت: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم هم إخوانكم» إلخ الحديث. وسيأتي في الوصية بالرقيق، وروي أن أبا ذر تاب توبة نصوحاً حتى أمر بلالاً أن يطأ على وجهه.

وأما الثاني فيجمعه مع الأول ما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال «جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هذا؟ (يعني-هذا المنافق- بالرجل النبي ﷺ وأن الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لأنهم من قومه، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره؟) فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه فأخذ بتلبيبه[1]، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة[2]، وقال ﷺ «يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي» فقام معاذ فقال: فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل».

---

(١) اللبب بفتحتين: موضع النحر، وتلبيبه: ما على لبه ونحره من الثياب، أي قبض عليها وجذبه بها.
(٢) هذه الجملة يُدعى بها إلى صلاة العيدين وكل اجتماع عام في المسجد بلفظ «الصلاة جامعة» ولفظ الصلاة فيها منصوب بتقدير احضروا الصلاة أو الزموها.

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الأخوة الإسلامية أكانت حدثت فيهم تلك الشعوبية المجوسية الأولى، وهذه العصبية التركية الأخرى؟ كلا إنهم لو حافظوا عليها لعمموا أخوتها، ولأصلحوا بها شعوب الأرض كلها.

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويُرد عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر إن أريد بالبشر جميع أفرادهم، وأن الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة، مع علمهم أن ترقي بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة والعصبية يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وأن القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر، قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الإنسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود]، وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم: هذا الخلاف الذي جعل أعظم شعوب الأرض، وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحرب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار.

فإذا كان مقتضى طبع البشر أن لا يتفقوا كلهم على شيء واحد من لغة ولا دين ولا غيرهما من الأمور التي تختلف فيها الآراء فهذا لا يمنع دعوتهم كلهم إلى الحق والخير، ولا بد أن يستجيب خيارهم على قاعدة غلب الحق على الباطل.

وقد إستشكل هذا بعض العلماء من حيث المخاطب بتنفيذه، فقلت لهم: إن المخاطب بتعميم لغة الإسلام، هم أولو الأمر المخاطبون بتعميم دعوة الإسلام، وإقامة شرع الإسلام، وقد جرى ذلك على الصحابة والخلفاء من بعدهم كما تقدم.

دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الأمم، فكانوا يدخلون فيه أفواجاً، حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى أقصى الهند أو الصين، ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الأمم، فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه، بل علَّمنا القرآن أن هذا سنة عامة في الاجتماع البشري بل في كل تنازع بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح والفاسد، إنما يكون الغلب للأفضل، والثبات والبقاء للأمثل، فراجع الآيات في دمغ الحق للباطل ثم اعتبر فيه بهذا المثل الماثل ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد].

قال أحد كبار علماء الألمان في الآستانة لبعض المسلمين، وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين). قيل له: لماذا؟ قال: لأنه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله، وإذن لكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوربة عرباً مسلمين.

قد أعجبت هذا الألماني عصبيته القومية، وخيلاؤه الأوربية التي عتلت قومه وجيرانهم إلى جحيم الحرب الأخيرة عتلاً[1]، فأخسرت أوربة عشرين مليوناً من الرجال، وألوف الملايين من الأموال، وباء فيها قومه بالخزي والنكال وسيطرة الاستذلال، وإنما كان كره أن يكونوا قد اهتدوا بالإسلام، بما صرفت بصره عصبيته الألمانية، عن رؤية المصلحة الإنسانية الجامعة، ولو نظر فيها فأبصرها لعلم أن الأفضل والأمثل والأكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم أفرادهم

---

(١) عتله إلى الشيء أو المكان جره بقهر ودفعه إليه بعنف.

وأعمالهم، لا بأنسابهم وأوطانهم ولغاتهم المفرقة بينهم، وهو قد علم من قبل أن هذه الجامعة الإنسانية لا سبيل إليها إلا بهداية الإسلام فلا تُنال إلا به، ولو اهتدت به أوربة اليوم لزالت أضغانها ووجهت علومها وفنونها إلى إسعاد البشر وعمارة الأرض كلها. فإن إصرار الإفرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء واحتقارهم للسود والحمر والسمر والصفر، وهضمهم لحقوقهم، واسباحتهم لظلمهم، لمن أكبر العار على حضارتهم، وان استثناءهم للأصفر الياباني أخيراً من هذا الاحتقار، لما يلطخهم بعار فوق عار. وإن حضارة الإسلام الإنسانية الجامعة لتعلو عليها ألوفاً من الأميال لا الأمتار.

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الأصول التي توحد الأمم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي لا بالقهر العسكري من رأي أو إلهام نبع من نفس محمد الأمي في سن الكهولة ففاق بها جميع الأنبياء والحكماء؟ أم الأقرب إلى العقل أن تكون بوحي من الله تعالى أفاضه عليه ﷺ[1].

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات

ونلخص أهمها بالإجمال في عشر جمل أو قواعد

(الأولى) كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة. وهو نص قوله تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣]، وقد تقدم ذكره وبيان معنى الشهادة على الناس فيها قريباً، وبَيَّنا في تفسيرها في أول الجزء الثاني من تفسير المنار أن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع

(١) قولنا إن هذا أقرب إلى العقل مفهومه أن مقابله وهو أنه من رأي محمد ﷺ ممكن أيضاً، وإن فاق به جميع الأنبياء والحكماء، وهو من باب التساهل وإرخاء العنان. ولا يمكن أن يقال مثله في كل مقصد من هذه المقاصد العشرة، فما بالك بها كلها، هل يعقل أن تكون آراء حدثت لأمي في سن الكهولة، فقررها ونفذها؟ كلا.

المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد، كالهندوس والنصارى، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم.

(الثانية) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه أيضاً.

(الثالثة) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان، وتقدمت شواهده في كونه عاماً مكملاً ومتمماً لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن، وعموم بعثة محمد ﷺ، وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني، وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بيناها آنفاً في المقصد الرابع.

(الرابعة) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، وقال بلغت حكمته ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٠]، وقال عظمت رأفته ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقال جلت منته ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقال عمت رحمته ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة:٦].

ومن فروع هذا الأصل أن الواجب الذي يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقاً، كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم - الأول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي بل يكفر عن فطره بإطعام مسكين فدية عن كل يوم إذا قدر. وأما المُحَرَّم فيباح

للضرورة بنص القرآن، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد، فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام، وآية محرمات الطعام [1].

(الخامسة) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء. وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]، وهو في (١٥ : ١٧) و (٦ : ٧٧)، وفي هذا النهي اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر. والأحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات، وعن الرهبانية والخصاء، مبينة لهذه الآيات، وهي مصداق تسمية النبي ﷺ لملته بالحنيفية السمحة.

(السادسة) قلة تكاليفه وسهولة فهمها، وقد كان الأعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم، فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول «أفلح الأعرابي إن صدق» وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً، والعمل بها كلها متعذراً، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة فإن أقل ما تجزيء به كل صلاة منها يمكن أن يؤدى في خمس دقائق، ومنها صلاة وقتها عقب القيام من النوم في الصباح وصلاة قبل النوم في الليل، فهل يشق على المرء أن يؤدي في سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة في ربع ساعة منه؟

---

(١) قد بينا يسر الإسلام وسهولته في مواضع من المنار وتفسيره، أوسعها في تفسير «٥ : ١٠٤» وقد جمع في رسالة مستقلة.

فإن قيل: إنه يشترط فيها الطهارة، قلنا:إن طهارة البدن والثياب مطلوبة شرعاً وطباً في كل وقت، فهي تكون قبل الصلاة فلا تضيع على المسلم وقتاً ولا عملاً في أثناء النهار إلا نادراً، وكذلك الغُسل الواجب قلما يجب إلا في الليل أو الصباح، وأما الوضوء فلا يشق منه إلا غَسل الرجلين على الذين يلبسون الجوارب والأحذية العصرية، ومن لبسها على طهارة يجوز له المسح عليها بدلاً من الغسل. وأما فوائد هذه الصلاة وهذه الطهارة في النفس والبدن، فهي لا تقدر بثمن، فالصلاة تطهير للنفس وتزكية لها بمناجاة المؤمن لربه فتصده عن الفحشاء والمنكر[1].

(السابعة) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم، والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال فهو يوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر].

(الثامنة) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام، وغير القطعي تتفاوت فيه الأفهام فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده، ولذلك كان النبي ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده، كما فعل عندما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية، فتركهما بعضهم دون بعض، وأقر كلاً على إجتهاده إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي، قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد، والأول مذهب الحنفية، وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف

---

(١) أي كما يُطهر الوضوء والغُسل البدن، وبهما تكمل تربية الإنسان وسنبين ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني.

أيضاً، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة، فهي موكولة إلى اجتهاد من ثبتت عنده في العبادات والأعمال الشخصية، وإلى اجتهاد أولي الأمر في الأحكام القضائية والأمور السياسية، وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار.

(التاسعة) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى، فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر في قلبه، وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم، وقد فصلنا هذا في أحكام المنافقين من خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة.

(العاشرة) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر، فليس لأحد فيها رأي شخصي ولا رياسة، ومدارها في الباطن على الإخلاص لله تعالى وصحة النية، والآيات والأحاديث في الأمرين كثيرة.

كل واحدة من هذه العشر: جديرة بأن تُجعل مقصداً خاصاً من مقاصد الوحي ويستدل بها على أنه من عند الله عز وجل، لا من الآراء والإلهامات النفسية لمحمد ﷺ الأمي في عهد الكهولة، وقد جاءت مصلحة لما أفسده رؤساء الأديان كلها من السيطرة على عقائد الناس وأعمالهم، والتحكم في وجدانهم وهو لم يكن يعلم من تفصيل هذه المفاسد شيئاً، وإنما غرضنا الاختصار، لأن أهل هذا العصر مترفون كثيرو الشواغل فيملون التطويل.

المقصد السادس من مقاصد القرآن

بيان حكم الإسلام السياسي الدولي، نوعه وأساسه وأصوله العامة

الإسلام دين هداية وسيادة وحكم، لأن ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية، يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل، وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد.

الحكم في الإسلام للأمة، وشكله شوري، ورئيسه الإمام أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والأمة هي التي تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى في صفات المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، وقال لرسوله ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى، وقد بينتُ في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الأمة لأنها مصلحة تختلف باختلاف الأحوال والأزمنة، ولو قيدت بنظام لجُعل تعبدياً[١].

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء]، وأولو الأمر أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، فأولو الأمر الذين كانوا مع الرسول وكان الأمر يرد إليه وإليهم في الشئون العامة للأمة من الأمن والخوف وغيرهما، هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الأمور الدقيقة والسرية المهمة. وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة، ويعمل برأي الأكثر وإن خالف رأيه، كاستشارتهم في غزوة أُحد في أحد الأمرين: الحصار في المدينة أو الخروج إلى أُحد للقاء المشركين فيه، وكان رأيه ورأي بعض كبار الأمة الأول، ورأي الجمهور الثاني، فنفذ رأي الأكثر، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الأمر، وعمل برأي أبي بكر كما فصلناه في تفسير سورة الأنفال، ولم تكن آية الأمر له بالمشاورة قد نزلت فهي إنما نزلت في غزوة أحد (وكانت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وغزوة أحد في الرابعة).

---

(١) راجع ص ٩٩ ج ٤ تفسير.

وقد بينت في تفسير الآية الأولى (٥ : ٥٩) ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر[1].

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الأمة المعبر عنها في الحديث بالجماعة: أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة، وفي سائر الأحكام العامة كقوله ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة]، وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح، وما في معناها من سورة الأنفال والبقرة وآل عمران، ومثل قوله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحُجُرات].

وكذلك خطابه لهم في أحكام الأموال، كالغنائم وتخميسها وقسمتها، وأحكام النساء وغيرها. وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير.

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة في الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين يُنصِّبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم. قال الإمام الرازي في تعريف الخلافة: هي رياسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الأشخاص. وقال في القيد الأخير -الذي زاده على من قبله- هو احتراز عن كل الأمة إذا عزلوا الإمام لفسقه. وقال العلامة السعد التفتازاني في شرح المقاصد، عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الأخير، وكأنه أراد بكل الأمة أهل الحل والعقد، واعتبر رياستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الأمة. اهـ. وقد فصلنا مسألة سلطة الأمة في كتابنا «الخلافة أو الإمامة العظمى».

(١) راجع ص ١٨٠ - ٢٢٢ ج ٥ تفسير، وكتاب الخلافة.

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها القرآن في عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها، وكان أول منفذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الأمة ليكون قدوة لمن بعده.

ثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون: فقال الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته «أما بعد، فقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني». وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه «من رأى منكم فيَّ عوجاً فليقومه. فقال له أعرابي: لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا، فقال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه»، وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ. وقال الثالث عثمان رضي الله عنه «أمري لأمركم تبع». وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه، ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر.

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية، فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى، وامتاز الإسلام بجعله ديناً ثابتاً بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة، وإن جَهِل ذلك من جهله من الفقهاء، فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة، لإرضاء الملوك والأمراء.

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرسوم المنافقون، وخطباء الفتنة الجاهلون، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم، وكان من حسن حظ الإفرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفي في حكمه أثر

الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه - وهو صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده، وقد استعداه على رجل غشه «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين؟ قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوطٌ للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك» ومعنى عبارة السلطان: أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة- وأن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه، ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التي جاء بها الإسلام وصاروا يدَّعونها لأنفسهم، ويعيبون الحكومات الإسلامية باستبدادها، ثم بجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون الجاهلون بدينهم وبتاريخهم يصدقونهم، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية، وذهاب أكثر ملكه، وصدق عليهم أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، وهم يعدون مئات الملايين، فتدبر قوله تعالى في أعدائهم الأولين ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر].

أصول التشريع في الإسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الأساسية أربعة:

(١) القرآن المجيد. والمشهور عند علماء الأصول: أن آيات الأحكام العملية فيه، من دينية وقضائية وسياسية، لا تبلغ عُشر آياته، وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر: أنهم يعنون الصريح منها، وأكثرها في الأمور الدينية، لأن أكثر أمور الدنيا موكول إلى عرف الناس واجتهادهم.

(٢) ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان وتنفيذ لكتاب الله تعالى. وقالوا أيضاً إن أحاديث الأحكام الأصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر.

(٣) إجماع الأمة. واتفق أهل السنة على الاحتجاج بإجماع الصحابة في الدينيات، والشيعة على إجماع أهل البيت في عرفهم، وفي إجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل.

(٤) اجتهاد الأئمة والأمراء والقضاة والقواد في الأمور القضائية والسياسية، والإدارية والحربية، فخصه بعض الفقهاء بالقياس، وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون، كما فصلنا ذلك في مواضع، أبسطها ما في تفسير آية (٥ : ١٠١).

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين: (منها) حديث معاذ «أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي، لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري، ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ» رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو، وفيه مقال وله شواهد.

وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عند الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله، وبه أمر عمر رضي الله عنه قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء، ولكن الفقهاء يقدمون الإجماع، حتى العرفي عند علماء الأصول -وهو مختلف فيه- على النص المختلف في حكمه.

والأصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد» رواه الجماعة كلهم عن أبي هريرة إلا الترمذي فعن عمرو بن العاص.

بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة من حديث بريدة. وقال مثل ذلك في إنزالهم على ذمة الأمير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفرها، وهذا من أوسع النصوص الصحيحة في تفويض الأحكام السياسية والعسكرية إلى الخلفاء والأمراء وقواد الجيوش، لأنها من المصالح العامة التي تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، وهو مذهب الإمام مالك رحمه الله.

قواعد الاجتهاد من النصوص

أحكام الكتاب والسنة: منها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع، ومنها قواعد عامة للتشريع. والأحكام الخاصة، منها: ما هو قطعي الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي، من فوات شرط، كدرء حد بشبهة، أو عذر ضرورة. وقد أمر عمر رضي الله عنه في المجاعة ألا يُحد سارق. ومنها: ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش، كما تقدم قريباً في العبادات والمحرمات.

وأما القواعد العامة، فهي ما تجب مراعاته في الأحكام المختلفة، وأهمها في الإسلام تحري الحق والعدل المطلق العام، والمساواة في الحقوق والشهادات والأحكام، وحفظ المصالح، ودرء المفاسد، ومراعاة العرف بشرطه، ودرء الحدود بالشبهات، وكون الضرورات تبيح المحظورات، وتقدير الضرورة بقدرها، ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، وحسبك بالشواهد من القرآن على قاعدة: إيجاب العدل المطلق والشهادة وتحريم الظلم.

العدل والمساواة في الإسلام

نصوص القرآن في إيجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم

لما كان العدل أساس الأحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم، أكد الله تعالى الأمر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية. قال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: ٩٠]، وقال ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[النساء: ٥٨]، وقال ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ [1] وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[النساء].

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل، فإن القوَّام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالأمر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل، لا لهوىً ولا مصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والأقربين منهم، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً إليه أو تكريماً له، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة لأجل كراهة العدل فيهما لمراعاة من ذكر من الناس، وأنذرهم عقابه إن لووا، أي مالوا عن الحق أو أعرضوا عنه.

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المائدة]، فهذه الآية متممة لما قبلها، فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها، وبين القريب والبعيد، وبين الغني

---

(١) ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ بفتح ﴿أَن﴾ لتقدير لام التعليل وهو قياسي، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا – أو لئلا تعدلوا، واختلف النحاة في تقدير الإعراب، واتفقوا على أن المراد ألا يكون الهوى سبباً لترك العدل، ويؤكده الآية الثانية.

والفقير، وههنا يأمر بالمساواة فيهما بين الإنسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم، لا فرق فيها بين ديني ودنيوي، فالشنآن البُغض والعداوة، وقيل مع الاحتقار، فمعنى قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم، فالعدل بالمساواة أقرب إلى تقوى الله. وأنذر تارك العدل لأجل الشنآن بمثل ما أنذر به تاركه للمحاباة، أنذر كلاً منهما بأن الله خبير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه، فيثيبه أو يعاقبه على ما يعلم من أمره.

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى:١٧]، وقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥] الآية، فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية الكتاب، وهو القرآن، ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان، وشرهم من لا علاج له إلا حديد السيف والسنان، والمراد به العقاب.

فقوام صلاح العالم بالإيمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد، فيجتنبها المؤمن خوفاً من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ورجاء في ثوابه فيهما، وبالعدل في الأحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان، وبالحديد، والمراد به القوة التي تصد الثورات والفتن وتحفظ الأمن.

حظر الظلم في الإسلام

الشواهد على حظر الظلم ومفاسده وعقابه

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ما ورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه، فقد ذُكر الظلم في مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر، وقُرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة، وبأن الجزاء عليه فيها أثر لازم له لزوم المعلول للعلة، والمسبب للسبب، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

[الكهف]، ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مهلك الأمم، ومخرب العمران، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود]، أي ما كان من شأنه ولا من سننه في نظام الاجتماع أن يهلك الأمم بظلم منه لهم، أو بشرك به يقع منهم[1] وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم، كما قال ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف]، وقال في الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة]، ورد هذا في حكم القصاص.

وحسبنا هذه الشواهد القليلة من الآيات الكثيرة المكررة في نوعي الظلم، ظلم الأفراد وظلم الأمم، ومن الأول ظلم الإنسان لنفسه وظلمه لغيره، ومنه الظلم في الحكم، والظلم في القول والعمل، من إيذاء بدني أو مالي أو غيرهما، وفاقاً لحكمة التكرار التي بيناها من قبل[2].

قواعد مراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات

من استقرأ الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها، من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والصدق والأمانة والوفاء بالعهود والعقود، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع، وأكل أموال الناس بالباطل، كالربا والرشوة والسحت، وشره وأضره التجارة بالدين، والرياء فيه، وهو أساس النفاق الديني الذي هو شر الكفر وأحقره.

وأما العقوبات في الإسلام فهي قسمان: (أحدهما) الحدود وهي أقلها وهي ما فرض من عقاب معين على جرم مبين بالنص كالقتل لحفظ الأنفس، والزنا لحفظ العرض والنسل، والسرقة لحفظ المال، والفساد في الأرض بقطع الطرق لحفظ

---

(١) إشارة إلى قولين للمفسرين.

(٢) من أراد التفصيل فيه فليراجع خاتمة سورة هود عليه السلام.

الأمن، والسُكر لحفظ العقل، وبعض العلماء لا يجعل عقابه حداً لعدم النص في القرآن، ولا في السنة في تحديده. والحكمة في هذه الحدود المعينة إرهاب الأشقياء والفساق، واشترط في إثبات الزنا شروط قلما تتحقق إلا بإقرار الفاعل، وورد في السنة أمر الزاني بالستر على نفسه وترغيبه عن الإقرار، مع الأمر بدرء الحدود بالشبهات، فقد روي في الأحاديث المشتهرة مرفوعاً من طرق فيها مقال بلفظ «ادرءوا الحدود بالشبهات»، وبلفظ «ادرءوا الحدود عن عباد الله»، وبلفظ «عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلو سبيله. فإن الإمام لأن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة»، وروي الأخير عن عمر رضي الله عنه وهو مشهور، وعليه عامة الفقهاء.

وقالوا: إن إقامة الحدود من حق الإمام الأعظم (الخليفة) دون غيره من الحكام.

(وثانيهما) التعزير، وهو مفوض إلى اجتهاد الحكام مع وجوب العدل وحفظ المصالح العامة والخاصة، وهو الأعم الأشمل.

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الإسلام جميع شرائع الأنبياء وقوانين الحكماء والعلماء، أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ليس عندهم شرع منزل، ولا قانون مدون، فهل يعقل أن يكون إلهاماً فَجَأه في سن الكهولة منبجساً من نفسه، ولم يؤثر عنه قبله شيء من مثله؟ كيف يكون هذا وهو مخالف لاستعداد البشر من قبله ومن بعده؟ أم المعقول أنه وحي من ربه؟ ألا إنه لهو وحي ربه كما قال تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

المقصد السابع من مقاصد القرآن

الإرشاد إلى الإصلاح المالي

تمهيد:

بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والإيمان والعمل والإذعان، ومن طريق العقل والبرهان، والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان، ومن طريق إكمال نوع الإنسان، ما يتعلق منه بالأفراد، وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والأجناس، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كله، وهي:

(١) طغيان الثروة ودولتها. (٢) عدوان الحرب وقسوتها. (٣) ظلم المرأة واستباحتها. (٤) ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما، وهو الرق المطلق. - ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل، والعلم والحكمة والحكم، وإننا نتكلم عليها بالإجمال، مبتدئين بإرشاده في مسألة المال، والآيات فيها تدور على سبعة أقطاب، وهاك البيان:

القطب الأول

القاعدة العامة في المال: كونه فتنة واختباراً في الخير والشر

القاعدة الأساسية للقرآن في المال أنه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه وكنزه واحتكاره، وجعله دُولة بين الأغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس.

وقد كان -وما زال- مثيراً للعداوات بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول، وحلال المشكلات، وشفاء المعضلات فيها، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع إلى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والإجتماعية، وكذا الدينية حتى الإسلامية، كما بينتُ هذا في التفسير ونقضته بما يُعلم برهانه مما هنا،

وناهيك من المبالغة في إكبار أمر المال قول الحريري في قصيدة الدينار من المقامة الدينارية:

لولا التقى لقلت جلت قدرته

وقد قصر علماء الفقه والأدب والتربية من أمتنا في إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحي والمقاصد، التي دونت في هذا العصر في عدة علوم، لكن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فساداً، ولا يجدون لهذا الفساد علاجاً إلا في القرآن.

قال الله عز وجل ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام، حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] الآية، وقال ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ:٣٧] الآية، وقال ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم]، وقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤] الآية، وقال تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال]، ومثلها في سورة التغابن (١٥:٦٤). ويليها الترغيب في الإنفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس، وقال تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾، أنظر هذا مع قوله تعالى في أول هذه سورة، وهي الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾، والمراد من العمل ما يتعلق بها على الأرض من العمران، وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله

بشكره ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبي الجنتين والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض[1].

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧]، والدُولة -بضم الدال- المال المتداول، أي لئلا يكون المال محصوراً في الأغنياء متداولاً بينهم وحدهم وهذا ما يسمونه اليوم بالرأسمالية.

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من تفسير المنار، ولا سيما الجزء العاشر منه[2].

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال، والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] الآية[3]، أي إن منع إنفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة. ثم قال في الترغيب ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [البقرة]، وكذا قوله تعالى من سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)﴾.

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾، ومعناه بالإجمال والإيجاز: إن سعيكم في الكسب والإنفاق مختلف مبدأً وصفةً وغايةً وثمرةً، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ سوء عاقبة منعها وضرره في الأفراد وفي الأمة، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ وهي ما وعد الله من الجزاء على الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب، بمثل قوله

(١) راجع فيها الآيات ٣٨ - ٤٦.

(١) راجع في الفهرس كلمة - المال: فتنته.

(٢) ص ٢٠٩ ج ٢ تفسير.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم]، وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ بمقتضى سنتنا في تأثير صفات النفس في الأعمال، وتأثير الأعمال في الأحوال الخاصة والعامة، ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي الخطة أو الطريقة الفضلى في اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس، فيحبه الناس ويحبه الله، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما عليه من هذه الحقوق، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بماله عن حب الناس وحمدهم، وعن حب الله ومثوبته، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي بيناها آنفاً بعدم طلبها وتحريها بالإعطاء والإنفاق، وإن اعترف بها باللسان، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ بمقتضى سنتنا المبينة آنفاً، ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ من الخطتين، وسوءى الطريقتين، فيكون سبباً لعسر البشر، وعدواً لهم ولربهم، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل في الدارين.

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال، وهي:

القطب الثاني

ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير

قال تعالى في سورة العلق ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾، أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال، مستغنياً بعينه وكنزه أو قصره على شهواته عما في إنفاقه من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه في الآخرة، وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والإسلام من أول ظهوره، وهي أول ما نزل في ذلك. ومثلها في سورة ١١١ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المَسَد] إلخ[1]،

(١) ﴿تَبَّتْ﴾ خبر أو دعاء بالتباب وهو خسران يُفضي إلى الهلاك، ومعنى تبت يداه: خسر ما جمعه بهما من المال، ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾ وخسر نفسه بعد خُسر ماله، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ أي ما منع التباب عنه ماله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من النتائج والأرباح والجاه والولد الذي ظن أنه ينفعه، وكان أمر ابنه بفراق بنت النبي ﷺ بعد النبوة عداوة له. وما كان أسوأ ما أصابه من التباب: افترس ابنه عتبة أسد في طريق الشام وقد أحدقت به العير تحمل التجارة، ومات هو بعده بالعدسة بعد غزوة بدر التي

ومثلها في سورة الهمزة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، نزلت في الوليد وأمية بن خلف، وكذا قوله تعالى ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدَّثر] إلخ الآيات، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة وكذا آيات سورة ﴿نٓ﴾ [القلم]، من قوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ -إلى قوله- ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾، وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من أول عهده بتبليغ الدعوة، ثم قال تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، وكذلك كان، وفيهم وفي أمثالهم من مترفي أقوام الأنبياء نزل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ].

ومن الآيات المعلومة في غريزة البشر قوله تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]، وقوله من سورة المعارج ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾، الخير: المال الكثير، وأكثر الأغنياء مانعون للمال، إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ إلخ.

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم في المال والدنيا فيبالغون وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانا بالمال، ولذلك قرنه في بعض الآيات بالأولاد، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت، وشواهده في آيات القطب الثالث وهي:

ساعد المشركين عليها بماله، وترك ميتاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه. اهـ ملخصاً من البيضاوي، قال: وهو إخبار عن الغيب طابق وقوعه.

القطب الثالث

ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه

قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران:١٨٠]، وقال في سياق الترغيب في الانفاق في سبيل الله من طيبات الكسب والإخلاص فيه، والنهي عن الرياء والمن والأذى فيه ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة:٢٦٨] الآية، فسروا الفحشاء بالبخل، أي الشيطان يصدكم عن الإنفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر، ويأمركم بالبخل، الذي فحش شره وضرره، وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[الحديد] وقال فيمن عاهد الله: لئن آتاه الله من فضله مالاً وخيراً ليصَّدقنَّ منه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة]، وقال ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]، أي وإن تتولوا عن الإنفاق في سبيل الله يهلككم بزوال دولتكم، ويستبدل بكم قوماً آخرين ينفقون أموالهم في المصلحة العامة من الدفاع عن الملة، وإقامة الحق والعدل في الأمة.

وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً[1] عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء:٢٩]، وقال ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

(١) الباطل ما ليس له مقابل، ومن التجارة ما لا ربح فيه، و يحل بالتراضي.

﴿١٨٨﴾ [البقرة]، وقال في اليهود ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١]، وقال فيهم ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، مبالغون في أكل أموال الناس بالباطل، وهو يشمل كل ما ليس له مقابل صحيح مشروع، ويدخل فيه الغش والحيل والخداع الدنيوي والديني والرشوة، والسحت -بالضم- الحقير الذي يلزم صاحبه العار ويوصف بالخسة، فهو يسحت مروءته أي يذهب بها. وقد قلت في وطن الحكام الظالمين من المقصورة الرشيدية:

وكيف لا يُسحته الله وهم ... للسحت أكالون فيه والرُّشا

وقال ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]، الوعيد على كنز المال، بمنع تداوله والانتفاع العام به، وبمنع الحقوق منه[1].

القطب الرابع

مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾، وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته (١١ : ٥٢)، بل قال تعالى في بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى

(١) راجع تفسيرها في (ص ٣٩٥ - ٤١٠) من جزء التفسير العاشر.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الآيات. فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها، وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾، أي لا يهضم حقه، ولا يظلم بذُل يرهقه، لأن عزة الإيمان تمنعه وتحفظه، وهذا يشمل الدنيا والآخرة، ثم قال في أمر الدنيا منها ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾[1] [الجن].

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨]، أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحه وغنائمه[2]، وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:٧٠]، وكذلك كان، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنى الأمم والأقوام[3].

---

(١) هذا معطوف على ما قبله من أول السورة ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن:١]، أي وأُوحي إلي أنهم لو استقاموا على الطريقة المثلى التي جاءهم بها الإسلام لوسعنا عليهم الرزق وأصله الماء الغدق، أي الكثير الذي ينبت به الزرع ويدر الضرع - ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ أي نمتحنهم فيه أيشكرون النعم أم يكفرونها، ومن يعرض منهم عن هداية ربه بالقرآن يدخله في عذاب ﴿صَعَدًا﴾ (بفتحتين) أي شديد المشقة فتكون النعم سبباً لتعبه وشقائه.

(٢) راجع تفسير الآية في ص٢٧٧ ج ١٠ تفسير.

(٣) راجع ص ١٠٠ منه. (أي ج ١٠ تفسير) (فؤاد)

وقد امتن الله تعالى على نبيه الأعظم بالغنى بعد الفقر بقوله ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضُّحى]، وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك (هي سورة قريش ١٠٦)، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الإنسان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات]، وقوله فيمن يحضره الموت ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠] الآية.

وإنما كان المؤمنون المتقون لله الشاكرون لنعمه أحق بنعم الدنيا من الكافرين لنعمه والفاسقين الظالمين، لأنهم أحق وأجدر بالشكر عليها. والشكر استعمال النعمة في الحكمة التي منحت لأجلها من الحق والعدل والإحسان والبر والعمران وهو الذي يُرضي الله تعالى فيها، ومن سننه تعالى فيها أن الشكر لها بهذا المعنى سبب للمزيد منها، وأن الكفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها أو سلب فوائدها كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]، وقال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال:٥٣].

فالمؤمنون والكافرون يشتركون في أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة، لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾[الإسراء]، أي ما كان ممنوعاً عمن يريد به لذات العاجلة، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة، وإنما يفضل بعضهم بعضاً في استعمال المال، فاستعماله في الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحقها نفسها أو محق بركتها بكثرة الضرر والفساد المترتب عليها، فمن المشاهد أن أكثر الأغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء أو المصائب المنغصة، وأما الأمم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف وقد تفقد استقلالها، واستعماله في البر والخير سبب للمزيد فيها، وقد حققنا هذا الموضوع في مواضع أخرى، ومنه قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق ﴿قُلْ هِىَ

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، أي هي لهم في الدنيا بالاستحقاق، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب، ولكنها تكون في الآخرة خالصة لهم[1]، لأنهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّخرُف].

أي ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفاراً بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفاً وأبواباً من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليها إلى غرفات قصورهم، وجعلنا لهم فيها سرراً كذلك وزخرفاً أي ذهباً، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل، بالنسبة إلى نعيم الآخرة العظيم الدائم، ولكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالأسباب الكسبية المشتركة، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعاً لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد في أنفسهم، والتوسعة على غيرهم، كما قررناه آنفاً، ويؤيده ما في القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه.

وهذا التشريع والتثقيف والأدب العالي في الحضارة الإسلامية يعلو بها على حضارات جميع الأمم المسرفة الفاسقة، فهل كان هذا وما قبله وما يذكر بعده مما نبع من نفس محمد الأمي في العقد الخامس من عمره خلافاً لطبائع البشر، إذ لم يُعهد قط أن يفيض من عقولهم في هذه السن، ما لم يكونوا فكروا فيه وزاولوه في سن الصبا والشباب، أم الأقرب إلى عقل المؤمن أن يكون وحياً من الله تعالى؟ كِلا الأمرين من الخوارق والعجائب، فمن يؤمن بالله يجب عليه أن يقول: إنه وحي منه إذ لا يقدر عليه غيره، ومن لا يؤمن به لا يجد أمامه إلا أن يقول: إن محمداً أفضل من جميع

---

(١) راجع تفسيرها في ص ٢٩٨ ج ٨ تفسير.

البشر بنفسه، إذ صدر عنه ما لم يصدر مثله عن غيره، ولا هو من شأن طبيعتهم وغريزتهم في هذه السن.

القطب الخامس

ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع بالإسراف، والاقتصاد فيه

قال تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥]، قيام الشيء وقوامه -بالكسر والفتح- ما يستقيم به ويحفظ ويثبت - أي جعلها قوام معايشكم ومصالحكم، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد، أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء] الآية، الابتلاء: التجربة والاختبار، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد في أعمالهم، وهو الصلاح والاستقامة في معاملاتهم، لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع.

وقال تعالى في صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان]، الإسراف: التبذير والإفراط، والقتر والقتور والإقتار: الإقلال والتضييق في النفقة، يقال: قتر على عياله، ومثله قدر له بالدال مكان التاء، ومنه ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:٦٢]، وهو مكرر في عدة سور.

وقال تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، وهذا نزل في النفقة على المرأة المطلقة في العدة، وهو إرشاد عام، والقاعدة في الأصول أن العبرة بدلالة العموم، لا يقيد بخصوص سبب النزول. وقال في النفقات العامة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة]، و «من» للتبعيض فكلٌ من الغني ذي السعة، والفقير ذي العسرة، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله، لا كل ما آتاه الله، وهذا أعظم أصول الاقتصاد، فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر.

وتقدم في وصايا سورة الإسراء الحكيمة ذكر آيات النهي عن التبذير والمبالغة في بسط اليد والمبالغة في قبضها، وما لكل منهما من سوء العاقبة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولولا اقتران تلك الوصايا بحِكَمها وعللها ومنافعها لما سميت حِكْمة، ألا ترى أنه قال عقب النهي عن التبذير ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء:٢٧] لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾، ثم قال ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾، فعلل الإسراف في الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوماً من الناس ومحسورا في نفسه، والمحسور من حُسر عنه ستره فانكشف منه المغطى، ويطلق على من إنحسرت قوته وإنكشفت عن عجزه، والمحسور المغموم أيضاً، وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة، يوقعه إسرافه في العدم والفقر إلخ. وحسير البصر كليله وقصيره، ويكنى به عمن لا يفكر في عواقب الأمور.

ولو أن المسلمين تدبروا هذه الآيات الحكيمة في الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بإرشادها عن جميع الكتب والوصايا في حفظ ثروتهم، ولندر أن يوجد فيهم فقير. ولو كان هذا القرآن نابعاً من غريزة محمد ﷺ ورأيه وشعوره لما وجدتها فيه، فقد كان حب البذل والإحسان هو الغالب على طبعه، وصاحب هذه الخليقة قلما يفكر في الاقتصاد، وإنما هي وصايا رب العباد.

القطب السادس

إنفاق المال في سبيل الله آية الإيمان

والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة وسعادة الإنسان

هذا هو القطب التهذيبي الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذُكر قبله فهو وسائل له، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به، وأظهر

الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان، المبني على أساس الإيمان، وجعل دعوى الإيمان بدون شهادته باطلة، وإن كانت دعوى الإسلام تُقبل مطلقاً، لأن أحكامه العملية تُبنى على الظواهر، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر، وعليها مدار الجزاء في اليوم الآخر، فالإسلام عمل قد يكون صورياً غير صادر عن إخلاص وإذعان، والإيمان يقين قلبي يستلزم أعمال الإسلام، ولكن الإسلام الصوري الصادر عن استحسان لا عن نفاق، يكون أقرب الوسائل إلى يقين الإيمان، والأصل في هذه المسألة قول الله عز وجل ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ[1] ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات]، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الإيمان وصدق مدعيه، وقوله ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ معناه لا ينقصكم.

ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار، أول آيات الإيمان، ويليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي يجبيها إمام المسلمين وسلطانهم بالإلزام، ويليهما سائر أمهات الفضائل ومعالي الأخلاق، وهي قوله تعالى ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وفي قوله تعالى ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قولان:

---

(١) الأعراب اسم لسكان البوادي دون سكان المدائن والقرى، والآيات نزلت في قبيلة بني أسد، أسلموا عن قحط ومجاعة ليتصدق عليهم المسلمون، ثم حسن إسلامهم.

(أحدهما) أعطى المال وبذله على حبه إياه كقوله ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:٩٢].

(والثاني) أن الضمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ لله تعالى كقوله ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[الإنسان]، أي حب الله تعالى. وتجد بيان الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة].

ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء:٩٥].

وقال تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الحديد:١٠] الآية.

وقد ذُكر إنفاق المال في وجوه البر والخير من أمر ونهي ووصف في عشرات من آيات الذكر الحكيم، وكذلك الصدقة وما تُصرف منها من فعل ووصف، وكذلك الزكاة، وأبلغ من ذلك التعبير عن التصدق والإنفاق بإقراض الله تعالى ووعد مقرضه بالمضاعفة له في مثل (٢ : ٢٤٥) و ٥٧ : ١١) و (٦٤ : ١٧).

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه: عشرون آية من أواخر سورة البقرة، هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد

على أكل الربا، فراجعها من آية ٢٦١ - ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث[1].

ومن البلاء المبين أن ترى الشعوب الإسلامية في هذه القرون الأخيرة قد قصَّرت عن جميع الشعوب القوية في بذل المال للجهاد في سبيل الله الذي يحفظ استقلالهم، ويعتز به ملكهم، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم، ثم في غيرهم، وفي طرق البر التي ترتقي بها أمتهم، وتكون حجة على سائر الأمم في تفضيل دينهم على سائر الأديان وحاجة الأمم إليه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به، وما أفضى إليه من فوضى الشيوعية الدينية والأدبية المشار إليها فيما يلي.

القطب السابع

في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والإصلاح المالي في الإسلام

قد عقدت لتفسير قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] فصلاً في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان، بينت فيه مكانة المال من حياة الناس، وما له من التأثير في الثورات والحروب والسياسة والعمران، وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره، وأنظمته واستغلاله، واستعباد الألوف وألوف الألوف من البشر به، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسماليين، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في المال، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه، ويلقبون بالبلشفيين والشيوعيين، وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادي والخصام.

ثم بينت أن هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لا علاج لها إلا اتباع هداية الإسلام في الإصلاح المالي، ولخصت أصول هذا الإصلاح في أربعة عشر أصلاً، هي: (١) إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.

---

(١) وراجع كلمة المال في الجزءين ١٠ و ١١ وغيرهما منه.

(٢) تحريم الربا والقمار. (٣) منع جعل المال دُولة بين الأغنياء. (٤) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم. (٥) فرض الزكاة في أول الإسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام وإنما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للإسلام. (٦) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام ما دام النصاب تاماً، وبالعشر ونصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الأقوات أو مطلقاً، وزكاة الأنعام المعروفة، وفاتني هنالك ذكر الخمس في الركاز، وهو ما ينبش من المال المكنوز القديم والمعدن. (٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة. (٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين، وضيافة الغرباء. (٩) بذل المال في كفارات بعض الذنوب. (١٠) ندب صدقات التطوع للمحتاجين. (١١) ذم الإسراف والتبذير، والبخل والتقتير. (١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطها لتوقف ترقي الصناعات والحضارة عليها. (١٣) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه. (١٤) تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر. اهـ باختصار. وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة في تفسير آيتها ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦٠].

ثم عقدت فصلاً آخر في خلاصة السورة «وهي سورة التوبة» المشتملة على هذه الآيات في أحكام الأموال في الإسلام يدخل في ثلاثة أقسام:

(١) المسائل الدينية والاجتماعية في الأموال. (٢) أنواع الأموال ومصارفها. (٣) فوائد إصلاح الإسلام المالي للبشر. فالرجوع إلى هذه المباحث في ذلك الجزء من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا.

وخلاصة القول في هذه القواعد العلمية في إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عاماً كما سماها تعالى في كتابه، واتقاء شرور التنازع عليها -بالوازع الديني والتشريع الدولي- إنما هي التي يصلح بها أمر البشر على اختلاف أحوالهم وإستعدادهم،

فيكونون سعداء في دنياهم وفي دينهم، ولن تجد مثلها في دين من الأديان ولا شيء من كتب القوانين والحكمة البشرية. وإن البشر لعلى خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادي على المال حتى أعيتهم الحيل، وسبيل النجاة ممهدة معبدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهي الإسلام وهداية القرآن ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[البقرة].

وموضوع بحثنا في هذا المقصد -وهو دلائل الوحي المحمدي- أنه لا يعقل أن يكون محمد النبي الأمي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بوحي من نفسه لنفسه في العقد السادس من عمره «أي بعد هجرته» إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الإلهية والبشرية والنظم الدولية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين، وإنما المعقول عند من يؤمن بأن للعالم رباً حكيماً رحيماً مدبراً أن يكون هذا بوحي منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين عند استعداد البشر له لا يحتاجون بعده إلى وحي آخر.

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

نظرة عامة في فلسفة الحرب والسلم والمعاهدات

التنازع بين الأحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة، وإفضاء التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات والأقوام، سنة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته، قد تكون وسيلة من وسائل العمران، فإن كان التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح، كما قال تعالى في الحق والباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء:١٨]، وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه

لها ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، وسبق ذكر هذه الآيات كلها.

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة، والسلطة الظالمة، واستعباد القوي للضعيف، والاستكبار والعلو في الأرض، فإن ضرره كبير وشره مستطير، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء، ويورثهم الحقد ويورث بينهم العداوة والبغضاء، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير، كالغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطيارات المحلقة في جو السماء، على المدائن المكتظة بالألوف من الرجال والنساء والأطفال فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة.

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر حتى إن أشدهن استعدادا للحرب بالأساطيل الهوائية والبحرية وآلات التدمير وكثرة الأموال لأشدهن خوفاً على حياة أمتها المستعدة بجميع أنواع القتال وعمران بلادها المحصنة بأحدث وسائل الوقاية، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ودرء مفاسد الخصام بمعاهدات يعقدونها، وأيمان يتقاسمونها ثم ينكثون خائبين، أو ينقضون ما أبرموا متأولين، ويعودون إلى مثله مخادعين.

أعجوبة القرآن في فساد معاهدات الزمان:

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول الأوروبية بأظهر مما كان في حرب الجاهلية، الذين نزل هذا البيان في عهدهم كأنه نزل في هؤلاء الإفرنج دون غيرهم، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه،

---

(١) ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ بالتحريك ما يكون في أعلى السيل، أو القذر التي تفور من الغثاء والرغوة، و(الجُفاء) بالضم ما يقذفه الوادي أو القِدر من جوانبها عند امتلائها من ذلك، وهو مالا نفع فيه، وأما إبليز السيل الذي يرسب منه وإبريز الصائغ من الذهب الذي توقد النار عليه لتصفيته وهو النافع للناس ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويبقى في بوط الصائغ (بوتقته).

وذلك قوله تعالى بعد الأمر بالإيفاء بعهده، والنهي عن نقضه ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل:٩٢]، والمعنى: لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث «وهو جمع نكث -بالكسر- ما نقض ليغزل مرة أخرى» حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم «والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه» لأجل أن تكون أمة أربى وأزيد رجالاً، وأكثر ربحاً ومالاً، وأقوى أسنة ونصالاً من أمة أخرى.

والمراد أن معاهدات الصلح والاتفاق بين الأمم يجب أن يُقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة، فتبنى على الإخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به أن تكون أمة هي أربى نفعاً وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى، وهو ما عليه هذه الدول في جميع معاهداتها ولا سيما المعاهدة الأخيرة بعد الحرب العامة (معاهدة فرسايل).

ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الإسلام، فهو هو دين الحق والعدل والسلام، وهاك بعض قواعد الحرب والسلم في القرآن:

أهم قواعد الحرب والسلام في دين الإسلام، وشواهده من القرآن

قد استنبطنا من آيات سورة الأنفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية، أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها، وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الإسلام - و٢٠ حكماً من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة[1]، نكتفي هنا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور، لأن المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على

(١) تراجع في ص ١٢٣ و ١٣٩ - ١٤٤ ج ١٠ من التفسير.

أنواع الإصلاح الإسلامي من القرآن للاستدلال به على أن جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الأمي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد، إلا قليلاً من رعي الغنم في الصبا، والتجارة في الشباب، وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الأديان الإلهية، وكتب الحكمة والقوانين البشرية. فنقول:

القاعدة الأولى في الحرب المفروضة على الأعيان

ورد الأمر بقتال المعتدين لكف عدوانهم ولما سيأتي من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترناً بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم، والشاهد عليه قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقاً دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعاً ليس فيها شيء من العدوان. ثم فصلت في تفسير آية السيف من سورة التوبة: أن قتال مشركي العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جارياً على هذه القاعدة، مع كون سياسة الإسلام في العرب غير سياسته في سائر الأقوام، من حيث إرادة إسلامهم باختيارهم وإبطال ما كانوا عليه من الشرك غير المقيد بشرع متبع، وإرادة جعل جزيرتهم معقلاً للإسلام وحده، على اتساع سياسته مع غيرهم بإقرارهم على أوطانهم وأديانهم.

وبينت فيه أن بعض الصحابة كان قد ثقل عليهم نبذ عهود المشركين المقتضي لقتالهم مع سبقهم لنقض العهد مع النبي ﷺ حتى بَين الله لهم ذلك بأنهم إنما نقضوا عهده ونكثوا أيمانهم، لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية، ولا نظام متبع، وقال ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ [التوبة:١٣] أي بالقتال ثم بنقض العهد فهم المعتدون[١].

(١) راجع تفسير هذه الآيات من أوائل سورة التوبة في جزء التفسير العاشر.

وإنما اشتبه على الغافلين الأمر بما كان في بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها، ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره، فالدفاع لا يشترط أن يكون في كل معركة وكل حركة.

وهذا الذي كان في آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل في أول الإذن للمسلمين بالقتال، وهو قوله تعالى في سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج]، وتتمة الآيات في القاعدة الثانية.

ولما نقضوا العهد الذي عقده النبي ﷺ معهم في الحديبية في أواخر سنة ست للهجرة وعزم على فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) في النهي عن ولاية المشركين، وفيها التصريح بأن النهي خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم، فهو نهي عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك، فتأمل الآيات ٧ و ٨ و ٩ منها.

القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها

هي أن تكون الغاية الإيجابية من القتال بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن - حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها، وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاءهم كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته، وهي في مصلحة البشر كلهم، وإسداء الخير إليهم، إلا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الأول قوله تعالى بعد ذلك الإذن لهم بالقتال الذي تلوناه آنفاً ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج].

ذكر في تعليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور: (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم: ومخرجين نفياً من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدنيوي.

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرين عنها «بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لإرجاعه عن دينه» واستدللنا عليها بقوله تعالى ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال]، وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الإيذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك في الصدر الأول، ومن عساه شذ عن ذلك قليلاً بعده فقد خالف حكم الإسلام، الذي حرم الفتنة والإضهاد والإكراه في الدين، وشرع فيه الإختيار، بل جعله شرطاً لصحته.

(ثانيها) أنه لو لا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء، كصوامع العُبَّاد وبِيَع النصارى وصلوات اليهود «كنائسهم» ومساجد المسلمين - بظلم عُبَّاد الأصنام، ومنكري البعث والجزاء، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الأديان في الإسلام، وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها، وكذلك كان.

فإن قيل: ولماذا لم يقر الإسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس؟ قلت: إن الشرك الذي كان عليه العرب لم يكن ديناً مبنياً على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الأديان، حتى التي خالطها الشرك، فإنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الأعمال عند الله تعالى على قاعدة «إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، ولا كانوا يدينون الله تعالى بعمل الصالحات وتحريم المنكرات، فأصول الدين العامة قوله تعالى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢].

(ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن في الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر، كما وصفها الله تعالى، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته - وإيتاء الزكاة المُصْلِحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية، والأمر بالمعروف، الشامل لكل خير ونفع للناس، والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس.

إن جميع الدول الحربية تدعي بعض هذه المقاصد العالية في حروبها رياء وابتغاء لحسن السمعة، ولكن أفعالها تكذب دعاويها كلها، ولا سيما النهي عن المنكر فهي تبيح للناس -الذين تمكنها القوة الحربية في بلادهم- جميع المنكرات والفواحش التي تفسد الأخلاق والآداب وروابط الاجتماع، بل تحول بينهم وبين العلم والتهذيب والصلاح بقدر الطاقة، إلا تعليم لغاتها وتاريخ عظمتها وديانة شعبها، لأجل هدم مقوماتهم الملية والقومية حتى لا يُرجى لهم النجاة من رق الاستعمار وذله، لا ليكونوا مساوين للفاتح المستعمر في العلم والثروة والعزة والقوة، كما هو معروف في جميع الممتلكات والمستعمرات الأوروبية، خلافاً لما كان عليه المسلمون الأولون في فتوحهم من العدل المطلق.

القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها، إذ عُلم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد، وأن السلم هي الأصل التي يجب أن يكون عليها الناس، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها، ورضي بها، والشاهد عليه قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال] «فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير العاشر».

القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ومن رباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد

الأول من ذلك إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلادها أو مصالحها، أو على أفراد منها أو متاع أو مصلحة لها حتى في غير بلادها، لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها على دماء أهلها ومصالحها وأموالها، مطمئنة في حريتها بدينها وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتكذبها أعمالها، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً، فقيد به الأمر بإعداد القوة والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال:٦٠] فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ أيضاً.

القاعدة الخامسة: الرحمة في الحرب

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان في الأعداء، وأمنوا على نفوسهم ظهور العدو عليهم، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم يخيرهم في الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل، وإما بأخذ الفداء عنهم، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [٤] الآية[1]، وقد أوردناها وبينا

---

(١) أذاع أعداء الإسلام فيما تجنوا به عليه أن معنى هذه الآية أن القرآن يأمر أتباعه أن يقتلوا الكفار حيثما لقوهم، حتى إن لورد كرومر الشهير الذي كان عميد الدولة البريطانية بمصر ذكر هذا في خطبة له. وإنما الآية في لقاء الأعداء الحربيين في القتال، والكفار في شرع الإسلام ثلاثة أصناف: حربيون وتُعرف أحكامهم من هذه القاعدة وما قبلها - ومعاهدون ويُعرف بعض أحكامهم من هذه القاعدة وما قبلها - ومعاهدون ويُعرف بعض أحكامهم مما بعدها، ومنهم المستأمنون، وذميون وهم الذين يدخلون في حكم المسلمين. وقد تقدم أن الإسلام يسوي بينهم وبين المسلمين في جميع أحكامه القضائية والسياسية ويوجب حمايتهم والدفاع عنهم حتى بالقتال لمن يعتدي على دينهم أو أنفسهم أو أموالهم.

معناها في تفسير ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧] الآية (ص ٧٣ ج ١٠ تفسير).

القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيها سراً أو جهراً، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية من أحكام الإسلام القطعية، والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالاً لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة، «منها» قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل:٩١] الآية، جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهي عن نقضها، ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ [النحل:٩٢] وقد بيناه آنفاً في مقدمة هذا المقصد، «ومنها» أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧]، «ومنها» أنه عاب اليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ وجعلهم من شر الدواب (٨ : ٥٥ و ٥٦)، «ومنها» أنه لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي والمؤمنين استثنى منهم المعاهدين على كونهم أهل دار واحدة فقال ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة]، ثم قال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة]، وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار، كما قال في غير المهاجرين منهم ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم

﴿مِيثَٰقٌۗ﴾[1] [الأنفال:٧٢]، فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا في حكومة دينية بأمر الله تعالى؟

القاعدة السابعة: الجزية وكونها غاية للقتال لا علة له

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾[التوبة] ما نصه:

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها إذا كان الغلب لنا، أي قاتلوا من ذُكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، او اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم، كما فعل الروم، فكان سبباً لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما، فالقيد الأول لهم: وهو أن تكون صادرة عن يد، أي قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون، والثاني لكم: وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم، والخضوع لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم، فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل، ولم يكونوا حائلاً دونهما في دار الإسلام. والقتال لما دون هذه الأسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي بإعطائه الجزية، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليف ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون أهل الذمة، لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم بعهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين[2].

---

(١) راجع تفسيرها في صفحة ١٠٨ ج ١٠ تفسير.

(٢) راجع القواعد في ٦ – ٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وما تحيل عليه من الآيات.

حكمة الجزية وسببها وما تسقط به:

هذا وإن الجزية في الإسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم، فضلاً عن المغارم التي يرهقونهم بها. وإنما هي جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم، كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها، والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً.

«منها» ما كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمة والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا، وكتب سنة إثنتي عشرة في صفر» اهـ، وهو صريح في أن الجزية جزاء على المنعة والحماية، تدوم بدوامها، وتمتنع بزوالها.

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان والازدي في فتوح الشام من رد الصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبي عبيدة رضي الله عنه وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة. فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم.

فظهر بما ذكرنا أن الإسلام حرَّم حرب الاعتداء والظلم، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر، فجعلها ضرورة تقدر بقدرها، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام، ووضع قوانين الحرب على قواعده.

ومن تأمل هذه القواعد رأى أنه لم يسبق الإسلام إلى مثلها دين من الأديان ولا قانون دولي، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل عرفي،

أفليس هذا وحده دليلاً واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم، بأن محمداً العربي الأمي قد تلقاها بوحي منه عز وجل، وأن عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الإلهية والأدبية والاجتماعية والأنباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ؟

المقصد التاسع من مقاصد القرآن

إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

كان النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم وفي جميع شرائعها وقوانينها، حتى عند أهل الكتاب، إلى أن جاء الإسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها، حتى كان النبي ﷺ يقول «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث علي كرم الله وجهه.

كان كبار العقول من الصحابة رضي الله عنهم يرون ما أصلحه الإسلام من فساد وظلم ورذيلة في الأمة العربية، فيكبرونه إكباراً ويعدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ، إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشيء من العلم ولا البلاغة، بل بالأخلاق وسلامة الفطرة فقط، ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الأعظم لسياسة الإسلام، وهدي محمد ﷺ من بعده في الفتوح والعدل وإدارة شئون الشعوب يقول «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»، ولو كان رضي الله عنه واقفاً على تواريخ الأمم والشعوب لعلم أن ما جاء به الإسلام إنما هو إصلاح لشئون البشر كافة، وثنيهم وكتابيهم، همجيهم وحضريهم، لا في شيء واحد بل في كل شيء، وانني أشير هنا إلى أهم أصول

الإصلاح النسوي التي بسطتها في كتاب وسيط في حقوق النساء في الإسلام سميته (نداء للجنس اللطيف) بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الأرض إجمالاً بقولي:

«كانت المرأة تشترى وتباع، كالبهيمة والمتاع، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تُوَرث ولا تَرِث، وكانت تُمَلَّك ولا تَملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يُكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع إبنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفنها حية» أيضاً، وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية».

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الإسلام ما نصه:

«قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن. فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك. ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية». وانني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالإيجاز، ولمن شاء مراجعتها فيه بطولها:

(١) كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين، لا من نوع الإنسان، وبعضهم يشك في ذلك، فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قول الله تعالى﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجُرات:١٣] الآية، وقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء:١].

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دِين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً، فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات،والآيات في ذلك معروفة.

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة، وهي زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها - ولما جُمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة، هي حفصة أم المؤمنين، وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنهم فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الأمصار لأجل النسخ عنها والاعتماد عليها.

(٣) كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة -وهذا الزعم أصل لعدم تدينها- فنزل القرآن يقول ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]، ويقول ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾

[آل عمران:١٩٥] الآية، وفيها الوعد الصريح بدخولهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية، والمحافل الأدبية، ولا في غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية، والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]، فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين، وتدخل فيها ولاية النصرة في الحرب، ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال، فكان حظهن من النصرة تهيئة الطعام والشراب للمقاتلين ومداواة جرحاهم، وكن يصلين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم، ويأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر، حتى إن بعضهن كن ينكرن على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله جهراً، فيرجع عنه إذا كان خطأ، وهو الذي كان يهابه الرجال كالنساء.

وقد قفى الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية في جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجثماني والنعيم الروحاني، وهي ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن، فأبطل الإسلام هذا الظلم، وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع، قال الله تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء].

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأميركية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد مُنحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن.

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء، فجعله الإسلام عقداً دينياً مدنياً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد على ما أرشد إليه قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الروم].

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية، يقول الله عز وجل في الزوجات ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة:٢٢٨] وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء:٣٤] فجعل من واجبات هذه القيامة على الزواج نفقة الزوجة والأولاد لا تكلف الزوجة منه شيئاً، ولو كانت أغنى منه. وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يُذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي، على حين نرى بقية الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل.

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقاً وان كان زوجها وطلقها فحرم الإسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته.

(٨) كان الرجال من العرب وبني إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع، وأن من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال: منها أن تكون الأولى عقيماً أو تدخل في سن اليأس من الحمل، أو تكون ذات مرض مانع منه أو من إحصان الرجل، وقد يكون التعدد من مصالح النساء خاصة إذا كثرن في أمة أو قبيلة، كما يكون في أعقاب الحروب، أو هجرة كثيرة من الرجال لأجل الكسب وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه، فهل من مصلحة النساء أو الإنسانية أن تبقى النساء الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الأزواج، ومن نعمة الأمومة؟ وهل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التي نراهن مرهقات برجسها في بلاد الإفرنج والبلاد التي ابتليت بسيطرتهم عليها أو تقليدها لهم؟

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب «حقوق النساء في الإسلام» ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر كافة والنساء خاصة، فهو قد أباح ذلك بشرطه الشديد ولم يوجبه، وهن في شريعته مخيرات في قبول العقد على رجل متزوج وعدمه، بل تجيز الشريعة للمرأة أن تشترط في عقد نكاحها جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها إذا شاءت بناء على ما ذهب إليه بعض أئمة الفقه في صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعي في الكتاب والسنة، ولا سيما شروط الزوجية عملاً بحديث «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج» رواه البخاري في مواضع من صحيحه وأصحاب السنن.

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة

والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعاً عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله، فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذي لم يسبقه إليه شرع، ولم يلحقه بمثله قانون، وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه إسرافاً منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة، ومما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل في إرساله أو قصه وحلقه، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتب أو الصحف في الدار، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمِسرة (التليفون) ومثله كثير[1].

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها، وكونهم أثبت من النساء جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون. وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء]، وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي إذا وجد سببه من العيوب الخِلقية أو المَرضية كالرجل، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة. وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه - إلى غير ذلك من الأحكام التي بيناها في تفسير الآيات المنزلة فيها، وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الإسلام (نداء للجنس اللطيف).

(١) نشرت جريدة الأهرام في هذا الشهر «المحرم سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥» اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في «لوس انجلوس» من ولاية «كليفورنية» خلاصته: أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم «أمريكة الشمالية» وتحل محلها الإباحة والفوضى في العلاقة بين النساء والرجال في زمن قريب وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الأسباب، خلافاً لهداية جميع الأديان إذ لا دين ولا حب يربطهما بل الشهوات والتنقل في وسائل المسرات - الطبعة الثالثة.

(١٠) بالغ الإسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم، فجعل برها مقدماً على بر الأب. ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل جعل لكل امرأة قيماً شرعياً يتولى كفايتها والعناية بها، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها، وقد أثبتنا في ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا.

وجملة القول: أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم، إلى محمد النبي الأمي المبعوث في الأميين؟ بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين.

المقصد العاشر من مقاصد القرآن

تحرير الرقبة

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضاً كالنمل، فإذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المئونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك.

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الأعمال، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية، وظل الرق مشروعاً عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات الأميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتلتها إنكلترا باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر، ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر العامة، فإن لهم فيها مصالح خاصة، ولا جنوحاً للمساواة بينهم، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الأصل بما يقرب من

الاستعباد السياسي المباح عند جميع الإفرنج للشعوب، بل يستبيح الشعب الأبيض تعذيب المخالف له في لونه في الولايات المتحدة على كل ذنب بما لا يبيحه القانون، فيتخطفه دُعَّارهم من أيدي الحكام والشرطة، وينكلون به أشد تنكيل، ويمثلون به أفظع تمثيل، كما أن إنكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم، وطأمنت من إشناق كبريائهم[1]. وغيرهما من الإفرنج المستعمرين شر منهما ظلماً وقسوة. وكل منهم يأبون أن يصلوا في كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتناوبون الصلاة فيها.

فلما ظهر الإسلام وأشرق نوره الماحي لكل ظلام، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار، ولا بغي ولا استكبار، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الإجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين.

فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الأرض يلتمس وسيلة الرزق، فلا يجد ما يحسنه، أو يقدر عليه، فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان.

وكذلك جرى في السودان المصري، فقد جرب الحكام من الإنكليز أن يجدوا لهم رزقاً بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يكن، فاضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة، بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والإتجار بهم.

فهذا برهان حسي مشاهد على أن إبطال الرق -الذي كان عاماً في البشر- بتشريع ديني يتعبد الله تعالى به من أول يوم لم يكن من الحكمة ولا من مصلحة

(١) آخر ما نشرته الجرائد في هذه الأيام من هذه السنة الميلادية ١٩٣٤ عنهم أن طلبة جامعة أكسفورد انتخبوا رئيساً لبعض جماعاتهم فنال أكثر الأصوات طالب هندي، فاضطرب الشعب الإنكليزي لهذه النازلة، وارتفعت في إنكارها الأصوات من كل مكان: أهندي أسمر يكون فوق الإنكليز البيض في شيء ما؟

البشر الممكن تنفيذها، والإسلام تشريع عملي لا هوادة فيه، فما شرعه في الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة، الجامع بين المصلحة العامة والرحمة، كما تراه مفصلاً فيما يلي، فنجزم بأنه هداية ربانية، لا فلسفة محمدية، وإنما كان ﷺ أحكم وأرحم مبلغ ومنفذ لوحي الله بها، وقد أعتق كثيراً من الرجال والنساء قبل البعثة وبعدها من ماله ومال زوجه خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان بعض من يملكهم يفضلون الرق عنده على العتق وعلى الحرية عند أهلهم. وكذلك فعل صاحبه الأول وصديقه الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أنفق أكثر ماله في تحرير الرقاب.

هداية الإسلام في تحرير الرقيق وأحكامه

قد شرع الله تعالى لإبطال الرق طريقتين: تحديد تجديد الاسترقاق في المستقبل أو تقييده، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج، الذي لا ضرر ولا ضرار فيه.

الطريقة الأولى: تحديد تجديد الاسترقاق في المستقبل أو تقييده

منع الإسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغي والعدوان، وقيده باسترقاق الأسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح، ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة[1]، وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة، فضلاً عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله، بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين أمرين: (أولهما) المن عليهم بالحرية فضلاً وإحساناً ورحمة. (ثانيهما) الفداء بهم وهو نوعان: فداء بالمال وفداء بالأنفس، إذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم بنص (الآية ٤٧ : ٤) التي أوردناها في القاعدة الخامسة من قواعد الحرب، ولما كنا مخيرين فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم جاز أن يُعد هذا أصلاً شرعياً لإبطال استئناف الاسترقاق في

---

(١) راجع المقصد الثامن من مقاصد القرآن.

الإسلام، فإن ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لو لم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم، وأقره الإسلام لأنه أمر عالمي دولي يقع به التعامل بين الأعداء في الحرب، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل كما يُعلم مما يأتي، ولكن الآية ليست نصاً في الحصر، ولا صريحة في النهي عن الأصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية، فبقي حكمه محل اجتهاد أولي الأمر، إذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية -وهو إبطال إختياري له- أو الفداء بهم، عملوا به.

ورأيتُ بعض المشتغلين بالفقه يقولون: إن الاسترقاق والسبي من حقوق المحاربين الخاصة، لا من حقوق أولي الأمر العامة، فليس للإمام الأعظم ولا للقائد العام في الحرب المفوض من قِبَله منع أركان حربه أن يُجبروا المقاتلين على المن عليهم ولا على الفداء بهم، لاقتضاء المصلحة العامة لأحد الأمرين، بدليل أن النبي ﷺ لم يُجبر المسلمين على التخلي عن سبي هوازن إجباراً، بل جعله بتطييب أنفسهم له، ووعد من لا تطيب نفسه بترك حصته بالتعويض عليه.

وفي هذا الفهم غلط من وجوه كثيرة: «منها» أن مثل هذه المسألة إذا لم تكن من المصالح العامة التي تناط بأولي الأمر فليس في الأمم مصالح عامة قط، «ومنها» أنه يعارض نصاً في القرآن بواقعة حال عملية، «ومنها» أن النبي ﷺ جمع في تلك الحال بين حكمة الدين ورحمته العامة وبين تربية المسلمين التي اقتضاها الزمان والمكان، والقوة والضعف في الإيمان، وحال طلقاء مكة والمؤلفة قلوبهم في إظهار الإسلام، فوعد وفد هوازن بإحدى الطائفتين -الغنائم أو السبي- مع علمه بأنهم يختارون السبي، ثم إنه أعطى المؤلفة قلوبهم من الغنائم أكثر من غيرهم، ولم يعط الأنصار شيئاً وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيتين (٢٥ و ٢٦) من سورة التوبة (٩)[1].

---

(١) راجع صفحة ٢٩٠ ج ١٠ تفسير.

وإنما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين -أي المن على الأسرى والفداء بهم- في حالات قليلة لا تدوم، كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد، كبعض قبائل البدو بقتل رجالهم كلهم أو جُلهم، فإذا تُرك النساء والأطفال والضعفاء من الرجال لأنفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم فيكون الخير لهم أن يكفلهم الغالبون ويقوموا بشئونهم المعاشية، ثم تجري عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم، وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت فحرائر، أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الأقل، وكذلك الأطفال يكفلهم المسلمون ويربونهم على عقائد الإسلام وفضائله ثم ينالهم العتق في الغالب، لما سيأتي في وجوهه، فيكونون كسائر أحرار المسلمين علماء وأغنياء وحكاماً وأمراء. وقد أفضى هذا إلى تغلب العتقى (الموالي) من الأعاجم على السيادة والسلطان في الأمة، بعد إهمال هداية الدين في دولها.

وقد سن النبي ﷺ لأمته ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق قولاً وعملاً في غزوة بني المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين، كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها، لأن المسلمين قد أثخنوهم وظهروا عليهم، ولم يكونوا أسروا من المسلمين أحداً. فعلم من ذلك أن روح الشريعة الإسلامية ترجيح جانب الفضل والإحسان عند القدرة، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالحرية بلا مقابل حاضر، ولا خوف مستقبل، بل لمحض الإحسان.

ولا تنس أن أكثر المشركين الذين كانوا يقاتلون النبي ﷺ من الأعراب (البدو) وكانت حالة الحرب معهم مستمرة كما تقدم ، فلم يكن من المصلحة إرجاع سبيهم إليهم، يشقى بشقائهم وشركهم، وظلمهم وقساوتهم، من قتل للأولاد ووأد للبنات. وتأمل فعله ﷺ مع بني النضير من اليهود، إذ استأذنه أصحابه بأخذ أولادهم الذين تهودوا معهم فأمرهم بتخييرهم.

الطريقة الثانية: تحرير الرقيق القديم بالتدريج

ما شرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً، وهو ٤ أنواع

النوع الأول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة، وفيه عشر مسائل

(١) الحرية في الإسلام هي الأصل في الإنسان، كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله على مصر عمرو بن العاص -وقد اشتكى عليه قبطي- «يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت بإقرار المرء على نفسه، وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه، فيكلف إثباته.

(٢) أن الإسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها، كما تقدم، وجعل ذلك من أعظم الآثام. روى البخاري وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «قال الله تعالى: ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره» وفي حديث الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة «ورجل اعتبد محرراً» أي جعله كالعبد في استخدامه كرهاً أو أنكر عتقه أو كتمه، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه.

(٣) شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطاً، ويسمى هذا في الشرع «الكتاب والمكاتبة» وأصله قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور:٣٣]، أمر بمكاتبتهم إن علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم، وأمر بإعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه به. ويدخل فيه الهبة وحط بعض الأقساط عنه، وجعل في مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الإعانة، وندب غير المالك لذلك أيضاً.

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمرين في الآية للوجوب: الأمر بالمكاتبة والأمر بالإعانة عليها، والأكثرون على أن الأول للندب والثاني للوجوب، وفي صحيح

البخاري بعد ذكر الآية قال روح عن أبي جريج: قلت لعطاء «أواجب علي إذا علمت أن له (أي لمملوكه) مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً» وقاله عمرو بن دينار، قلت لعطاء «أتأثره عن أحد؟ قال لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين[1] سأل أنساً المكاتبة، وكان كثير المال فأبى، فانطلق سيرين إلى عمر فدعاه عمر، فقال كاتبه: فأبى فضربه بالدرة وتلا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣] فكاتبه» اهـ.

(٤) إذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الإسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الإسلامية تنفيذ ذلك، ومستنده في السنة معروف، وقد انعكس الأمر في هذا العصر، فصار الأرقاء الذين يخرجون من دار الإسلام إلى دار الكفر أو ما في حكمها هم الذين يُعتقون، والمراد بالكفر هنا غير الإسلام.

(٥) إن من أعتق حصة له من عبد، عُتق كله عليه من ماله إن كان له مال، وإن كان لغيره حصة فيه فله أحكام، وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما، منها حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلاصه عليه في ماله إن كان له مال وإلا قوِّم عليه فاستسعى[2] به غير مشقوق عليه» وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضا «من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركاً له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق» والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى.

(٦) من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عُتق عليه، فقد روى الإمام أحمد «أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبَّه، فشكا إلى النبي ﷺ فسأله فاعترف وذكر ذنبه فقال النبي ﷺ للغلام: إذهب فأنت حر» ويؤخذ منه: أن

---

(١) هو والد محمد بن سيرين العالم التابعي المشهور وإخوته.

(٢) أي كلف المملوك أن يسعى في جمع المال الباقي من ثمنه بما لا مشقة عليه فيه، فيا لله ما أعجب هذه الرحمة في الإسلام.

الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد، وينفذه الحاكم عليه. فكل ما كان يخصى من المماليك ففيه مخالفة للشرع الإسلامي بخصائهم وبعدم عتقهم.

وفي رواية له (الإمام أحمد) وأخرجها أبو داود وابن ماجة «جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخاً فقال له: مالك؟ قال: سيدي رآني أقبل جارية له، فجبَّ مذاكيري، فقال النبي ﷺ: عليَّ بالرجل. فطُلب فلم يُقدر عليه. فقال ﷺ للغلام: اذهب فأنت حر» وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال «من مثل بعبده عتق عليه».

(٧) إيذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ولا كفارة لذنبه إلا عتقه، فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه» وللشيخين والترمذي عن سويد بن مُقرن قال «كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: اعتقوها. وقيل له: إنه ليس لبني مقرن خادم غيرها، فرخص لهم باستخدامها ما دامت الحاجة وإطلاقها إذا زالت».

وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدري قال «كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي: إعلم أبا مسعود. فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: إعلم أبا مسعود، إعلم أبا مسعود فألقيت السوط من يدي -وفي رواية: فسقط من يدي السوط من هيبته- فقال: إعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على الغلام - وفي رواية: عليه- فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار».

فهذا وما قبله بعض هدي الرسول في الرحمة ومعاملة الرقيق الذي لا يزال يصفه رجال الكنيسة ورجال السياسة من الإفرنج وتلاميذهم بما علم القاصي والداني من الكذب والإفك والبهتان، كيف لا وهو الرحمة العامة للعالمين.

(٨) التدبير عتق لازم، وينعقد بقول السيد لعبده: أنت مدبر وأنت حر عن دُبُر مني، أي بعد أن أدبر عن هذه الدنيا، وكذا أنت حر بعد موتي، إذا قصد به التدبير،

فإن أطلق ولا قرينة، فبعض العلماء يرجح أنه تدبير، تقويةً لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية، ومنهم من يرجح جانب الوصية.

ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية، وأنه لا يجوز للمدِبر (بالكسر) بيع المدَبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق إلى باقيه، وقال جمهور العلماء: إن أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق، فإذا عتقت عتقوا معها.

(٩) عتق أمهات الأولاد - وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته. فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز لها بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف، وأولهم عمر وعثمان رضي الله عنهما.

ففي حديث عمر عند الإمام مالك «أيما وليدة ولدت من سيدها فإنه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها، وهو يستمتع منها، فإذا مات فهي حرة» ولو أن أم الولد تورث لورثها أولادها، فكانت ملكاً لهم، وهذا مناف لمقاصد الشرع وأصوله وآدابه.

(١٠) إن ملك أحد أحداً من أولي القربى عتق عليه، وأعم ما ورد فيه حديث ضمرة بن جندب مرفوعاً «من ملك ذا رحم محرم فهو حر»، رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي والحاكم وصححوه، وهذا بمعنى ما قبله من عتق أمهات الأولاد.

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود: الكفارات

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام:

(أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها، ككفارة قتل النفس خطأ، وكفارة الظهار -وهو تشبيه الرجل زوجه بأمه- وكان طلاقاً في الجاهلية، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه.

(ثانيها) واجب مخير فيه، وهو كفارة اليمين، فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، كما قال الله تعالى، وحكمة التخيير ظاهرة.

(ثالثها) مندوب، وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة، وهو من أعظم مكفراتها.

النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود

جعل الله أحد السهام الثمانية من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن وهو يشمل العتق والإعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة) ومن المعلوم أن زكاة الأمة الإسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الإسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الإسلام.

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى، أي ابتغاء مرضاته ومثوبته

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير، ومما يدل على أنه من أعظم العبادات وأصول القربات آية البر من سورة البقرة (٢ : ١٧٧).

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ «أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً[1] استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي رواية «عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه» وحديث أبي ذر قال «سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله. قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها» إلخ متفق عليه.

ومن أشهرها أيضاً حديث أبي موسى الأشعري «أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأعتقها وتزوجها فله أجران» رواه

---

(١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وأنه قربة وإنما اختلفوا في عتقه في الكفارة.

البخاري ومسلم وغيرهما. وفي الصحيحين أيضاً أن أبا هريرة لما روى قوله ﷺ «للمملوك الصالح أجران» قال «والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك».

علاوة في عتق غير المسلم[1]

من الدلائل على أن تحرير الرقيق في الإسلام قربة مقصودة لأنها من حقوق البشر العامة: أنه يشمل المؤمن والكافر. ومن البديهي: أن حق المؤمن على المؤمن أعظم ومقدم على غيره، ولما كان استرقاق الإنسان قتلاً لحريته التي لا تتم إنسانيته بدونها جعل الله العتق كفارة للقتل في حال عدم القصاص، وقد اشترط في كفارة القتل عتق رقبة مؤمنة، لأن المؤمن في الشرع الديني أكمل، ومثله كفارة الظهار لأنه من الأحكام الزوجية الدينية. وقال تعالى في كفارة اليمين ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، ولم يقل مؤمنة، فقال بعض العلماء: هو على إطلاقه. فيكفي فيه رقبة غير مؤمنة. وقال بعضهم: يُحمل المطلق على المقيد، واشترط كونها مؤمنة، والأول أظهر.

ومن دلائل السنة ما رواه البخاري في (باب عتق المشرك) عن هشام أخبرني أبي (أي عروة بن الزبير) أن حكيم بن حزام رضي الله عنه «أعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير، فلما أسلم حمل على مائة بعير وأعتق مائة رقبة. قال: فسألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أصنعها في الجاهلية كنت أتحنث بها -يعني أتبرر بها- قال: فقال رسول الله ﷺ: أسلمت على ما سلف لك من خير» وفي صحيح مسلم «أسلمت على ما أسلفت من خير».

قول البخاري «عتق المشرك» يحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل لأن حكيماً سأله عما أعتقه وهو مشرك، وأن يكون من الإضافة إلى المفعول، لأن الذين أعتقهم كانوا مشركين، وجواب النبي ﷺ له: أنه أسلم على ما كان يفعله من الخير، معناه أنه كمل له الخير والبر بالإسلام، وإذا كان الإسلام يجبُّ ما قبله من الشرك

(١) هذه العلاوة من زيادات الطبعة الثالثة.

وأعماله، ويطهر النفس منها، فأجدر به أن يزيد فاعل الخير السابق خيراً وتزكية لنفسه إذ كان مستعداً لهما، ولو لم يسلم لما كان هذا ينجيه في الآخرة ولكنه كان يكون أمثل ممن لم يفعل مثله.

الوصية بالمماليك

أضف إلى ما تقدم كله وصايا الله ورسوله بالمماليك، ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد «عبدي وأَمَتي» وأمره أن يقول «فتاي وفتاتي وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم، كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما الذي تقدم، والمناسب منه هنا: أن المعرور بن سويد قال «رأيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك» وذكر ما تقدم من الحديث، وتتمته هي قوله ﷺ في المماليك «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» أي عاملوهم معاملة الأمثال. وفي الصحاح أيضاً أنه ﷺ كان يوصي بالنساء وما ملكت الأيمان حتى في مرض موته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ﷺ وسأله ابن عمر «كم أعفو عن الخادم؟ قال: أعف عنه كل يوم سبعين مرة» وهذه مبالغة معناها أعف عنه كلما أذنب.

وقد تفلسف بعض المتنطعين فيما يسمونه النقد التحليلي فقال: إن محمداً ﷺ كان يوصي بالرقيق لأنه رُبي في حجر أَمَةٍ -قيل يعني به إرضاع ثويبة مولاة عمه أبي لهب- وإن هذا التعليل لجهل عميق بالتاريخ وعلم النفس والفلسفة جميعاً، والأولى أن يعني أم أيمن حاضنته، وكانت جارية لأمه فورثها وأعتقها ولكن هذا التشريع العظيم الذي جاء في كهولة الأمية فوق جميع شرائع البشر، وفلسفتهم وآدابهم، شيء آخر لا ينبغي لعاقل أن يعلله بما علله به هذا المتنطع المتحذلق، وما كان هذا التشريع وحده الذي يعلو هذا التعليل ويحطمه بل كل نوع من شريعته مثله. ثم ماذا يقال في مجموعها وجملتها؟

ولهذا كان المسلمون في الصدر الأول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يُقَصِّرون في الخدمة، ولعمر الحق إن العبد المملوك في حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الإفرنج من غيرهم أو نفوذهم.

***

خلاصة البحث

في تحرير الدلالة على إثبات الوحي، وحجة الله به على جميع الخلق

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى، ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي، والكلام في إعجاز القرآن اللغوي والعلمي، وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الإنساني من كل وجه ثم أضف إليها تلك العشرة الأنواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الإنسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والأدبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول إليها في هذا العصر، موضحة بما بيناه من أصول وقواعد في الإسلام، هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الأنبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الأعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين، وأنه لم يُعرف عنه أنه كان يبحث في شيء من العلوم، ولا أنه نطق بشيء من مسائلها، ولا أنه عُرف بالبلاغة والفصاحة، أو عُني بالشعر أو الرجز أو الخطابة، والعلم القطعي بأنه إنما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين، وهي سن لم يُعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم، ولا في تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها ائتنافاً لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره، وأنفة شبابه وشرخه.

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً إلى الجزم بأن هذا في جملته وتفصيله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم، وأنه لا يعقل إلا أن يكون وحياً من الله تعالى، اختصه به.

فإذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون شيء منها من تأثير الوراثة والبيئة والتربية، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في

أسفاره القليلة، أو أنه فكر في حاجة البشر إلى مثلها بما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم، فهل يُعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة، وهذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور إلى أن تظهر في سن الكهولة بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب، وقوة البرهان في العقول، فتُحدث هذه الثورة في الأمة العربية، المغيرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله بها؟

وأعجب من هذا كله أن يظهر في هذا العصر أن أمم العلم والفنون الواسعة والحضارة العجيبة أشد حاجة إليها ممن قبلهم؟ كلا، إن هذا لم يعرف مثله في البشر، فلم يبق إلا أنه علم موحى به من الله عز وجل مفروض على كل عاقل بلغته دعوته أن يتبعه ويدعو إليه.

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدي به لتكميل إنسانيته، وهداية أمته، وإعدادها لسعادة الدنيا والآخرة، فإن اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته، أو مداواة مرضه، لشبهة في بعض مسائله، أو خيبة الأطباء في بعض معالجتهم للمرضى، فهو أعظم أطباء الأرواح والاجتماع فيهم، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام].

«رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً».

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنه خاتم النبيين، ورحمته العامة للعالمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

***

الخاتمة

في تجديد التحدي بتعاليم الوحي المحمدي
ودعوة شعوب الحضارة إلى الدين الإسلامي

تلك عقائد دين محمد وقواعد تشريعه، وأصول إصلاحه الديني والاجتماعي والمالي والسياسي، مسرودة بالإجمال، مؤيدة بشواهدها من آيات القرآن، مجردة من حلل المبالغات الخطابية، وعاطلة من حليّ الخلابة الشعرية، ونحن المسلمين نتحدى الفلاسفة والمؤرخين من جميع الأمم، ولا سيما أحرار الإفرنج، بأن يأتونا بمثلها أو بما يقرب منها من تاريخ أعظم الأنبياء، وأشهر الحكماء، وأبلغ الأدباء، وأنبغ ساسة الأولين والآخرين، مع صرف النظر عن كونه ﷺ كان -كما بينا أولاً وآخراً- أمياً، وجاء بذلك كله بعد استكمال السن التي صرح علماؤهم بأن الإنسان يستحيل أن يبتدىء أو يبتدع فيها علماً أو فناً، أو يسن فيها شرعاً أو يضع قانوناً، أو أن ينهض في العالم بانقلاب عظيم أو عمل خطير، مما لم يكن قد ظهر استعداده له وأخذ بمقدماته في ريعان الصبا، وشرخ الشباب، وقد بينا الفرق العظيم بينه وبين موسى وعيسى، أعظم أنبياء بني إسرائيل، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

نتحداهم بهذا القرآن تحدياً علمياً إصلاحياً سياسياً في أرقى عهد للبشر في العلم الكسبي، مع صرف النظر عما كان من تحدي سلفنا بإعجاز عبارته وأسلوبها وبلاغتها العربية في أرقى عصورها. ونتحداهم به تحدياً عملياً من حيث أن تنفيذ محمد ﷺ لإصلاحه في تأثيره وسرعته وعمومه من أكبر المعجزات التي تفوق استعداد البشر، فكيف وقد اجتمع العلم والعمل.

وبيانه: أن العلم بما يصلح به حال البشر في أفرادهم وجماعاتهم وشعوبهم، علم واسع يقل في الأذكياء مَن يتقن المدون منه في الكتب الذي يلقن في المدارس، ثم يَقِّل من يستطيع تنفيذ ما يتعلمه منه في أمة يتولى أمر سياستها وإدارة الأحكام فيها، فهل في الإمكان أن يوجد إنسان يضع هذا العلم ذا الشُعب الكثيرة، بل العلوم العالية،

ثم يكون هو الذي يتولى تنفيذها وإصلاح أمة كبيرة بها، ويتم له النجاح في ذلك بنفسه في عصره؟

إن هذا ليس في استطاعة أحد من البشر، ولم يقع من أحد منهم فيما غبر.

وأصول هذا الإصلاح وفروعه محفوظة إلى اليوم، وقد فسد أكثر البشر لتركهم الاهتداء بها!!

وأما تنفيذ محمد ﷺ لهذه التعاليم فقد تم في عشر سنين من تاريخ الهجرة الذي كان بدء حياة الحرية له ولمن آمن به، وقد ظل قبلها يدعو إلى أصولها المجملة عشر سنين، أولاً بالسر، ثم بالجهر مع احتمال الاضطهاد والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل والنفي، الذي اضطر المؤمنين إلى هجرة بعد هجرة، وبعد الهجرة العامة بالتبع له ﷺ صار لهم قوة، فكان المشركون يعتدون عليهم ويقاتلونهم، في دار هجرتهم، فكانوا في حالة حرب وقتال مع المشركين كافة، وكذا أهل الكتاب المجاورين له، وكان ﷺ عقد لليهود معاهدة بتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم بشرط ألا يظاهروا المشركين عليه، فنقضوا عهده المرة بعد المرة، وظاهروهم بل أغروهم بقتاله، فاضطر إلى قتالهم وإجلائهم من جواره في الحجاز، وظل المسلمون في نضال مع المشركين مدة ست سنين، مدافعين عن أنفسهم في كل قتال، دفاع الضعيف -المؤيد من الله- للأقوياء المخذولين، وفي أواخر السادسة عقد معاهدة الحديبية مع المشركين على وضع القتال عشر سنين، ثم غدر المشركون ونقضوا العهد، فعادت حالة الحرب، وفتح المسلمون مكة عاصمة قريش الدينية والدنيوية، ومثابة جميع الأمة العربية، في سنة ثمان من الهجرة وحج النبي ﷺ حجة الوداع في آخر سنة عشر، وأنزل الله تعالى عليه في يوم عرفة منها ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

ففي عشر سنين تم توحيد الأمة العربية التي كانت أعرق أمم الأرض في الشقاق والتفرق والعداء، وإنما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأييده عز وجل لرسوله

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال]، وبما أعده الله تعالى له من إتمام مكارم الأخلاق، وما وفقه وأرشده إليه من حسن السياسة المبينة في قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية، وذلك أن العرب كانت أعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد، لعراقتهم في الحرية، وشدة بأسهم، وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين، والرؤساء الروحيين المسيطرين، الذين يذللون الأمم ويخضعونها لكل ذي سلطان قوي.

فليدلنا علماء التاريخ العام على نبي من الأنبياء، أو حكيم من الحكماء، أو ملك من الملوك الفاتحين والمشترعين، ربَّى أمة من الأمم في عشر سنين أو عشرين، فجعلها أهلاً لفتح الأمصار، والسيادة على الأمم الحضرية، وسياستها بالعدل والرحمة، وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالإقناع وحسن القدوة، ولا نشترط أن تكون هذه الأمة التي علمها وهذبها ووحدها رجل واحد كالأمة العربية في عتوها، ولا أن يكون هذا الرجل أمياً كمحمد ﷺ.

فأين الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية في عصر العلوم والفنون والفلسفة والحضارة والقوانين، ونُظم الإجتماع والحرب من الوحدة العربية المحمدية، في عهد الأمية والجاهلية؟ بل أين الوحدة الإسرائيلية، في عهد الآيات والعجائب الكونية، من الوحدة العربية الخاصة، ثم الوحدة الإسلامية العامة، في عهد آيات القرآن وعلومه الإلهية؟

ثم نَفَّذ ذلك التشريع الأعلى، والهداية المثلى، خلفاء محمد الراشدون، وكثير من ملوك المسلمين الصالحين، بما شهد لهم به تاريخهم، واعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الإفرنج وغيرهم، بالجمع بهما بين العدل والرحمة، وبأنهم جددوا بهما

الحضارة الإنسانية ورقوها، وأحيوا العلوم والفنون الميتة وهذبوها واستثمروها، وكانوا أساتذة العالم فيها.

ثم كان من قوة هذا الدين في الحق والفضائل أن عادته جميع أمم الإفرنج وحاربته بجميع قواتها الصليبية، الهمجية منها والمدنية، ثم بعلومها وفنونها ونظمها المدهشة، ولا تزال تحاربه وتبذل الملايين من الدنانير لتحويل أهله عنه، بعد زوال قوة دوله، وغلبة الجهل على شعوبه، بجميع أساليب الدعوة المسماة بالتبشير وبجميع وسائل القوة والنظام، وبمساعدة الملحدين فيه، كالقاديانية، وتقترف دولهم وجمعياتهم الدينية في ذلك من رذائل الظلم والبغي والكذب ما يتبرأ من مثله شرار المجرمين، ولم يستطيعوا له هدماً، ولا أن يُنَصِّروا مسلماً واحداً عرف الإسلام[1].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة].

***

(١) هذا ما نقله الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي في مقدمة تفسيره عن إجماع المبشرين، كما تقدم في مقدمة الطبعة الأولى.

نتيجة التحدي بالوحي المحمدي

دعوة شعوب المدنية: أوربة وأمريكة واليابان، بلسان علمائها إلى الإسلام

لإصلاح فساد البشر المادي وتمتيعه بالسلام والإخاء الإنساني العام

إذا عجز حكماء هذا العصر وعلماء الحياة والاجتماع والأخلاق والمؤرخون من أحرار الإفرنج وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد ﷺ، فيما عُلم من تاريخه المعروف المشهور جاء بمثل هذا القرآن في خصائصه، ولا سيما التعاليم التي لخصنا كلياتها في هذا الكتاب، وقدر أن ينفذها ويربي بها أمة كالأمة العربية حتى كان لها بها من الأثر الديني والمدني في العالم مثل أثرها -وإنهم لعاجزون عن ذلك قطعاً- أفلا يكون عجزهم هذا برهاناً على أن دين محمد وكتاب محمد وهدي محمد وتربية محمد للأمة العربية، بما قلب به نظم العالم الإنساني كلها، وحولها إلى ما هو خير منها - كل أولئك من خوارق العادات، وما لا يقبل المراء الظاهر من المعجزات؟ بلى.

وإذ كان حقاً واقعاً ماله من دافع، فما المانع من عد هذه التعاليم وحياً من رب العالمين، العليم الحكيم، وما معنى كونها وحياً إلا أنها علم أفاضه الله تعالى على روح محمد وقلبه، بطريقة خفية غير طرق العلم الكسبية المعروفة للبشر عامة، وفوق الإلهامات النفسية القليلة التي تُؤْثَر عن بعض الخاصة؟ وما معنى كونها معجزة إلا أنها جاءت على غير المعهود في علم البشر الكسبي والنفسي، وخلاف المقرر في علم النفس والفلسفة العقلية وسنن الاجتماع، وتواريخ الأمم، وسِيَر الحكماء والعلماء والملوك، وفوق المعروف عن الأنبياء أيضاً وإن كانت من جنسها، فالأنبياء قد أنبأوا ببعض الغيوب الحاضرة في عصرهم والعصور التي أتت بعدهم، وأنبأ محمد ﷺ بما هو أصرح منها وأظهر وأكثر، وبغيوب سابقة كانت قبل نبوته بقرون ولكن لم يجيء أحد منهم بمثل ما تقدم إجماله في المقاصد العشرة العالية من العلم والحكمة والتشريع.

قد بينا لكم أيها العلماء الأحرار، بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العلل والآراء لجعل ما جاء بهِ من العلم الإلهي الأعلى، والتشريع المدني الأسمى، والحكمة الأدبية المثلى، نابعاً من استعداده الشخصي وما اقتبسه في بيئته وأسفاره من أقوال بعض الأعراب، وهي شوارد ما كان يُعنى مثله بحفظها، وآراء أهل الكتاب، وهي أوابد ما كان يثق بها فيحفل بقيدها، ولا كان هذا من شأنه. وعَلمتم أن بعض ما قالوه افتراء على التاريخ، وأن ما قد يصح منه عقيم لا يُنتج ما ادعوه، وعَلمتم أنه في جملته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر وسنن الاجتماع، ووقائع التاريخ.

ونحن نتحداكم الآن بالإتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعي من تاريخه - علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق، وسنن الإنسان وعلم الاجتماع.

فإن لم تستطيعوا -ولن تستطيعوا- أن تأتونا بعلل تقبلها العقول، وتؤيدها النقول، فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته، وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لإصلاح البشر، وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الإيمان، ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به، بعد أن عجزت علومكم الواسعة، وفلسفتكم الدقيقة، أن توقف عدوى فساد الإباحة وعبادة الشهوات وفوضى الأفكار في الأمم، وعجزت عن منع دول حضارتكم أن تنفق معظم أموالها المنتزعة من شعوبها ومستعمراتها في الاستعداد لحرب البغي والعدوان المدمرة، وتأريث العداوات بين شعوب الأرض كافة، بل زادوا شعوبهم عداوة وشنآناً، وبغياً وعدواناً، بما هو شر مما عليه قبائل الهمج، وسباع الوحش والطير والسمك، فقد كان غاية شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نكبة على البشر، فإن أبيتم وتوليتم أيها العلماء عن دعوة الإسلام إلى السلام، فعليكم إثم شعوبكم ودولكم وسائر الناس.

لقد كتب النبي ﷺ لكل ملك وزعيم قوم دعاه إلى الإسلام«فإن توليت فعليك إثم من وُليت أمرهم»، ونقول لكم اليوم: فإن توليتم فعليكم إثم البشر كلهم،

لأنكم إذا أظهرتم الإيمان وتواطأتم على نشر الدعوة إليه، لا تلبث جميع الشعوب أن تستجيب لكم، وترغم حكوماتها على أخوة الإنسانية والسلام بهداية الإسلام.

***

علوم البشر لا تستقل بهدايتهم

لأنهم لا يدينون إلا لوحي ربهم

ألا إنه قد ثبت بالحس والعيان، أن العلم البشري وحده لا يُصلح أنفس الناس، لأنهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية إلى اتباع آراء أفراد منهم، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشرية، وهو ما يأتيهم من ربهم.

ولا يوجد في الأرض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الإسلام، وقد بينا لكم أصول تشريعه الروحي والسياسي والاجتماعي الصالح لكل زمان ومكان، وأنه دين السلام والحق والعدل والمساواة، التي تعطي كل شعب وكل فرد حقه، فبه وحده يمكن البرء من الأدواء المالية والسياسية والحربية والاجتماعية كلها، فاليهودية دين موقت خاص غير عام وانتهى زمانها، والمسيحية إصلاح روحي لليهودية ليس فيها تشريع، ولا تصلح وصاياها الزهدية التواضعية لحضارة هذا العصر، وإنما كانت موقوتة لإصلاح غلو اليهود والروم في الطمع الدنيوي والشهوات كما تقدم، والبرهمية والبوذية والمجوسية، على ما تعلمون فيهن من وثنية وخصوصية وخرافات وعداوات، وتفاوت طبقات، يدينون الله بجعل بعض من كرمهم من البشر أخِسَّاء بالفطرة كالحشرات، أو رجساً من عمل الشيطان، فلا يصلح شيء منها لتثقيفهم بالتوحيد والعرفان، والإخاء الإنساني العام. فإذن لا ملجأ ولا وزر، ولا ملتحد للبشر، إلا دين الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران]، فلئن اهتدت به أمة قوية منظمة لتصلحن به سائر الأمم، ولتكونن لها السيادة العليا في جميع الأرض، وليدخلن العالم الإنساني في طور جديد من الترقي، والجمع بين منافع القوى المادية، والمعارف الروحية، وهما منتهى السعادة الإنسانية.

الرجاء في العلماء المستقلين دون السياسيين:

بلغنا أنه دعا بعض العلماء منكم إلى عقد مؤتمر من كبار علماء الشعوب كلها للبحث في الوسائل التي يمكن أن تقي حضارة العصر من غوائل الشحناء القومية والدولية، ولئن عُقد هذا المؤتمر فلن يكون أمثل ولا أرجى من هذه المؤتمرات التي تعقدها الدول في الأمم وعواصم السياسية، وهي لم تزد الأدواء القومية إلا إعضالاً، والأخطار الدولية إلا تفاقماً، والشعوب التي تتصرف بثروة العالم إلا فقراً، وإنما الدواء الواقي المضمون بين أيديهم وهم لا يبصرون، وحجته البينة تناديهم ولكنهم لا يسمعون ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وأما أنتم أيها العلماء المستقلوا العقول والأفكار، فالمرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا، وأن تعلموا، فإن كانت دعوة القرآن لم تبلغكم حقيقتها الكافلة لإصلاح البشر، على الوجه الصحيح الذي يُحرك إلى النظر، بما ضُرب دونه من الحُجب، أو لأنكم لم تبحثوا عنها بالإخلاص، مع التجرد من التقاليد المُسَلَّمة عندكم والأهواء، ولأن الإسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته: بل صار المسلمون في جملتهم حجة على الإسلام وحجاباً دون نوره، إلى غير ذلك من الحجب والأسباب، التي بينتها في مقدمة هذا الكتاب، فأرجو أن يكون هذا الكتاب كافياً في بلوغ الدعوة إليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر، فإن ظهر لكم بها الحق فذلك ما نبغي ونرجو لخير الإنسانية كلها، وإن عرضت لكم شبهة فيها، فالمرجو من حبكم للعلم، وحرصكم على استبانة الحق أن تشرحوها لنا لنعرض عليكم جوابنا عنها والحقيقة بنت البحث كما تعلمون.

ولا أراكم تعدون من الشبهات الصادة عن الإسلام (بعد أن ثبتت أصوله بما ذكرنا) أن فيه أخباراً عن عالم الغيب الذي وراء المادة لا دليل عليها عندكم، فإنما مصدر الدين عالم الغيب، ولو كان مما يعلمه البشر بكسبهم ويدينون به لما كانوا في حاجة إلى تلقيه من الوحي، وقد بينا أن تعاليم القرآن قد أثبتت أنه وحي من عالم

الغيب، وقامت برهاناً على وجود الله وعلمه وحكمته، فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسليم، وحسبكم أنه ليس فيه منها ما يقوم البرهان على استحالته، وأن منها ما كان يُعد من وراء إدراك العقل، ثم كان من ثمرات العلم أن أثبت وجود مثله بالفعل كتخاطب أهل الجنة وأهل النار وترائيهم وهم فيها على ما بينهما من البعد، ولا تكونوا ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[آل عمران].

معجزات القرآن الطبيعية والفلكية:

وأما أخبار القرآن عن عالم الغيب المادي من تكوين وتاريخ، فمن معجزاته الإيجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الأخيرة من معانيها ما لم يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فيه. ومن معجزاته السلبية أنه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئاً من أخباره القطعية، على أن أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة والعبرة والتهذيب، ويكفي في مثل هذا أن تكون الأخبار على المألوف عند الناس، ولا يُنتقد عليها إذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية لأنها ليست مما يُبعث الرسل لبيانه، ومنها ما لا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق في العلم أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الأولين بالوحي، بل لا يصح أن يأتي فيها ما يجزمون بإنكاره بحسب حالتهم العلمية لئلا يكون فتنة لهم، وقد قال نبي الإنسانية العام «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم في صحيحه.

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الأول (التكوين) التي اختلف في فهمها الناس أن مادة الخلق (دخان) وهو عين ما يسمى السديم، وأن السموات والأرض كانتا رتقاً، أي مادة واحدة متصلة، ففتقهما الله وجعل كلاً منهما خلقاً مستقلاً، وبث فيهما أنواع الدواب، ولم يكن أحد يعتقد أو يتصور أن في شيء من هذه الأجرام السماوية حيواناً، وأنه جعل من الماء كل شيء حي، وأنه خلق جميع الأحياء النباتية والحيوانية أزواجاً، فجعل في كل منهما ذكراً وأنثى، وأنه جعل كل نبات موزوناً

يعني أن عناصره متوازنة على نسب مقدرة، وأنه أرسل الرياح لواقح، وأنه ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزُّمَر: ٥]، والتكوير هو اللف على الجسم المستدير وهو صريح في كروية الأرض ودورانها اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء إلى عهد قريب بعد الإسلام. وأمثال هذا فيه كثير، حتى إن بعض آياته في الشمس والقمر والنجوم، وسبحها في أفلاكها وجريانها إلى أجل مسمى، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تُفهم فهماً صحيحاً إلا في ضوء علم الفلك الحديث.

وأعجب منه إثباته أن للخلق سنناً لا تتبدل وبيانه لكثير منها، ومن سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر إليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقرون، ولم أوردها في هذا البحث، لأنها قد يقال إنها مما يعرف بالعقل، وليس من موضوع الوحي، وسأفصلها في الجزء الثاني المتمم لهذا الكتاب، وأختم دعوتي هذه بتلاوة قول الله عز وجل في (آخر سورة ٤١ حم - فُصِّلَت).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾.

اللهم إني قد بلغت، اللهم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، اللهم اشهد فأنت خير الشاهدين، والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب

تقاريظ كتاب الوحي المحمدي

قد جاءنا من كتب الثناء والدعاء ورسائل التقريظ لهذا الكتاب ما هو فوق المعهود في تقريظ الكتب، حتى من معتادي الإطراء الشعري، ونُشر شيء من ذلك في الصحف التي قلما نراها، فكان من الشكر لله تعالى وللمحسنين من الناس، والتعاون على إذاعة دعوة الإسلام، أن ننشر أهم ما حفظناه مما كتب إلينا، ومما نشر في الصحف التي اطلعنا عليها، وقد فعلنا في آخر الطبعة الثانية، وكان ذلك كله بعد الاطلاع على الطبعة الأولى المختصرة، ونعيد الآن في الثالثة بعضه ونختصر بعضاً، ونزيد عليه بعض ما كتب إلينا بعد ذلك.

ونبدأ بكتابين كريمين، لملكي الإسلام الكبيرين، الإمامين الجليلين: إمام العترة الزيدية يحيى بن حميد الدين ملك اليمن الميمون، وإمام أهل السنة والجماعة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية، وخادم الحرمين الشريفين، أدام الله توفيقهما، وأعز العرب والإسلام باتفاقهما وتعاونهما، وإننا ننشرهما بحسب تاريخ ورودهما.

***

كتاب جلالة الإمام يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

الختم

أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين، الإمام يحيى حميد الدين

إلى السيد العلامة محمد رشيد رضا صاحب المنار حفظه الله

لقد ظفرت العيون بما تشتهيه، وحظيت من الأماني بما تبتغيه بعد إرسال رائدِ لحظها، وتمتعها بالوموق على تلك الرياض الأنيقة، وينابيع التحقيق الغزيرة التي أودعتموها ذلك المجموع، النفيس المطبوع، المسمى (بالوحي المحمدي) فإنه والحق

يقال وحيد في بابه موضوعاً وتنسيقاً، واستدلالاً وسياقاً، يُهدي إلى القلوب ما يرفع عنها الرين والكروب، ويتحف المُطَالع بما تستلذه المسامع، ويستطيبه القارىء والسامع، وتثلج له الصدور، وتنبعث من حقائقه أشعة النور، فجزاك الله خيراً على هذه الخدمة الدينية التي نراها من العمل الصالح، والمتجر الرابح، والقصد الناجح، وإنا لتعميم الانتفاع به نطلب منكم أن ترسلوا إلينا من نسخه المصححة أخيراً مائة نسخة على حسابنا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢

***

كتاب جلالة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

إلى حضرة الأخ المكرم السيد محمد رشيد رضا حفظه الله تعالى:

السلام عليكم ورحمة الله. أما بعد فقد تلقينا كتابكم الكريم، المؤرخ في ٢٣ من رمضان سنة ١٣٥٢ وأحطنا علماً بما ذكرتم بارك الله فيكم. لقد اطلعنا على كتابكم (الوحي المحمدي) فَسَرَّنَا اهتمامكم بإخراجه للناس، وقيامكم بما فرض الله من الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، في زمن تكاثرت فيه الشبهات ممن ران الشيطان على قلوبهم فصدهم عن سبيل الله حتى ضلوا وأضلوا. فكان كتابكم من أبلغ القول في إظهار حجة الله القائمة على عباده، يدعو من كان له قلب إلى دين الحق، ويبين للجاحد الملحد بطلان حجته، فجزاكم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، وأخذ بيدكم في تأييد الدعوة الإسلامية، ونشر عقائد السلف الصالح، ووفقنا وإياكم لما فيه نصر لدينه، وإعلاء لكلمته، إنه على كل شيء قدير.

والسلام. في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٥٢ الختم

***

كلمة من كتاب لإمام طائفة الأباضية الهمام

كنا أهدينا نسخة من كتاب الوحي المحمدي إلى هذا الإمام الجليل، مع كتاب خاص فجاءنا كتاب منه (من نزوى - عُمان) بعد جمع ما تقدم وما بعده، وقبل طبعه، قال في أوله بعد البسملة:

من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي

إلى حضرة السيد العلامة المحقق أخينا السيد محمد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد، فإن رأيتم في إبطائنا في الرد على كتابكم الكريم المرسل معه مؤلفكم فذاك لا عن إهمال وعدم تقدير. وإن لكم ولأمثالكم من إخواننا علماء الدين الحنيف منزلة كبرى في القلب لا يحلها سواهم ... (ثم قال بعد بيان العذر):

أما مؤلفكم العظيم فهو في غنى عن التقريظ والمدح، وإعجابنا به لا يُحد، ولا شك أنه الحجة الدامغة والقول المتين، لمن لا يدين بهذا الدين القويم، وفقكم الله لخدمة الإسلام والمسلمين، وبارك الله فيما تنوون وتقصدون، وسلام الله عليكم.

الإمضاء

***

كتاب صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر ورئيس المعاهد الدينية الذي أعيد إليها بعد ثورة من العلماء والطلاب، كادت تقضي على العلم والتعليم فيها أو يعاد إليها، وأيدتهم الأمة كلها فيها.

صديقي السيد الجليل الأستاذ محمد رشيد رضا

أستطيع بعد أن فرغت من قراءة كتابكم (الوحي المحمدي) أن أقول إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الإسلامي القويم فقد عرضتم خلاصته من

ينابيعه الصافية عرضاً قلَّ أن يتيسر إلا لفرع من فروع الشجرة النبوية المباركة، وقد استطعتم أن تُوفقوا بين الدين والعلم توفيقاً لا يقوى عليه إلا العلماء المؤمنون، فجزاكم الله عن الإسلام أحسن ما يجازي به المجاهدون، ولكم مني تحية الإخاء والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد مصطفى المراغي

***

تقريظ الأستاذ الفاضل صاحب المصنفات المفيدة

الشيخ محمد أحمد العدوي من المدرسين المصلحين في الأزهر

(الوحي المحمدي) كتاب جديد أخرجه الأستاذ الكبير صاحب المنار، وآية كبرى من آيات الله في التأليف، وحسنة من حسنات صاحب المنار (وحسناته كثيرة). تقرأ هذا السفر فترى فيه حججاً دامغة، وإحاطة بمقاصد الإسلام، ودفعاً لشُبَهٍ يوردها أعداء الحق، ولقد يخيل إليك أثناء دراستك للكتاب أن صاحبه لمس أمراض النفوس فوضع لها علاجها، كما تراه قد أقام الحجة من العقل والنقل على الملحدين من رجال العلم ولا سيما الماديين منهم، وإنه لكتاب تحتاجه جميع الطبقات، وحاجة الذين يهمهم نشر الدين والدعوة إليه أشد، أفاض في مباحث الوحي، وأقام الأدلة على أن ذلك الوحي لم يكن نابعاً من نفس محمد ﷺ كما زعم المسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) وغيره وإنما هو نازل من السماء.

ليس بالعجيب أن نرى لصاحب المنار هذه المعجزة العلمية فإن البحوث الدينية والتحقيقات العلمية قد امتزجت بلحمه ودمه، حتى أصبحت الكتابة فيها هينة عليه لينة له، ويأخذ منك العجب منتهاه حين تجلس إليه فيحادثك وتحادثه وقلمه يسيل بتحرير مسائل في الدين أقل ما يحتاج الكاتب إليه فيها أن ينقطع عن العالم ليجمع شتات فكره رجاء أن يلم بأطراف مسألة منها.

وهذه آثاره في تفسير كتاب الله تعالى ناطقة بنبوغه وتفوقه، وأنه بَزَّ علماء التفسير جميعهم في إبراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة، وهداية عامة شاملة، وسعادة لهم في دينهم ودنياهم، تقرأ طائفة من التفسير فتحس في خلال القراءة أن

من ورائك سوطاً من أسواط الحق يسوقك إلى الفضيلة ويردعك عن الرذيلة، وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به في هدايته وفقه معانيه هي أغلى شيء في هذه الحياة، وأعظم رزق ساقه الله إليك، كما تحس في ذلك التفسير أنك في دائرة من دوائر المعارف الإلهية الكبرى.

وجدير بأستاذ له هذا الأثر أن يطلع على الناس بأمثال (الوحي المحمدي) مما يغذي أرواحهم، وينمي معارفهم، دع ما وراء ذلك كله من قوة في البيان، ورواء في الأسلوب، وتنسيق لطرق الاستدلال، ودقة في المأخذ، كل ذلك تجده في مؤلفات صاحب المنار، وتراه أوضح وأجلى في (كتاب الوحي المحمدي) وما سبقه من كتاب (نداء للجنس اللطيف، وحقوق المرأة في الإسلام).

وكل ما نتمناه أن يُلْهَم الناس رشدهم، ويعرفوا للعاملين قدرهم، فيكافئوهم على هذه المجهودات بمطالعة كتبهم، وأن ينسأ الله في أجل صاحب المنار حتى يتم تفسيره الذي خدم فيه أحد عشر جزءاً من أجزاء القرآن الكريم، وأن يمده بروح منه ويبعد عنه مشاغل الحياة حتى يعيش موفور الصحة هادئ البال.

وأن يستجيب فيه دعاء الأستاذ الإمام وهو يقول في آخر حياته:

فيا رب إن قدرت رُجْعَى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً ... رشيداً يضيء النهج والليل قاتم
ويخرج وحي الله للناس حاوياً ... من الرأي والتأويل يَهْدِي ويلهم

محمد أحمد العدوي

***

كلمة من كتاب للأستاذ الكريم صاحب الإمضاء

لئن اجتمع علماؤنا الرسميون على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

أطال الله حياتك يا مرشد الحيران، ويا خليفة حكيم الإسلام، حتى تصير الأمة الإسلامية (رشيدية) اسماً ولحماً ودماً إن شاء الله، رغم أنف الحاسدين أمثال صاحب سجود الشمس تحت العرش، وأعوذ بك ربي أن أكون من الجاهلين.

يا صاحب الفضيلة:

قرأت كتابكم (الوحي المحمدي) إلى آخره فإذا به فيض من نور الله، وقبس من ضيائه، يجب على كل مسلم متدين أن يقرأه، إذ أنه خير كتاب من نوعه ألف في هذا الموضوع، بل يجب على كل مسلم غيور أن يعمل على ذيوعه وانتشاره بين طبقات الأمة حتى يعم نفعه، وهذا ما عاهدت الله عليه خدمة للدين وابتغاء وجهه الكريم.

أحمد أحمد القصير في كَفْر المندرة

***

كتاب الوحي المحمدي

لداعية الإصلاح العالم المستقل، والمناظر المستدل الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الرفاعي اللبان بأسيوط، وهو مما جاءنا بعد الطبعة الثانية (قال):

نظر أبو العلاء المعري إلى نفسه فرآها وقد صفت ونجت من مزالق معظم النفوس، وأدرك عقله نقياً من الخرافات والأوهام التي أضلت العقول، وألفى روحه غنية بالفلسفة الصحيحة التي ترى في المادة ستاراً كثيفاً يُسدل على الحقائق، ووجد شعريته فياضة بأرقِّ المعاني، في أدق الألفاظ والمباني، فهتف من أعماق قلبه منشداً:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

ونحن بدورنا ننظر إلى نفس السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار فنراها وقد أُشربت حبَّ الدين الإسلامي الحنيف والدفاع عنه إشراباً، ونرى عقله وقد أدرك أسرار الإسلام إدراكاً، ونلفى روحه صافية تقية نقية قد أنجبت أسمى الآثار إنجاباً، ونسبَحُ في مؤلفاته فنعلمه الطود الأشم والفارس المجلّي، والمحقق النادر

المثال، والكاتب المبخوت الذي لا يُشَق له غبار، ثم نقع في سياحتنا على كتابه (الوحي المحمدي) فنقف طويلاً، ونهتف مثل ما هتف المعري منشدين مخاطبين السيد الرشيد المرشد:

وأنــت وإن كنــت الأخــير زمانــه ... أتيــتٍ بــما لم تــستطعه الأوائــل

ولقد كنا نؤمن بأن الله تعالى أوحى إلى عبده ورسوله ﷺ ما أوحى، مستدلين بنصوص القرآن الكريم وببعض البراهين العقلية التي تخير (؟) الوحي إلى النفوس الصافية الراقية، ولكنا ما كنا قادرين أن نُقنع بهذا ذوي العقول العصرية وأولي البحوث الدقيقة القوية، فإذا دار النقاش بيننا وبين فريق من هؤلاء لم يعجبهم كثيراً مما ندلي به، وألقوا في سبيلنا عقاباً، وافتجروا[1] حفراً، وأقاموا متاريس، وغرسوا أشواكاً، فتنتهي المناظرة ولا اقتناع ولا رضاء، ويُنشر عنا العجز عن بيان وجه الحق في هذه المسألة مع أهميتها ونفاستها ونفعها العظيم إذا أحسن تبيانها، وأتقن توجيهها وعرضها على طالبيها، فكان كتاب (الوحي المحمدي) للسيد الشريف والمصلح الكبير، أستاذنا محمد رشيد رضا صاحب المنار وافياً بالمطلب على أتم وجوهه، كافياً في الإقناع لأكبر متشبث متعنت، حجة صادقة لا تُدفع، على صحة الوحي الرباني لرسول الله ﷺ سيد العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

يرى قارئ «الوحي المحمدي» مقدمة وجيزة بديعة تُجْمل الكتاب وتُبرز مغزاه في صورة مستملحة جزلة طيبة، يعلم منها ما يجب الإفرنج عن الإسلام: من الكنائس المعادية، والسياسة الخادعة، وحال المسلمين الواهية، وما يعوق الأجانب عن فهم القرآن من جهل بلاغته، وقصور ترجمات القرآن عن إدراك غايته، وعدم وجود دولة إسلامية تدافع عن هدايته، ويفهم منها القصد من الكتاب على أتم وجه من وجوه الصواب. ويجول القارىء بعد ذلك في جنة الكتاب الغنَّاء فيعرف معنى

---

(١) افتجر الكلام اختلقه، لم يتبع به أحداً ولم يتابعه عليه أحد. فلعل الأصل افتجروا شبهاً واحتفروا حفراً.

النبوة والوحي والرسالة وحاجة الناس إليها، ويدرك عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومقدار ما جنت عليها كتب السابقين بما يجريء على الشرور والمفاسد، ويتيقن وجوب إيمان الناس برسول الله ﷺ فاتباعه هو الدواء الناجع لأدواء الهيئة الاجتماعية. ويتنقل القارىء من شجرة النبوة الوارفة الظلال إلى أن نبوة الرسول ﷺ هي الممتازة، فنبوة الأنبياء الإسرائيليين كانت -على قولهم- أشبه بصناعة تُتلقى في مدارس خاصة، ونبوة موسى الكليم عليه السلام قد ينكرها الملاحدة، لأنه تربى في بيت فرعون وهو بيت علم وتشريع، فلا عجب إذا جاء بشريعة كالتوراة. ونبوة المسيح عليه السلام يُعقب عليها الملاحدة أيضاً فينقصون قدرها ويغضون من قيمتها، ويقولون إنه لم يأت بشيء جديد. وأما نبوة الرسول ﷺ فلا يمكن الطعن عليها بمثل هذا لأن سيدنا محمد ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يتصل ببيئة علم أو شريعة، فمجيئه بهذا الدين دليل صدقه وحقية رسالته. والحقيقة أن نبوة الرسول ﷺ مثبتة لغيرها من النبوات لا تصح إلا من طريقها ومشكاة نورها.

ويمتلئ القارىء بعد هذا علماً وتحقيقاً حين يقرأ الفصول البليغة عن الأدلة العقلية والكونية على صدق الوحي المحمدي الإلهي فيطمئن قلبه وتستريح نفسه وينشرح صدره، ويشكر لله توفيق السيد رشيد حتى ألف هذا الكتاب الذي أنار طريق الوحي بآلاف المصابيح الكهربائية الساطعة القوية. ثم يرتوي القارىء من نهر فياض، عذب صافٍ، يجري منه التحقيق ذهبياً عسجدياً، فيعرف مقاصد القرآن الكريم وهدايته للبشر وإظهار الحق في الإيمان بالله تعالى، وفي عقيدة البعث والجزاء، ويلمس الإصلاح القرآني العظيم للنفس والروح والجسد والأفراد والجماعات والنهضة التي أزجاها في الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب، وحياة الأسرة. فإذا انتهى من الكتاب خرج منه بكنز ثمين من العلم الصحيح النقي وانتقل إلى جو من السعادة فسيح بما وصل إليه من هدوء في نفسه واطمئنان في قلبه واقتناع في عقله لا يملك نفسه أن يصيح: حياك الله أيها السيد الرشيد، لقد سُدت بإصلاحك، ورشدت بمباحثك القيمة الدالة على إشراق نور الحق في قلبك، فهنيئاً لك عملك، ومشكور لك سعيك.

ولقد استوعبت كتاب الوحي المحمدي وهنئت باغترافه وارتشافه عدة مرات فرأيته رحيقاً من العلم مختوماً ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وأنا أشهد صادقاً أن السيد أدى بكتابه إلى العالم الإسلامي أجلَّ الخدمات، وعبَّد للباحثين من الغربيين والعصريين منهج البحث الهادىء الرزين، القوي المبين، وأسقط حجج الذين كانوا يحتجون بأنهم غير واجدين من يقدم لهم المطالب سائغة ميسورة، وسيكون له إن شاء الله أثر جليل في توجيه المباحث الدينية وجهة طيبة في صالح الإسلام ومستقبله العتيد بإذن الله. ولقد ظهر إخلاص السيد في كتابه فطُبع مرتين في أشهر وأقبل عليه الشرق والغرب وتُرجم إلى عدة لغات أدام الله نفعه، ونشر شذاه وعُرفه وأطال عمر السيد ليتحف العالم الإسلامي بدرره الغالية وتحقيقاته السامية إنه أكرم مسئول وعلى كل شيء قدير.

مصطفى أحمد الرفاعي اللبان

(المؤلف) فات المقرظ الكلام في دعوة علماء شعوب الحضارة إلى الإسلام وتحديهم بمعجزات القرآن.

***

كتاب الوحي المحمدي

نقد وتحليل - نظرة عصرية في إعجاز القرآن(*)

سوء أعمال المبشرين - أخلاق سيدنا محمد العالية - العناية بالوحي المحمدي

عندما يُخرج أحد المؤلفين كتاباً يتصدى له النقاد، فيشيرون إلى مباحثه بين تقريظ وانتقاد، وأخذ ورد، ويكشفون عن محاسن الكتاب وعن المآخذ التي يرونها فيه.

وهذه الطريقة قديمة وأصبحتَ إذا قرأت نقد الكتاب لا تتوقع إلا أحد أمرين: إما إعلاناً أدبياً عن الكتاب وإما تنفيراً منه وفي كلتا الحالتين يكون القاريء مظلوماً.

* بقلم الدكتور حسين الهراوي بمصر، ونشر في جريدة الجامعة الإسلامية بيافا.

وقلما أعرض لموضوع كتاب بالنقد أو التقريظ فليس من شأني أن أجامل المؤلفين أو أخدع القارئين، وإنما يدفعني إلى الكتابة عن كتاب ما، ذلك الأثر الذي يُحدثه في نفسي ذلك المؤلف، وتلك العاطفة التي تجاذبني من أثر هذه القراءة.

ولعل أصوب طريق للنقد في نظري أن تجعل من الكتاب الذي تتعرض له موضوعاً لتبدي رأيك وما يعن لك من الأفكار بصدد هذا الكتاب.

ولعلي لا أجامل إذا قلت: إن كتاب الوحي المحمدي الذي ألفه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا أثار فِيَّ دافعاً للتعليق عليه ونقده، وأن أجعل ذلك الموضوع مجالاً للمناظرة في موضوع هام له أثره في العالم الإسلامي إن لم يكن في العالم أجمع.

فالكتاب كله أدلة لإثبات صحة الوحي المحمدي وبحث علمي في المعجزات والدعوة إلى الإسلام.

أما إن الوحي المحمدي في حاجة إلى أدلة منطقية أو علمية لإثباته فهذه مسألة فيها نظر، لأن الإسلام جلي ظاهر لا يحتاج إلى أدلة منطقية أو علمية لإثباته. ولكن المسألة ليست مسألة إثبات، بل هي مسألة ردود على فتنة أشعل لظاها جماعة من المستشرقين والمبشرين، فأخذ الأستاذ السيد رشيد يرد الدليل بالدليل والحجة بالحجة، ومازال بدرمنغام حتى سد عليه الطرق، وكبله حتى تلاشت تلك العواصف التي أثارها هذا المستشرق، وجعلتنا نرى أغراض جماعة من الأوربيين واضحة من طعنهم في الإسلام ونبي المسلمين.

أعجبتني تلك الفصول الفياضة الممتعة عن حرية الفكر في الإسلام، وذم التقليد والحض على التفكير الحر في دائرة العقل: تلك الفصول التي دبجها الأستاذ في كتابه مستشهداً بالقرآن والحديث.

والحق أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإسلام والمسلمين، ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر تسلطت عليهم الأعاصير السياسية فقام جماعة باسم الدين يبتدعون المذاهب لأغراض سياسية. ويستغلون الشعور الديني لمآرب دنيوية. ولا زلنا نسمع عن بعض زعماء يستغلون الدين لأنفسهم ويفرضون على أتباعهم زنات من الذهب

كل عام ولذلك كان موقف الأستاذ رشيد في كتابه عن هذه النقطة موقفاً مشرفاً. فقد كشف عن الوجه الصواب. وما أحوج المسلمين إلى أمثال هذا الموضوع ليفتح أعينهم للحقائق. حتى يروا الحق كما هو لا كما صوره الواهمون المغرضون. وما أحوج الناس إلى ترجمة هذه الفصول لنشرها على العالم. فالناس في البلاد الأجنبية معذورون لعدم معرفتهم حقيقة الإسلام. وقد ذكر الأستاذ رشيد أسباب الحجب بين الإفرنج وحقيقة الإسلام وعدَّدها واحداً واحداً. ولكنه لم يذكر المستشرقين في فصل خاص. ولم يذكر أسباب طعنهم في الإسلام. ولم يفرد في كتابه فصلاً يأتي فيه على ذكرهم وأثرهم في مطاردة الإسلام في بلاده وإن كان لَمَّح إلى ذلك تلميحاً في رده على درمنغام.

ونحن لا زلنا نقول إن للمستشرقين أكبر الأثر في إظهار الإسلام على غير حقيقته وأنهم يطعنون في سيدنا محمد ﷺ من غير حق. ومهما تكن الأسباب الداعية لذلك فنحن أحوج ما نكون للرد عليهم وإظهار أغلاطهم وتسفيه أحلامهم.

أما ما كتبه الأستاذ عن الكرامات ودعوى جماعة من المشعوذين الدينيين باسم الولاية والكرامة إلى غير ذلك من المسائل التي ما زالت تشغل أذهان السذج من الناس – فما ذكره في ذلك يُعَدُّ آية من آيات الإيمان الصادق والإسلام الصميم الذي لا يُستغل لمآرب دنيوية. وعندي أن المسلمين قد آن لهم أن تفتح أعينهم لتلك المسألة الجوهرية، وإنه لعار أن تظل تلك العقائد الخرافية ممسكة برقاب الأمة في عهد النور والعرفان.

والحق أن في العالم أشياء كثيرة غامضة ولا زالت مسألة الأعمال الخارقة للعادة موضوع بحث، وإن كان العلم لم يحدد مركزها تماماً، ولكن على أي حال لا صلة بين هذه الأعمال وبين الدين، لأننا نسمع الكثير منها في مذاهب الأديان المختلفة، حتى في الديانات الوثنية التي لا يقبلها عقل مثقف الآن وحتى في الأديان التي لا زالت تعبد الأصنام، وتقدس الإنسان.

على أن السيد رشيداً تصدى إلى مسألة (جان دارك) وكتب عنها بها وسعه علمه الواسع. ولكني أظن أنني اطلعت على مقالة لكاتب فرنسي عن كتاب يعزو سر نجاح جان دارك إلى أنها كانت من العائلة المالكة الفرنسية وأن شارتها كانت تمتاز بالشعار الملكي.

والحق أن كتاب الأستاذ رشيد يعد نوعاً جديداً في التفكير الإسلامي الحديث، وأنه نواة صالحة للنسخ على منواله بتوسع الخ.

***

كتاب الوحي المحمدي

تقريظ الأستاذ الأصولي (الراوي) من مناهل العرفان

ونشر في جريدة الاستقلال البغدادية الغراء في ٢ و ٣ صفر سنة ١٣٥٣

سألت صديقاً لي من علماء الدين قبل سنتين عن ضرورة تأليف كتاب يصلح للدعوة إلى الإسلام ولمقارعة خصومه من رجال التبشير والملحدين ولتثبيت عقائد ضعاف الإيمان من المسلمين. فكان جواب صديقي: إن دين الإسلام لا يحتاج إلى ذلك الكتاب، لأنه واضح المقاصد ليس فيه تلبيس ولا تدليس وفوق ذلك فإن هناك كثيراً من الكتب في هذا الباب كالكتاب الفلاني والفلاني -وأخذ يعدد لي أسماءها- ولكني قاطعته، وكنت مطلعاً على تلك الكتب: إنها كلها ليست وافية بالحاجة ولا نستطيع الاكتفاء بها للغايات المتقدمة. ثم افترقنا ولما تذهب الحسرة من فؤادي. حتى إذا مر على هذا الحادث سنة وبضعة أشهر لقيت ذلك الصديق وكان ممسكاً بيديه كتاباً يقلب صفحاته ويتأمل بعض ما فيها، فسألته عن اسمه، فقال: إنه كتاب (الوحي المحمدي) الذي ظهر حديثاً، وإنه هو الكتاب الذي كنت ترجوه قبل مدة من الزمن. فأسرعت إلى المكتبات وكلي شوق إلى الحصول على هذا الكتاب فاقتنيته، ثم كررت راجعاً إلى البيت فأتيت عليه في يوم واحد، وكنت كلما زدت فيه توغلاً، زدت فيه إكباراً لمؤلفه، وإعجاباً به، وأخذت الحسرة تذهب عن فؤادي تاركة وراءها فرحاً واغتباطاً.

كتاب (الوحي المحمدي) من قلم الأستاذ العلامة الجليل السيد محمد رشيد رضا، والأستاذ رضا ليس بعيداً عن القراء، فهو كاتب بليغ، وعالم كبير من أساطين علماء المسلمين، أوقف نفسه منذ عشرات السنين على خدمة الدين الإسلامي الحنيف، ومناضلة خصومه وأعدائه ومجادلتهم بالحجج الدامغة، والأدلة المقنعة، التي لا تدع شكاً لمتشكك ولا قولاً لمجادل، سواء في الصحف أو المحاضرات والمناظرات.

أنشأ مجلة المنار منذ بضع وثلاثين سنة وجعلها مسرحاً لثمرات أقلام كتاب المسلمين الفطاحل، وهذا عدا ما يتناوله من البحوث القيمة والمسائل المهمة بقلمه البليغ وأسلوبه الممتع، وما يكتبه وينشره من الآراء الناضجة الثمينة في تفسير كتاب الله تفسيراً سلفياً عصرياً في الوقت نفسه، وما يجيب به عن فتاوى المستفتين.

ولم يكن الأستاذ رضا ليكتفي بهذه المجلة وما تتطلبه من الجهود الكثيرة والعناية اللازمة، بل نراه لا يدع فرصة تمر، ولا مناسبة تحدث إلا ويباغت الناس بكتاب جديد، يسد فيه نقصاً بارزاً حسبما يراه بنظره الثاقب، وكان آخر ذلك كتاب (الوحي المحمدي) الذي أصدره في يوم المولد النبوي الشريف من عام ١٣٥٢ بعد الهجرة. لم يكد يظهر هذا الكتاب للناس، إلا وأقبلوا عليه إقبالاً لم يصادفه مؤَلف من قبله في العالم الإسلامي، حتى لم تلبث نسخ الطبعة الأولى أن نفدت في أيام قلائل الأمر الذي اضطر مؤلفه المفضال إلى إعادة طبعه مرة ثانية فصدرت هذه الطبعة في يوم عرفة من السنة نفسها بعد أن أضاف إليه ما رآه ضرورياً حتى جاء الكتاب بضعف حجمه في الطبعة الأولى على وجه التقريب.

إن موضوع (كتاب الوحي المحمدي) هو تفسير مفصل جامع لقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾؟ وهذا موضوع يحتاج في كل زمان إلى أدلة تختلف عنها في الزمان الآخر بالنسبة إلى ما عليه أهل ذلك الزمان من العلم والأخلاق والعادات والطبائع وغير ذلك من العوامل المؤثرة في عقلية الإنسان ونظره إلى الأشياء ووزنها بميزان العقل. فقد كان يكفي في صدر الإسلام والعصر

العباسي أن ينظر في بلاغة القرآن وإعجازه لإثبات أنه كلام الله تعالى وأن محمداً ﷺ لم يكن قائله وهذا ما لا يكفي في هذا الزمان، وأصبح المسلمون العارفون بأصول اللغة العربية -فضلا عن فروعها- قليلين يعدون بالأصابع، وصار الإسلام أمام تيارات قوية من التبشير النصراني والإلحاد المعطل وغير ذلك من الأمور التي نراها في هذا العصر الذي يسمونه بعصر العلم. وكأن الأستاذ صاحب المنار قد شعر بكل هذا فأخرج للناس كتابه (الوحي المحمدي) فجاء على قدر، وكان كافياً كل الكفاية لإقناع الملحدين والمبشرين، وتثبيت عقائد ضعاف الإيمان على شرط أن ينظروا بعين العقل لا بعين التعصب والتقليد الأعمى.

ولم يكن هذا الكتاب منتظراً من غير صاحب المنار، لأنه قد مارس الشئون الدينية والاجتماعية، وتوفرت له من الأسباب لدراسة الإسلام دراسة وافية ما لم يتوفر لغيره من علماء المسلمين، وهو لم يزل في جدال مستمر مع خصوم الإسلام من مبشرين وملاحدة، تارة على صفحات الصحف، وأخرى بالخطب والمحاضرات، وثالثة بالمناظرات، حتى أصبح بحث هذا الكتاب -على خطره- أمراً سهلاً ميسوراً له، بَيْنَا هو بالنسبة إلى كثير من العلماء الآخرين شيئاً شاقاً، وإلا لما توقفوا عن أن يأتوا بمثله.

ترجع الغاية من تأليف هذا الكتاب إلى شيء واحد وهو إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته إلى البشر كافة، وأن الدين الذي جاء به هو من عند الله وليس من عنده، وأنه هو الدين الذي يرضاه الله لعباده لأنه نسخ به جميع الأديان ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

وقد تطرق المؤلف إلى شبهات المشبهين وشكوك الشاكين والمعاندين من الملحدين ومن أهل الديانات الأخرى فأوضحها وفصلها ثم أخذ بالرد عليها حتى جعلها حطاماً، ولم يدع لأحد بعد ذلك قولاً أو ظناً إلا وفنده بالحجة الدامغة، والقول الحاسم الذي ليس بعده كلام.

وقد عقد فصلاً خاصاً في إعجاز القرآن الكريم وتأثيره في نفوس العرب من مؤمنين ومشركين، وقارن بين تأثيره في العرب وتأثير التوراة في بني إسرائيل وكيف أن العرب أوذوا في سبيل الله فصبروا وجَلَدوا لخصومهم، ثم تدفقت سيولهم إلى ما وراء الجزيرة لرفع كلمة الله، كل ذلك بفضل القرآن وتأثيره في نفوسهم.

وقد تكلم عن مقاصد القرآن في إصلاح بني الإنسان فقسمها إلى أقسام عدة من حيث العقيدة، ومن حيث الإصلاحات المالية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغير ذلك، ففصلها تفصيلاً وافياً، وبحثها بحثاً شافياً. وحسبك بالأستاذ المؤلف كاتباً اجتماعياً وسياسياً ودينياً بارعاً لا يدانيه أحد في مثل هذه المواضيع.

وقد لخص محتويات الكتاب في آخره، ثم دعا العالم المتمدن: أوربة وأمريكا واليابان إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام. ولا شك أنه قد أصاب مقصداً في توجيه هذا النداء إلى العالم المتمدن الذي هو أقرب الناس إلى الإسلام لو لم تُضله التعصبات المذمومة والعداوة الممقوتة والغايات الاستعمارية.

إن كتاب(الوحي المحمدي) كتاب عربي، ولسنا نرجو أن يأتي هؤلاء الأجانب من شعوب المدنية فيتعلموا العربية ليدرسوا هذا الكتاب، ولكننا نُؤَمِل من المسلمين الذين يحسنون اللغات الأجنبية الحية أن يأخذوا على عاتقهم مهمة ترجمة هذا الكتاب إلى تلك اللغات، وهم بذلك إنما يؤدون إلى دينهم خدمة لا تعوض، وجميلاً لا ينكر، هذا إذا لم نقل إنهم بذلك يقومون بواجب من أهم الواجبات، كما قام الأستاذ بنصيبه من الواجب.

وذكر الكاتب هنا أسماء بعض الذين تصدوا لترجمة الكتاب بلغات الشرق والغرب (قال):

ويا حبذا لو اهتمت الجمعيات الإسلامية بترجمته وتوزيعه خدمة للإسلام، وهي بذلك تكون قد أدت أحسن عمل وأجل خدمة للدين.

إن كتاب (الوحي المحمدي) والحق يقال أحسن كتاب أخرج للناس في هذا الموضوع، هذا إذا لم نقل إنه الكتاب الوحيد. ولكننا يجب أن لا ننكر أن الكتاب يحتاج إلى شيء من التفصيل أو الزيادة في بعض المواضيع التي تطرق إليها المؤلف بصورة موجزة كموضوع مطابقة القرآن للنظريات العلمية الحديثة، وما شاكل ذلك. ويسرنا أن الأستاذ قد شعر بذلك وقد وعد بتفصيلها في جزء ثان يُلحقه بالكتاب، وأملنا وطيد أن سماحته سيبر بوعده في القريب العاجل إن شاء الله.

لقد كتب كثير من العلماء والكتاب عن هذا الكتاب ولكن واحداً منهم لم يفه حقه، ولا أشك في أنه لا يستطيع أن يفيه، فإن الكتاب عظيم فوق ما يتصور الإنسان، فمن أراد أن يعرف قدره فليقرأه، ومن أراد أن يعرف حقيقة الإسلام من المسلمين وغيرهم فعليه به، فإنه من حجج الإسلام، وأما مؤلفه فلا يستطيع أحد أن يجازيه عليه غير الله، أطال الله بقاءه وسدد خطواته، ووفقه لخدمة الإسلام والمسلمين.

ر . . .

***

الوحي المحمدي

بقلم الأستاذ العلامة المتكلم الفقيه الكاتب النظار

إبراهيم إطفيش الميزابي الجزائري

أجل كتاب في علوم القرآن، وأفخم سفر في جلال القرآن، ومعجزة من معجزات القرآن، كتاب (الوحي المحمدي). طالع أيها المعتز بالقرآن، ويا طالب منهاج الهداية المحمدية هذا السفر الجليل ترَ أبدع مؤلَّف وأسنى ما جاء به القرآن من هداية البشر أجمعين. إن (الوحي المحمدي) عَلَم وفق الله إليه مؤلفه العلامة الجليل السيد رشيد رضا، عَلَم مستخرج من كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لقد كُتب في علوم القرآن كتب كثيرة ولكنها لم تبلغ أن تأتي بما جاء في (الوحي المحمدي) حتى أصبح هذا الكتاب آية في الإبداع، وغاية في كشف معاني الكتاب المنزل على قلب محمد ﷺ. فيه الحجة على البشر أجمعين، وإن

القرآن يدعوهم إلى الانضواء تحت لوائه، ضامناً لهم كمال السعادة، والشمول بالنعم الرحمانية وجلال العزة، إن هم أخذوا بما جاء به من عند الله الرحمن الرحيم. كشف هذا الكتاب مناهج السعادة للأمم، وسبل الهداية الشاملة لطبقات البشر وأجناسه، حتى أصبح عَلَماً برأسه، يجب أن يُعتنى بتدريسه بين الفنون العالية لتخريج رجال عالمين في الهداية إلى شريعة الله التي أكملها وأتم بها نعمته على خلقه.

لقد أخرج المصنِّف هذا الكتاب للأمم، وهو أحسن ما أُخرج للناس من جهود العلماء، فلا ريب أن العلماء في جميع الأمم ستتلقاه بالقبول وسيترجم إلى جميع اللغات، لأنه هو الكتاب الذي تنشده اليوم العقول السليمة في كل الشعوب وسيهتدي بهداه من أراد الله له السعادة من بين أولئك العقلاء الذين يسعون وراء الحق لأنه الحق، ويدركون أن القرآن كتاب من عند الله، هدى وبشرى لأولي الألباب، لا سعادة للبشر إلا به، ولا سلام إلا باتباع هديه.

ولعلي أكون قد أديت واجباً إذا لاحظت للمؤلف الجليل أن يعيد النظر في مسألة الرقيق، فإن الإسلام جعلها حكماً مستمراً لما فيه من حكمة اجتماعية، ولم يوجد وضعاً لإبطال الرقيق بالتدريج السريع، ولكن الرق يبطل بطبيعته إذا دخل كافة الشعوب في الهداية الربانية، فوحدوه وعبدوه واتبعوا النور الذي أنزل على محمد ﷺ وعلى آله.

***

تقريظ جريدة حضارة السودان

أهدتنا إدارة مجلة المنار الغراء كتاب (الوحي المحمدي) الذي ألفه العلامة المحقق مصباح الإسلام السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار الغراء.

وقد جاءت مباحث هذا الكتاب كسائر مباحث مؤلفه الثمينة سواء في تفسيره القرآن الكريم أو في مباحث مجلة «المنار» نوراً وهدى للناس في تبيان حقائق الدين الإسلامي، فهو بلا ريب فتح جديد في الدعوة إلى هذا الدين الحنيف القويم وقد تمكن مؤلفه، وهو ذلك العبقري الديني الذي سيط دين الإسلام بلحمه ودمه، من

أن يوفق بين الدين والعلم بطريقة يعجز غيره عن الإتيان بها، فالرجل عالم قوي الإيمان وناهيك ما تنتجه قوة الإيمان إذا توافر معها العلم، والكتاب نفدت نسخ طبعته الأولى قبل أن يحول الحول على طبعها لتهافت العوالم الإسلامية على النهل والعلل من مورده العذب، وقد صدَّر طبعته الثانية بمقدمة استغرقت عشرة مباحث هي وحدها تعد كتاباً، ثم أتى بعدها بفاتحة لها قد اشتملت على أربع مسائل، ثم انتقل إلى الفصل الأول، وهو يشمل ست مسائل، فالفصل الثاني وفيه عشرة مسائل، فالفصل الثالث وقد اشتمل على ١٧ مبحثاً، فالرابع وقد اشتمل على ستة مباحث، فالفصل الخامس وقد اشتمل على ٧٥ مبحثاً. وما من مبحث من هذه المباحث يمر عليه المطلع إلا ويشعر أنه في أشد الحاجة إلى تفهمه من الوجهتين الدينية والمدنية.

وقد ذُيلت طبعته الثانية بنحو ٢٣ تقريظاً في مقدمتها تقريظا العاهلين العربيين ملكي الإسلام، الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، وصاحب العظمة السلطان عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز و نجد، في كتابين موجهين من لدنهما إلى المؤلف، وتقريظ صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، المصلح الإسلامي الكبير المعروف لدى سكان هذه البلاد، وتقريظ أمير البيان المشهور الأمير شكيب أرسلان، وغيرهم من الأئمة الأعلام ورجال العلم والدين.

وإنا لنرى أن هذا السِّفر واجب على كل مسلم وجوباً عينياً أن يطلع عليه وأن يتفهمه ليتذوق منه حلاوة الإسلام، ويرى بمرآته بهجة القرآن ونوره ساطعاً يهدي إلى سواء السبيل.

عن حضارة السودان بتاريخ ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤م

***

طائفة مما كتبه لنا علماء ديار الشام الأعلام، أيد الله بهم الإسلام

عقب صدور الطبعة الأولى المختصرة

١ - للأستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار[١]

إذا أردت أن تعرف قيمة تفسير المنار للقرآن الحكيم، وأن تتحقق أنه أفضل تفسير للمسلمين في هذا العصر يقوم به أجدرهم عليه، وأولاهم به، وأنه لا يسد مسده تفسير آخر، لأنه يستمد من قوى هذا العصر وحقائقه، ويدفع ما تجدد من الشبهات والشكوك، ويقيم الأدلة القاطعة، ويورد الشواهد الحسية والتاريخية على أن الحكومة الإسلامية هي أفضل حكومة في العالم كله.

إذا شاقك ذلك وأردت أن تعرفه يقيناً، فاقرأ كتاب (الوحي المحمدي) للسيد الإمام علامة العصر الأستاذ السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار ومؤلف تفسيره، فهو نموذج من ذلك التفسير العجيب الذي صدر منه أحد عشر مجلداً ضخماً إلى الآن، فسَّر بها أكثر من ثلث القرآن الحكيم، وكتاب (الوحي المحمدي) منها هو تفسير لقوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؟ في أول يونس من الجزء الحادي عشر[٢].

ولعمر الحق إنه أتى في هذا الكتاب بالعجب العجاب، فقد أثبت نبوة محمد صلى ﷺ بالبراهين العقلية والعلمية الظاهرة، وأورد الشواهد التاريخية والحسية الكثيرة، ورد جميع ضلالات بني آدم عنها، لا سيما شبهات فلاسفة الإفرنج، ومطاعن الملحدين وخرافات المشعوذين.

---

(١) هذا الأستاذ جامع بين العلم الصحيح والعمل به والدعوة إليه قولاً وكتابة وخطابة ومناظرة، وبذلاً مما يملك من مال قليل، فقد علمنا أنه اشترى من كتاب (الوحي المحمدي) نسخاً كثيرة من دمشق وزعها على من يظن بهم الفهم والانتفاع حتى من ملاحدة الأغنياء، فنسأل الله أن يخلفه عليه ويجزيه خير الجزاء.

(١) تم الجزء الثاني عشر منه أيضاً.

وقد كان بعض فلاسفة الغرب كتوماس ودينيه ودرمنغام وأمثالهم كتبوا في السيرة النبوية شيئاً حسناً، وبسطوا لأممهم حقائق منها، لولاهم لطمسها الجهل والتعصب. غير أن هؤلاء قد عرضت لهم شبهات وأوهام، فحسبوا الوحي الإلهي النبوي عموماً والمحمدي منه خصوصاً، ضرباً من الاستعداد النفسي، والفيض الذاتي، أي أنه نابع من قلب الرسول ﷺ غير نازل من عند الله.

وقد بسط السيد الإمام شبهتهم هذه، وأبرَزها بأوسع معانيها، وصورها بأجلى صورها، ثم كر عليها بالنقض والإبطال، وبَيَّن فسادها واستحالتها من عشرة وجوه لا تحتمل الرد ولا المراء.

ثم عقد فصولاً في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته، وقوة تأثيره وهدايته، بما لم يُؤثر مثله في كتاب آخر، ثم أفرد مقاصد القرآن الدينية والمدنية لرفع مستوى الإنسانية فشرح أصول السعادة الخالدة، ومطالب الحياة الراقية، ودل على مقاصد الإسلام العالية، التي لا يطمح العقل البشري ولا الارتقاء المدني إلى أسمى منها أبداً.

ولقد شرح السيد الإمام معجزات الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام شرحاً بليغاً يوقف مَن تدبره على سر اصطفائهم واجتبائهم وكونهم صفوة البشر وأكملهم وأفضلهم وأولاهم بحمل أمانة التشريع، والقيام بعهدة التبليغ و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم إن من أمعن النظر فيما كتبه عن المعجزات نفسها، وما أقامه من ميزان العدل والنصفة بينها، أدرك أن ليس فيما ظهر على يد المسيح عيسى بن مريم منها ما يعلو به عن مقام النبوة والرسالة أبداً ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، ثم أدرك أن القرآن هو الآية الإلهية الكبرى، والمعجزة الدينية العظمى، بل هو معجزة المعجزات، وآية الآيات، ولولاه لانمحى رسم تلك الخوارق من الأذهان.

ألا ليت دعاة النصرانية المبشرين الذين يسعون لتنصير مسلمي الأرض وهم مئات الملايين، ويبغون زوال القرآن (وقد تولى الله حفظه) من الوجود، ليتهم يعلمون أن أمة القرآن التي دانت به وأذعنت لحكمه، ولم تلتفت إلى شيء غيره، قد شهدت ببراءة العذراء البتول، وابنها المسيح الرسول، من مفتريات أعدائهم اليهود، وآمنت عن طريق القرآن وحده بكل ما ورد من معجزات الرسل وآياتهم وأن القرآن لو زال -لا قدر الله تعالى من الأرض- فإن أمة القرآن لا تؤمن لأحد بعد الوحي (المحمدي) بنبوة ولا رسالة، ولا تعتقد بنزول وحي من السماء على أحد الأنبياء، فإيمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق بسائر رسل الله، وكفرهم بالقرآن كفر بجميع الكتب والرسل، فأي الفريقين من المؤمنين والكافرين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وإنك لتجد هذه الحقائق كلها وأضعافها واضحة في كتاب (الوحي المحمدي) وإني لمعترف بأني عاجز عن وصفه، وبأني لم أحط علماً بكنهه، ولكني أختم كلمتي بما قاله أحد خطباء الشرق الأستاذ يوسف اصطفان الشهير في المؤلف نفسه على إثر محاضرة كان ألقاها السيد الإمام بدمشق الشام في عهد الحكومة العربية قال: لا فض فوه، إن كان لهذا الرجل (يعني السيد الإمام) نظير في رجال الدين في الغرب فنحن لا نستحق الحياة، أو قال الاستقلال في الشرق.

ثم ختم الكتاب بدعوة الشعوب المتمدنة إلى ما ينجيهم من غوائل المدنية الفاسدة، ويمنعهم في ظلال الإسلام والسلام.

والكتاب قد ترجم إلى لغات كثيرة شرقية وغربية وتقرر تدريسه في بعض الممالك الإسلامية[1]، أفليس العرب، وفيهم أنزل القرآن، ومنهم أرسل الرسول ﷺ أولى بذلك؟ بلى، وإن قلمي ليعجز عن الإحاطة بوصف كتاب (الوحي المحمدي).

(١) قرأه المقرظ درساً في دمشق وبيروت معاً.

وحسبي أن أوجه نظر كل من يهمه أمر دينه، ولا سيما شبابنا المثقفون وطلاب المدارس العالية أن يجعلوه عمدتهم في دراستهم ودروس قراءتهم، فهو يغني عن كل كتاب في موضوعه، ولا يغني عنه غيره. محمد بهجت البيطار

٢ - للعلامة الأستاذ الشيخ محمد ظبيان الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى الخير الهادي إلى الرشد، وآله وصحبه وتابعيه وحزبه. أما بعد فقد مَنَّ الله تعالى عليَّ بالاطلاع على كتاب (الوحي المحمدي) الذي أخرجه للناس العلامة الكبير والأستاذ الشهير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الأغر، فأدهشني ما رأيت من بدائع ذلك البناء الشامخ، والطود الراسخ، وما حواه من الآيات البينات، ومعجزات العلم الباهرات، وإني لا أريد أن أتوسع في تقريظ هذا الكتاب، وأن أبالغ في مدحه كما يفعله كثير من العلماء والكتاب، ولكني أريد أن أقول كلمتي عما حواه من الحقائق التي أتى بها المؤلف حفظه الله على ضوء العلم فأقول:

إنه لما أخبرني أخي وصديقي العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار أحد علماء دمشق بصدور هذا الكتاب، وأخذ يصف لي ما اشتمل عليه من الحقائق العلمية والأسلوب الجذاب، داخلني الريب فيما قال، وعددت ذلك غلواً في الدعاية أو ضرباً من الخيال، ولكني ما كدت أتناوله وأتصفح عباراته وأتذوق طلاوة أسلوبه الحكيم حتى انقلب ذلك الريب يقيناً، وأصبح عندي ذلك الخيال حقيقة ملموسة، وإذا بهذا السفر يتدفق حججاً استمدها المؤلف (أدام الله رشاده) من نور القرآن، واقتبسها من مشكاة العرفان، فكأنه وحي من الوحي، فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

جاء هذا الكتاب في وقت اشتدت الحاجة إلى مثله، وتطاولت الأعناق إلى وجود مُؤَلَّف جامع على شكله، إذ فشا اليوم الجهل وكثر الفساد، وهجمت على

المؤمنين جيوش الزيغ والإلحاد، فكادت تجتاح الفضيلة، وتقضي على البشرية بسموم الرذيلة، وتجتث الاعتقاد بوجود الخالق، وتقذفه من حالق.

فجاء الأستاذ المؤلف يدعو الأمم أجمع إلى هداية القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة، يخاطب كل أمة على قدر عقولها، وينوع الأساليب الحكيمة بتقريب الحق إلى أفهامها، ليمحو ظلمة شكوكها وأوهامها، وليكون ذلك أوقع في النفوس وأبلغ في تأثير الحجة.

إننا اليوم في عصر كَثُرَ فيه طلاب العلوم الكونية، فلا يذعنون إلا لما كان مؤسساً على الحقائق العلمية، فهؤلاء اليوم قد وجدوا ضالتهم المنشودة، وبغيتهم المقصودة، فهو كترجمان حكيم يخاطب كل واحد منهم بلغته، ويناجي كل فريق على قدر عقله ودرجة استعداده ومعرفته، فما أجدر طلاب العلوم الكونية، وعشاق الحقائق في كل أمة أن يعكفوا على اقتنائه ودراسته، وتدبر آياته، ليستضيئوا بنور مشكاته، فينالوا السعادتين، ويفوزوا بالنعمتين.

أما علماء الإسلام فإنهم إذا ولوا وجوههم شطره، وقرءوه لإخوانهم، ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وكان لهم منه سلاح جديد يدفعون به هجمات أعداء الإسلام من المبشرين والملحدين، ويدحضون به دعاويهم الباطلة، وكان لهم منه أيضاً مادة غزيرة يستعينون بها على الدعوة إلى الله.

وأنا أرجو من الأستاذ (أدام الله نفعه) أن يسعى في ترجمة هذا الكتاب القيم إلى اللغات الأجنبية، من شرقية وغربية، وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية، لأنها أكثر انتشاراً في الأرض، وليطلع عليه الأمم التي لم تقف على حقيقة الإسلام حتى اليوم كالأمتين اليابانية والأميركية، وليكون عوناً لجمعية الدعوة والإرشاد الإسلامية في طوكيو عاصمة اليابان، لتفهيم القوم حقيقة الإسلام، وأنه لم يكن ديناً تعبدياً فحسب، بل هو دين اجتماعي جاء لسعادة البشر، جمع بين خيري الدنيا والآخرة والله يهدي من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

دمشق　　　　محمد علي ظبيان الكيلاني

٣ - للعلامة الأستاذ الشيخ محمد مسلم الغنيمي الميداني

نور سطع في سماء جزيرة العرب منذ ثلاثة عشر قرناً فأضاء الكون لجدير بأن يكون موضع الإعجاب وتوجه الأنظار، وإن جزيرة العرب في ذلك الزمن كانت مجدبة من كل علم وفن لا يرى في سمائها بارقة نور. أخذ هذا النور يتلألأ في سماء الجزيرة وما تزيده الأيام إلا ضياء وامتداداً. والمعلوم أن مصدر هذا النور العظيم هو ذلك القرآن الحكيم، والنبي الكريم، العربي الصميم، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ولقد شهد عظماء الإفرنجية وفلاسفتهم كدروي وإيرفنج وسديو وإسحاق طيار وغوستاف وتولستوي وتومس كارليل وهنري كاستري وغيرهم أن المدنية الغربية مقتبسة من الحضارة الإسلامية، ولو أخذنا نبسط أقوالهم لطال بنا المقام وخرجنا عن الموضوع.

وممن كتب في السيرة النبوية من مفكري الغرب درمنغام ومنتيه وغيرهما، فوصفوا النبي ﷺ بأنه كان للخلاء والعزلة يفكر في طريق النجاة من هذه المخازي والضلالات التي عم ظلامها البشر، ولكنهم حسبوا الكتاب الذي أنزل عليه من الوحي النفسي والإلهام الذاتي: أي أنه عليه الصلاة والسلام صفت سريرته على رءوس الهضاب وبين الشعاب في غار حراء، فأوحت إليه نفسه كتاباً أرشد الأمم وجميع الشعوب بتعاليمه كما ذكر مونتيه في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم بعد ذكره لأنبياء بني إسرائيل فقال: فتُحدث فيه (أي الفكرة الدينية) كما كانت تُحدث فيهم ذلك الإلهام النفسي.

فهذا أقصى ما وصلت إليه أفكار فلاسفة الغرب في الوحي الإلهي، لذلك قام علامة الإسلام السيد الإمام محمد رشيد رضا صاحب المنار الأغر، فكشف اللثام عن حقيقة الوحي وماهيته وكيفيته، وأبطل مزاعمهم ورد شبهاتهم بأدلة عقلية وبراهين حسية مفسراً قوله تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾.

كتاب لم يُنْسَج على منواله، ولم يُسْبَق المؤلف لمثله، فهو كتاب لا يستغني عنه المسلم ولا غير المسلم، فالمسلم يعلم كيف يقيم الحجة على صحة دينه، ونبوة نبيه

وكتاب ربه، وغير المسلمين يرون الفرق واضحاً بين الوحي السماوي والإلهام النفسي، فجزى الله الأستاذ المؤلف خيراً، وأدامه للمسلمين ذخراً، آمين.

دمشق — محمد مسلم الغنيمي الميداني

٤ - للطبيب النطاسي والعالم العصري الدكتور سعد عيد عرابي

بدأ الكلام بمقدمة في تقهقر البشر في الأخلاق وصيرورتهم نوعاً مادياً آلياً، وتفكر بعض عقلاء أوربة في علاج ذلك بالدين، وتمنيهم بعثة نبي جديد. فدعاهم كتاب الوحي إلى دين الإسلام. ثم قال:

مع أن الغاية الأساسية لهذا الكتاب دحض مزاعم درمنغام وغيره من الإفرنج الذين يدعون أن الوحي المحمدي وحي نفسي لا إلهي، ومع أنه أفاض في الموضوع، وأيد بالبراهين العقلية والأدلة القطعية وبمعجزة القرآن المجيد فساد مزعمهم هذا، وأن الوحي المحمدي أثبت وأكمل وأعم من كل وحي جاء قبله - فقد جاء هذا الكتاب من مقدمته إلى خاتمته جامعاً شاملاً لم يترك شاردة أو واردة تُعلي كلمة الله تعالى وتنصر الحق المبين إلا وذكرها، كما وإن هذا السفر النفيس يروي غليل من كان للحقيقة من المستطلعين، فقد عرَّف النبوة وأبان الفوارق بين المعجزات والكرامات، وشرح مقاصد القرآن المجيد شرحاً دقيقاً: من دينية واجتماعية وسياسية ومالية (وأستأذن أن أذكِّره بالقواعد الصحية وهي كثيرة[1]):

والخلاصة أن هذا الكتاب قد جمع وشمل ما في الإسلام من حِكَم، وقد وفّى الموضوع حقه، بأن قدمه للجمعيات الإسلامية في العالم داعياً رجالاتها إلى ترجمته إلى لغاتهم لتكون فائدته أعم، وقد دعا في خاتمته شعوب المدنية إلى الإسلام دين الإنسانية والسلام، لإنقاذ البشر من هذا الشقاء العام. إلخ.

دمشق — الدكتور سعد عيد عرابي

(١) وعدتُ في تصدير الطبعة الثانية بتأليف جزء ثاني أبين فيه هذه القواعد.

٥ - لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشيد ميقاتي

مفتي طرابلس الشام

أخي العزيز السيد عاصم آل رضا حفظك الله

سلاماً واحتراماً (وبعد) قرأت (كتاب الوحي المحمدي) الذي أهديتنيه فلا تسل يا أخي عما حصل لي من المسرة، في الحظوى بما هو لعيون المؤمنين قرة، ووقفت موقف الحائر، فيما أقول عن هذا السفر الباهر، المزري بالدرر والجواهر، والسهل الممتنع، الجامع المانع، في بيان حقيقة دين الإسلام، لكافة الأنام، فلم يسعني إلا أن أجهر بكلمة: الله أكبر فتح ونصر. وشعرت كأن منادياً ينادي من علو: يا أمة محمد، أمة الإجابة والدعوة، ويا طلاب الحقيقة والخلاص والإخلاص في هذا العالم، هاكم كتاباً اقرءوه فتعلموا منه بالوجدان والضمير الحي حقيقة الدين الإسلامي بأنه دين الحضارة والعقل، والترقي والعدل، والتسامح والفضل، والعز والمجد، والسيادة لكل فرد، والكفالة لكل خير في معاشكم، والسعادة في معادكم. وإنكم إن علمتم به وعملتم فزتم بسعادة الدارين، وإن لم تعملوا وعلمتم ظاهراً من الحياة الدنيا فزتم بها وحدها، وإن لم تعلموا ولم تعملوا خسرتم الدنيا والآخرة كحال بعضكم، وذلك هو الخسران المبين. وتعلموا حقيقة الوحي المحمدي أنه من الله رب العالمين، نزل به روح القدس جبريل الأمين، على قلب النبي الأمي محمد ختام المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فمن هذا السرور، ومن هذا الشعور، تراني يا أخي داعياً إلى الله أن يكافيء مؤلف هذا الكتاب الجليل، العلامة النبيل، الفهامة لدين الإسلام، ابن عمك الرشيد الإمام، بخير ما كوفيء محسن بإحسانه من الخير والإنعام، آمين. راجياً إبلغ أزكى سلامي وفائق احترامي لحضرة المشار إليه، أدام الله فضله عليه. سلامي لكم، ورحمة الله تهدى إليكم.

مفتي طرابلس

محمد رشيد ميقاتي

١٠ رمضان سنة ١٣٥٢

٦ – للعلامة الأستاذ الشيخ سعدي يس الدمشقي

ما أن اطلعت على هذا الكتاب العظيم العديم المثال حتى علمت علم اليقين أن كتاب (الوحي المحمدي) هو خير كتاب أُخرج للناس في هذا العصر، بل لم يؤلف قبله في بابه نظيره، ولقد ارتفع عن كل مؤلف كما ارتفع مؤلفه عالم الإسلام الإمام الهمام السيد الشيخ محمد رشيد رضا عن كل عالم ومؤلف في هذا العصر ...

تأملت شُبَهَ درمنغام التي بسطها المؤلف الإمام قبل الرد عليها فإذا هي جبال تتصاغر أمامها دوامغ الحجج، وبحار زاخرة تكاد تُغرق الحق في اللجج، وتمتلىء منها قلوب المؤمنين رعباً، وما إن كرَّ عليها ذلك الغضنفر الضرغام، بسيف الحق الصمصام، حتى ذلت بعد جبروتها، وصغرت بعد كبريائها ...

وكتاب (الوحي المحمدي) ليس رد مفتريات وإبطال أخطاء فحسب، بل هو كتاب جمع فأوعى، فيه إثبات أن القرآن وحي الله الذي أوحى به لرسوله محمد ﷺ النبي العربي الأمي الهاشمي، وأنه آية الله الكبرى التي أيد بها دينه ونبيه وأنه معجزة باقية ما بقي النيران وتعاقب الملوان، وأنه أتى بجميع ما يحتاجه البشر لمعادهم ومعاشهم.

وفيه إثبات نبوة محمد ﷺ بوجه خاص ونبوة جميع الأنبياء بوجه عام، أثبت ذلك بأدلة أنصع وأمتع وأرفع من أدلة كتب دلائل النبوة، إثباتاً اعتمد على الأدلة العلمية العقلية التي يذعن لها المخالف المنصف والخصم المعاند. وفيه أصول العقائد الإسلامية بل فيه ملخص الشريعة الإسلامية: أحكامها وحِكَمها.

وإنك لتجد أن السيد الإمام، أمتع الله بطول حياته المسلمين ونصر به الإسلام، تجد أنه قد قسم الإصلاح الإلهي للبشر في القرآن إلى عشرة مقاصد، لا أحسب أن مخالفاً منصفاً يقرؤها متدبراً لها ويبقى عنده أدنى ريب أو أقل شبهة في أن القرآن أعظم كتاب منزل على أشرف نبي مرسل. دعم المؤلف الإمام هذه المقاصد بشواهد حية، وآيات ناطقة، وحجج ليست براهين ساطعة ولكنها شموس طالعة. ولئن سمي كتاب فتح الباريء قاموس السنة فكتاب (الوحي المحمدي) ترجمان القرآن،

وليس هذا بكثير على سليل بيت النبوة ومن يمت لرسول الله ﷺ بنسب النبوة. الخ.

***

تقريظ الأستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي
محرر مجلة الضياء الهندية التي تصدر باللغة العربية في لكنهؤ، ونُشر فيها

هدية ثمينة وتحفة نفيسة وثمرة علمية يانعة، أنتجها قلم إمام هذا العصر وحكيمه الأكبر، مولانا السيد محمد رشيد رضا، لا زال بحر بره زاخراً يقذف بالدرر، ووابل علومه يحيي القلوب الميتة، وظله الوارف حماية للإسلام والمسلمين.

هذه الدرة اليتيمة فكرة خطرت لحضرة السيد حين اشتغاله بتفسير كتاب الله القرآن واستخراج نفائس كنوزه. وأين منها الياقوت والمرجان؟ وهي بلا شك من التحديث الرباني، والإلهام الرحماني. قدمها حضرته للعالم الإنساني، في شهر ربيع الأول الذي كان فيه مولد المنقذ الأكبر للنوع الإنساني محمد صلوات الله عليه. فكانت خدمة جليلة وتكريماً لذلك الجناب المقدس. ولعمري إن بمثل هذا العمل المبرور يكون التكريم والتعزيز، وهو الآية المحكمة على المحبة العلمية الإيمانية، لا التمسح على الأحجار أو تعليق الخرق المزوقة، وإيقاد الأنوار الكهربائية الملونة، والفقراء ذات اليمين وذات الشمال يتضورون جوعاً ويموتون بأمراضهم ولا معالج لهم ولا آس، وراية الإسلام منكوسة، وأحواله معكوسة، وشرع النبي الأكرم منبوذ ظهرياً، وسنته الشريفة متخذة سخرياً، ولا غرو، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

افتتح الإمام الكتاب بمقدمة بيَّن فيها بحكمة عالية واضحة نيرة على ذلك ارتقاء البشر في الأمور المادية في خدمة هذا الغلاف الجسمي وبلوغهم في ذلك الغاية التي انعكست وصارت شراً على الأجساد التي اخترعت لتنعمها وتسعدها، وبيَّن انحطاطهم الروحي، وإفلاسهم الأدبي وما سبب لهم من الشقاء والعذاب

الجسمي الذي منه يحذرون ويفرون، وبرهن على أن السعادة البدنية يستحيل الوصول إليها بدون الكمال الروحي، والرقي النفسي، ببراهين لا تبقي للشك مجالاً، وراش سهام التأنيب للدول الآخذة بأزمة الأمم في هذا الزمان، وحمل عليها تبعة الخزي والشقاوة الذين تجلبهما على العالم بتكالبها على المادة، وتنافسها في التطاول وحب العلو والفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل في حروبها المتنوعة من سياسية واقتصادية وأدبية وغيرها.

ثم ذكر اعتراف حكماء الغرب بهذا الفساد وتمنيهم أن يُبعث نبي يُحدث انقلاباً روحياً ينقذ الإنسانية من نصبها وشرورها، وإطباقهم على أن أديانهم لا تنجع في علاج هذا الداء، بل ربما كانت إحدى عوامله، فأراد هذا الإمام الحجة أن يريهم أن الذي يطلبون بين أيديهم، وأن الدواء الناجع على طرف الثمام، ويرفع عنهم حجب الجهل والتعصب التي حرمتهم من اقتباس أنوار الدين الأصلي الخالد، دين الفطرة، ويضع أيديهم على محاسنه وفضائله ليتفقهوا فيه باتخاذهم «الوحي المحمدي» دليلاً وهادياً، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ولا جرم أن السيد أيده الله جمع ما كتبه الحكماء والأطباء النطاسيون لأمراض النفوس في هذا العصر وفيما قبله وزاد عليه بأوجز عبارة وأوضحها، وفتح باباً جديداً للدخول إلى خزانة كنوز القرآن، استعصى فتحه على من حاوله قبله من المصلحين بالنسبة إلى طب أدواء عصرنا هذا، وأتى في هذا السفر الصغير الحجم بالأدلة القاطعة عقلاً ونقلاً من الكتب المنزلة والسنن النبوية التي يتضاءل أمامها كل معاند بما يشفي الغليل، ويبريء العليل، في أمهات المسائل التي تشغل أذهان علماء العصر وعامته. فمنها نبوة محمد ﷺ وإثباتها بالحجج التي تجبر مثبتي الوحي ونُفَاته على الإذعان. والبحث الوافي الشافي في الوحي والمعجزات عند النصارى وعند المسلمين والفلاسفة مما لا تجده في غيره. ومن خواصه: أنه أورد فيه جميع الشبهات القديمة والجديدة التي وجهت للوحي العام والخاص وأجاب عنها بأحسن جواب. ثم خرج إلى المقصود بالذات وهو القرآن مبيناً أسلوبه، وحكمة

تكرار الآيات فيه. وما أحدثه هذا الكتاب العظيم من تأثير وانقلاب في العالم. ثم خصر مقاصده لأصول نذكرها آسفين إجمالاً لضيق المقام. الخ.

***

تقريظ الأديب الكبير الكاتب النحرير الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري

شغلتني أشغال عن مطالعة هذا الكتاب أول مظهره. حتى إذا تفرغت وتهيأت لي الأسباب تجردت في قراءته وتدبره. ولقد تناولته والظن معقود بأنه من جنس ما خرج من الكتب في بابه، على أنني ما كدت أسترسل فيه حتى جعل يتعاظمني شأنه، ويتكاثرني خطبه، وكلما أمعنت فيه زادني إعجاباً به، وإجلالاً لموضعه، حتى خرجت منه ولا يكاد كتاب في بابه يبلغ مداه، أو ينتهي منتهاه.

ولقد يتداخلك العجب من أن أطلق أنا مثل هذه الشهادة في كتاب يخرجه السيد رشيد رضا، وبيننا ما أعلم ويعلم، وما الله تعالى به أعلم، فإن للدين والعلم حقاً يجب أن تكبح له الشكائم، وتسل دونه السخائم، وللحساب الغليظ مقام آخر إن شاء الله.

كتاب (الوحي المحمدي) يرجع موضوعه أو موضوعاته في الجملة إلى إثبات رسالة محمد ﷺ. وأنها خاتمة رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وأن شريعته هي الشريعة الجامعة لكل ما فيه صلاح العالم وحضارته ويسره وأمنه وسعادته في كل مكان، وإلى غاية الزمان، وأن شأنه عليه السلام مع شأن من تقدمه من الرسل الكرام لعلى حد قول المتنبي:

نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً … وأتى فذلك إذ أتيت مؤخراً

ولقد اتكأ المؤلف في تدليله أكثر ما اتكأ على القرآن الكريم، وفي إحسان وإبداع أثبت السيد أنه لولا القرآن ما انتهضت حجة قاطعة على نبوة من تقدم من الأنبياء.

ولقد جعل المؤلف كلما تحول إلى باب أو انحراف إلى مطلب في أسباب الموضوع يتقرى فِرَى عدو الإسلام من الداعين إلى حربه، ومن الملحدين عامة،

وشُبه الشاكِّين من أهله، ومن المتطرفين منهم بالتشكيك في بعض قضاياه، فيفر بها بالحجة فرياً، ويضغمها بالدليل الحاسم ضغماً! فما يدع لأصحابها متنفساً، ولا يجيز لمتنزي الإلحاد مضطرباً.

ولقد قال الكتاب في محمد ﷺ وفي الوحي وفي القرآن. وفي أثره في العالم. وفي معجزات الأنبياء. وفي حاجة العلم إلى الدين. وفي كثير غير ذلك مما ينسق للغرض، ويتجلى به وجه الحجة، فكفى وشفى، وبلغ من الإحسان والإجمال غاية المدى.

وليس من شأن هذا المقال أن يدل على مواضع الإجادة في أبواب الكتاب، بله كل فصل من كل باب. فذلك مما يخرج عن طوق سابغ المقالات، على أن في الكتاب مقامات صلصل فيها البيان الديني أي مصلصل، ولقد يكاد يتحول حسك وأنت تطالعها من البصر إلى السمع، حتى يخيل إليك أنك تسمع صرير القلم. ويحضرك في هذا المعنى قول المتنبي أيضاً:

كالحظ يملأ مسمعي من أبصرا

ولا شك في أن من هذه المقامات الرائعة قول الكتاب في أسلوب القرآن الخاص وإعجازه به، وحكمة التكرار فيه، ولقد وقع في هذا الغرض على حِكَمٍ لم أقع عليها في كتب من تقدمه. على أن المؤلف على عادته. لقد أسرع فَكَاثَرَ بهذا في الفهرس، إذ قال عند الإشارة إلى هذا الفصل (وهو ما لم يسبق لأحد بيانه).

ومن المقامات البارعة في الكتاب القول في معجزات الأنبياء، والفرق بينها وبين كرامات الأولياء، والحد بينهما وبين شعوذة المشعوذين. وآثار رياضة المرتاضين، فلقد جمع في هذا الباب بين ما أُثر في الشرع وما يجري به سنن الكون في لباقة وحسن تعليل، وجودة تفسير وبراعة وتأويل.

ومن هذه المقامات التي تَخْلِب وتروع ما أقام هذا الكتاب من ناصع الحجة على إيفاء الشرع المحمدي على الغاية في تقرير أعلى القواعد وأضبطها للإصلاح الاجتماعي والمالي والسياسي، ويدخل في هذا الباب العلاقات الدولية، ونُظم الحروب وغير ذلك مما يكفل صلاح البشر كافة، ويتضمن رقي المجتمع الإنساني

وبلوغه في أسباب الحضارة تلك المنزلة التي تخيلها أئمة الحكماء ودعاة الإصلاح من قديم الزمان.

ولقد عرض الكتاب غير هذا لمزايا الإسلام وحِكَم أحكامه سواء في العبادات أو في الأسباب الدائرة بين الناس، وبين جهة ارتفاعها على أن تكون من شرع البشر، وأنها أجمع وأكفى، وأكمل وأوفى من كل ما سن الخلق من النُظم بل من كل ما تنزل من الشرائع على جميع الرسل السابقين، عليهم صلوات الله أجمعين، وكل ذلك أجراه المؤلف على أسلوب منطقي سليم خال من الإسراف ومن الشعر والتخييل.

ومما يزيد من قدر هذا الكتاب: أن كثيراً مما جلا واستظهر من القضايا مبتكر لم يُسبق، على أنه لم يكن أقل براعة فيما نقل أو اقتبس، فلقد كان حق لبق في إلحاق كل شيء ببابه، وإقرار كل أمر في نصابه، إلى حضور الشاهد من كتاب الله تعالى وما صح من حديث رسوله ﷺ، وما أُثر عن الثقات من أئمة الإسلام ومن شهادات علماء الإفرنج أيضاً. ومهما يكن من شيء فالكتاب في الجملة مما لا يُطاول في بابه، بل لا أحسبني مسرفاً إذا زعمت أنه يمكن أن يعد بحق إحدى حجج الإسلام. اهـ.

***

تقريظ الكاتب المدني الشهير الأستاذ محمود العقاد، ونُشر في جريدة الجهاد

قال بعد مقدمة فيها قرأه من المباحث الدينية واصفاً صاحب المنار:

«ومزيته على الكُتاب الدينيين في العصر الحاضر أنه خلا من الجمود الذي يصرفهم عن لباب الفقه إلى قشوره، وسلم من تلك العفونات النفسية التي تعيب أخلاقهم وتشوه مقاصدهم، فهو أدنى إلى الصواب وأنأى عن العوج وسوء النية».

(ثم قال) وكتاب (الوحي المحمدي) الذي أظهره صاحب المنار في الأشهر الأخيرة هو من أفضل ما كتب في مباحثه الدينية: توخى فيه كما قال: «أن يكون أمضى مُدْيَة لقطع بها ألسنة الطاعنين في الإسلام من دعاة الأديان الأخرى» وأراد به أن يكون كتاباً «يصلح لدعوة شعوب المدنية الحاضرة إلى الإسلام ببيان البراهين

العقلية والتاريخية على كون القرآن وحياً من الله تعالى لا وحياً نفسياً نابعاً من استعداد محمد ﷺ كما يزعم بعض المتأولين لإعجازه منهم، وبيان ما فيه من الأصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية والدفاعية السلمية التي يتوقف على اتباعها صلاح البشر وعلاج المفاسد المادية وفوضى الإباحة وخطر الحرب العامة التي استُهدفت لها جميع الدول والشعوب في هذا العهد».

وعندنا أن الأستاذ يستجمع الكثير من أسباب الكفاءة الضرورية بتأليف كتاب في هذه الموضوع للغرض الذي أبانه، فهو يعلم من أسرار الأصول الإسلامية ما لم يتيسر في العصر الحاضر إلا للقليلين بين علماء المسلمين، وهو مسموع الرأي في العالم الشرقي، كثير القراء والمريدين في بلاد الإسلام، وهو أسلم فطرة من جميع من سمعنا بهم من المتصدين لهذه المباحث بين الشيوخ والفقهاء.

وقد درست بعض فصول الكتاب وتصفحت بعضها فبدا لي أنه ينهج في الاستدلال العقلي منهجاً كفيلاً بإقتناع العدد الأكبر من قراء هذه المباحث ولا سيما المسلمين، ولا أشك في سعة انتشاره وفلاحه في تفنيد المزاعم والريب التي قد تساور الأذهان بين أولئك القراء، فإن لم يبلغ الكتاب كل غرضه المفصل في فاتحته، فهو بالغ من ذلك الغرض ما يستحق تأليف كتب شتى لا تأليف كتاب واحد، وحسب المؤلف أن يظفر بهذا ليظفر بشيء كثير.

***

كلمة للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المصنِّف الشهير

نُشرت في جريدة البلاغ في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢

(الوحي المحمدي) كتاب من تأليف العالم العلامة السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار الأغر. وغاية المؤلف ثبوت النبوة بالقرآن، ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام.

«وفي الحق أنه كتاب جليل يلفت الأنظار، بما أورده الأستاذ مؤلفه من الأدلة العقلية والحجج النقلية بوضوح وجلاء على طريقة حديثة لم تسبق للمؤمنين في المسائل الدينية».

وقد حاول الأستاذ الفاضل إثبات الوحي بالمعجزات بأدلة منطقية فجاء موفقاً في كثير من بحوثه، وتكلم في درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه، ونفى شبهة منكري عالم الغيب على الوحي، وأظهر أن نبوة محمد ورسالته قائمتان على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وموضوعها. لأن البشر في عهد النبي قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل بارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم الأنبياء عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي، ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال.

ثم خلص الأستاذ إلى الكلام على القرآن فتكلم عن إصلاح أركان الدين التي أفسدها الغير، وهي الإيمان بالله وعقيدة البعث والجزاء والعمل الصالح. ثم جعل لبحوث القرآن عشرة مقاصد كلها منطبقة على المنطق والعقل وحسن التعليل وسلامة التدليل مما تجعل الكتاب مقبولاً لدى الشبان المنورين والميالين لحرية الفكر.

ويقول الأستاذ: إن الكتاب يشمل دعوة شعوب المدنية إلى الإسلام ... ونحن نعلم أن هذا العمل يتطلب مالا كثيراً ووقتاً أكثر، فينبغي للسيد رشيد أن يدعو إلى هذا لا أن يكتفي بالتأليف العربي وحده، يدعو إلى نقل الكتاب إلى اللغات وترجمته وإلا فإن مجرد الكتابة على الغلاف أنه دعوة شعوب المدنية إلى الإسلام لا تكفي. الخ.

***

تقريظ الأستاذ الفاضل الشيخ محمود أبو ريه، نشره بالمقطم

كنت أحسب يوم أن قرأت في الصحف نبأ كتاب (الوحي المحمدي) أنه رسالة صغيرة وضعها الأستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا ليمحص فيها أمر الوحي وحقيقته بعدما كثرت فيه أقوال بعض علماء الوحي وأنكروا إمكانه بما يعرف المسلمون، كما يُفعل في مسائل كثيرة مما يثور حولها الجدل فيضع فيها رسائل خاصة تطلع من قلمه منيرة كفلق الصبح، فتكون الحكمة وفصل الخطاب.

كنت أحسب الأمر كذلك حتى أتيح لي الاطلاع على هذا الكتاب فإذا بي أجد الأمر أكبر مما حسبت وأعظم مما توهمت، وإذا أنا بإزاء كتاب متعدد النواحي متسع الأرجاء لا يقف عند الكلام على الوحي، وإنما يمتد فيحيط بكل ما أوحي به إلى النبي ﷺ.

ونحن لا نحاول هنا أن نظهر للقاريء الكريم كل ما بين دفتي هذا الكتاب من بحوث لأن ذلك يحتاج إلى مقالات طويلة، وإنما نشير إلى بعضها وحسبنا ذلك.

وبعد أن لخص أهم فصول الكتاب قال:

هذا بعض ما جاء في كتاب (الوحي المحمدي) ولا غرو فإن مؤلفه هو الأستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا الذي قال فيه بحق زعيم الإسلام الكبير ومجاهده العظيم شيخ البيان الأمير شكيب أرسلان في معلمته الإسلامية الكبرى (حاضر العالم الإسلامي):

«قد انتهت إليه الرياسة في الجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثة مع الرسوخ العظيم في اللغة ... إلى أن قال: وهو الرجل الذي إذا دعا كل مسلم بإطالة حياته لكان بذلك جديراً».

وإذا كان لنا من كلمة عامة في هذا الكتاب نختم بها هذه الكلمة الصغيرة فإنا نقول: إنه كتاب لا يستغني عنه مسلم، ويجب على كل من يريد من أهل الأديان الأخرى معرفة أمور الإسلام على حقيقتها أن يقرأه ويتدبره.

محمود أبو ريه

تقريظ الأستاذ الشيخ عبد السميع البطل المدرس بمدرسة رقي المعارف الثانوية
نُشر في جريدتي البلاغ والجهاد

استُهدف الإسلام منذ فجر التاريخ، لكثير من الشبهات التي كان يصوبها نحوه خصومه من الملاحدة، وأعداؤه من السياسيين، وكان العلماء في كل عصر يتصدرون للرد على هذه الشبهات ويجدعون أنوفها، فيظل واضح الطريق، نيِّر الدليل، ثم يسير الزمن بالناس، وتتلقح أفكارهم بعلوم ومعارف جديدة، فتتجدد لهم شبهات، وتعصف بهم أعاصير، فإذا بالعلماء المستقلين يكرون على المهاجمين، يجندلونهم بشباة أقلامهم، وقواطع حججهم، فما هو إلا أن نرى الباطل منكسراً والحق منتصراً.

وقد تجددت في العصر الحاضر شبهات على الإسلام كثيرة، وهُوجِمَ من أعدائه في إحكام وقوة، ولم يَدَعو تنفيذاً يأتي على بنيانه من القواعد إلا سلكوه، ولا سلاحاً يجهز عليه إلا صوَّبوه، ولولا حصانة الإسلام الطبيعية، ومنعته الذاتية لَخَرَّ مضرجاً بدمائه، ولأصبح أثراً بعد عين.

ذلك أن علماء الإسلام وهم ورثة النبوة، والقوامون على حراسة الدين، قد شغلتهم المناصب الدنيوية فأعطوها كل أنفسهم، ومكنوا لها من قلوبهم، وانصرفوا عن النظر في القرآن وعلومه، مخلدين إلى أرض التقليد، عاكفين عليه. فلم يسايروا الزمن، ولم يتمشوا من الرقي الفكري، وأصبحوا يعيشون في عالم وحدهم، لا يدرون ماذا يقال عن الإسلام، ولا بم يهاجم وكيف يهاجم، ولئن سألتهم ليقولن «إن الإسلام بخير، وله رب يحميه» وهو جواب العجزة ومن لا حيلة لهم.

ولكن الله لا يذر الإسلام بغير سيف يحميه، ولم تخل الأرض من قائم لله بحجة. فهذا معقل الدين وسنده عالم الإسلام السيد محمد رشيد رضا قد أخرج لنا في هذا العام كتابه (الوحي المحمدي) يثبت فيه النبوة بالقرآن، ويدعو شعوب المدنية إلى الإسلام -دين الأخوة الإنسانية والسلام- فكان خير كتاب أُخرج للناس في بابه.

افتتحه المؤلف الكبير بمقدمة فياضة في بيان موضوع الكتاب، وحاجة البشر إلى الإسلام، وبيان الحجب التي تحول بين الإسلام والإفرنج. ثم أفاض في الموضوع بما أفاء الله عليه من علم غزير، وعقل منير.

والسيد رشيد دائرة معارف إسلامية واسعة، وهو حين يكتب في الإسلام، لا يدع قولاً لقائل، ولا يترك استدراكاً لمستدرك، وأشهد لقد كنت أقرأ مقالات (الوحي) وهي لا تزال تنشر تباعاً في (المنار) فيأخذ مني الإعجاب بها كل مأخذ، ويسبق لساني بالدعاء لصاحبها بطول العمر والسلامة كفاء خدمته للإسلام.

بل أشهد ويشهد معي جميع الذين اطلعوا على كتاب (الوحي المحمدي) أنه لم يكتب مثله كاتب في الإسلام، وأنه خير كتاب في الدعوة إلى الإسلام وبيان مزاياه، لا يستغني عنه مسلم، ولا يسد غيره مسده في هذا العصر، ولا أستثني رسالة التوحيد للأستاذ الإمام فإنها على طرافتها وقوة حجتها وبلاغة عبارتها، قد يقال فيها: إنها رأي لصاحبها وصل إليه بعد دراسة للإسلام عميقة، بل قيل «إن رسالة التوحيد فلسفة لا دين» ذلك أن الآيات التي استشهد بها المؤلف رحمه الله كانت قليلة جداً، اكتفاء بالإحالة على الحجج العقلية، ووقائع التاريخ الصادق. أما (الوحي المحمدي) فإنه يثبت كل شيء بالقرآن، ويضع يد القاريء على موضعه من السور في سيل أَتِي ونور محمدي.

وجملة ما يقال في الكتاب: أنه أحسن ما أُلف في العقيدة الإسلامية في هذا العصر، وأنفع كتاب في الدعوة إلى الإسلام وصد غارات المبشرين، وأقرب إلى عقول المتعلمين المدنيين، وإني لأرجو أن يُترجم إلى اللغات الحية، وحينئذ أرتقب أن تقوم ثورة فكرية في العالم الغربي تتكشف عن فوز الإسلام ورجحان كفته. جزى الله المؤلف خير الجزاء.

عبد السميع البطل

***

تقريظ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد السائح النابلسي

عضو محكمة الاستئناف الشرعية في فلسطين

ونشره في جريدة الجامعة الإسلامية في يافا

منذ مدة وأنا أفكر في كتاب يصلح أن يكون هادياً وبشيراً للأمم غير الإسلامية بأسلوب مألوف لديهم، وعلى نمط يكون في متناول جمهرتهم حتى يُنَادى في الأوساط الأوربية والأميركية بالدعوة إلى دين الإسلام بالحجة والبرهان وامتلاء النفس قناعة وطمأنينة، ومع هذا يتيسر لنشئنا المثقف ونابتتنا الزاهية أن تتصفحه وتطالعه، ويزيل ما يترددها من شبهات، ويزيح ما يعتورها من اعتراضات. فلم أعثر على ذلك الكتاب إلى أن اهتديت إلى كتاب (الوحي المحمدي) للعلامة المحقق السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، ذي الآراء الإسلامية الناضجة، والأبحاث الدينية الموفقة، فوجدت فيه الضالة وتحققت فيه الرغبة.

إني قانع كل القناعة أن القرآن كفيل بحاجة مطالعه، قمين بأن يملأ نفس قارئه إيماناً وحكمة وعلماً وأدباً وسياسة وخبرة، ولكن هذا يتوقف على أن يكون القاريء خبيراً باللغة العربية ملماً بعلومها متضلعاً من بلاغتها وفصاحتها، ولا ريب أن هذا غير متيسر لكثير من أبناء العربية وعلماء المسلمين، فكيف بغير العرب وغير المسلمين؟ خصوصاً وأن المسلمين أعرضوا عن الاستفادة من هذا الكتاب المقدس الاستفادة اللائقة به وأصبحوا لا يعتنون إلا بمظاهر ختمه فقط ومراسمه الشكلية.

من أجل هذا كانت حاجة المسلمين إلى كتاب يبشر بدينهم على الوجه الذي بينا ماسة وشديدة.

وليس من شك في أن هذا العمل يتطلب تفكيراً عميقاً وخبرة واسعة ووقتاً غير قصير، حتى يخرج إلى الملأ مستكمل النواقص وافياً بالحاجة. وإن الأستاذ السيد محمد رشيد هو أجدر من يقوم بهذا العمل وأحق من يتحمل هذا العبء، وإن مبادرته إلى إخراج هذا المؤلف مسارعة إلى أداء فرض محتم عليه، وقيام بواجب لا

مناص منه لكفاءته النادرة، وشهرته في العالم الإسلامي شهرة فائقة، والاعتماد على آرائه، والاستفادة من نتائج قريحته والوثوق من خبرته وسعة اطلاعه ...

وليس من شبهة في أن المقصود الأول من هذا الكتاب جعله في متناول العلماء غير الإسلاميين، وخصوصاً غير العرب كما ذكر المؤلف نفسه ...

ولا يتيسر هذا إلا إذا ترجم للغات الأجنبية من قِبَل متضلعين بتلكم اللغات عارفين بأسرارها فينبغي والحالة هذه على الهيئات الإسلامية أن تقوم بهذا الواجب. إلخ.

***

تقريظ أمير البيان، شكيب أرسلان

إن المسلمين على بينة من أمرهم لا يحتاجون إلى دعاية ولا إلى التماس الأدلة حتى يعتقدوا بوجود واجب الوجود الذي لا يمكن العقل البشري أن يتصور هذا الكون بدونه، وكذلك لا يفتقرون إلى الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ بعد أن تلقوا خلفاً عن سلف النور الذي أُنزل عليه، والذي ما زال ينيرهم من العهد المصطفوي إلى الآن. فكتاب الوحي المحمدي للأستاذ العلامة حجة الإسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا لم يُكتب في الحقيقة للمسلمين لأنه كتاب يقيم الأدلة على صحة أمر يحيا المسلمون ويموتون عليه، ويرون جميع براهينه من قبيل البديهيات التي لا تحتاج عندهم إلى برهان كما لا يحتاج النهار إلى دليل. وإنما وضع الأستاذ هذا الكتاب للأوروبيين الذين يريدون أن يعلموا ما عند الإسلام من الأدلة على صحة الوحي المحمدي، والذين منهم من إذا أنار لهم الدليل لم يكابروا فيه تعصباً وعدواناً وصدوداً عن رؤيته. وقد كتبه أيضاً لكل من نشأ نشأة أوربية أي خالية من التربية الإسلامية التي يكون الناشيء قد ارتضع فيها مباديء الإسلام مع لبن أمه فيقال إنها رسخت فيه من الصغر، ولما كان جميع من يقرءون العلوم العصرية اليوم، ويتعلمون بحسب برامج الحكومات الإسلامية الحاضرة هم في الحقيقة أشبه بناشئة الأوربيين

ولو كانوا مسلمين نسباً كان هذا الكتاب موجهاً أيضاً إليهم، لأنهم في حكم الأوربيين من جهة فقد التربية الإسلامية أو على ما يقرب من ذلك.

فلهذا كنا ندعو لقراءة هذا المؤلف ليس الأوربيين فحسب بل ناشئة المسلمين أيضاً، ولا سيما الناشئة التي أبت الحكومات الإسلامية إلا أن تطبعها بالطابع الأوربي لأننا في هذا العصر مغلوبون وأوربة هي الغالبة، والمغلوب مولع بتقليد الغالب حتى في الخطأ كما قال ابن خلدون. فالأستاذ الحجة يسرد للمرتابين الأسباب التي تحمل المسلم على أن لا يرتاب بصحة الوحي النازل على محمد عليه السلام. يقول:

وههنا لخص الأمير ما أطلنا به من حال النبي ﷺ قبل النبوة ثم قال:

ويقول السيد رشيد: إنه من المقرر عند علماء النفس وعلماء الاجتماع أن من بلغ سن الخامسة والثلاثين ولم ينبغ في علم أو عمل عالمي عظيم لا يمكنه بعد ذلك أن يقوم بشيء منها أُنُفاً (بضمتين) أي جديداً لم يسبق إليه فضلاً عن الجمع بينهما، والحال أن محمداً ظهر بهذا الأمر العظيم، وبهذا البيان الإلهي الذي لم يعهد العرب مثله، وذلك بعد الأربعين، فلم يكن قبل هذا التاريخ استعد له بشيء ولا وجد ما يدل عليه من قول ولا فعل ولا علم ولا عمل.

ثم تكلم أمير البيان في زعم بعض الإفرنج أن النبي ﷺ كان يصاب بنوبة عصبية وأفاض بمعنى ما فندناه به، ثم قال:

وعلى كل حال قد اجتاز الأوربيون المرحلة الأولى من مراحل الاعتقاد بصحة دعوة محمد فقد لبثوا طوال القرون الوسطى يزعمون بتأثير كلام رهبانهم أن محمداً كان كاذباً فرجعوا الآن عن هذا القول إلى القول بأنه كان صادقاً معتقداً ما يقوله حقاً، وأن هذا القرآن كان ينزل عليه، وكان يعتقد هو أنه من عند الله وكان يرى المَلَك ماثلاً أمامه، ولكن هذا كان نتيجة المرض بقول بعضهم أو التخيل بقول الآخرين، فادّعاء الكذب على محمد قد سقط اليوم في أكثر بلاد النصرانية، وقد اجتيزت المرحلة الأولى، فبقيت المرحلة الثانية وهي تصديق كون محمد عليه السلام

إنما كانت تحدث له الحالة غير المعتادة لسبب وحي كان يأتيه من قِبَل الله تعالى لا بمجرد التخيل ولا من قِبَل المرض. وليس بعجيب أن يتأول هذا التأول أهل عصر مادي كهذا العصر يصعب عليهم الاعتقاد بالغيب وتعليل الأمور بغير ما يقع تحت الحس. ولكنهم لو تأملوا لوجدوا أنفسهم عاجزين عجزاً تاماً بإزاء الأسرار الكونية لا يحلون منها مشكلاً إلا وصلوا إلى سد واقف في وجههم لا يقدرون أن يجتازوه إلا بعد التسليم أن هناك قوة خارقة للعادة، وأن القول بوجوده أقرب إلى العقل وإلى العلم من هذه التمحلات الواهية التي يحاولون بها تعليل الحوادث كلها بالأسباب المادية، ويلجئهم الأمر في أكثر الأحيان إلى تلمس الافتراضات المبنية على غير أساس.

إن كتاب (الوحي المحمدي) الذي جاء به الأستاذ السيد رشيد رضا في هذه الأيام قد أتى عصره على قَدَر، لأنه زمن صار يجب فيه التعليل حتى في الأمور التي هي معدودة إلى اليوم من البديهيات. وما دمنا نقفو الأوربيين صاعداً ونازلاً، ولا مناص لنا من هذا الاقتداء، كان لابد لعلماء المسلمين من إعداد الأسلحة العقلية اللازمة لمكافحة الشبهات التي هي من أصل أوربي، فكتاب الأستاذ وافٍ بهذا الغرض لا يخطر في البال معنى من المعاني التي يقتنع بها القاريء بعلو مزايا الإسلام إلا وقد أشار إليه (ثم تكلم عما في القرآن من الآيات العلمية الموافقة لما تقرر في العلوم العصرية وقد ذكرناها في آخر الكتاب ووعدنا ببسطها في الجزء الثاني منه).

***

كلمات في الوحي المحمدي

أنشر هنا بعض ما جاء من المكتوبات الخاصة لبعض قراء كتاب (الوحي المحمدي) من طبقات أهل العلم والرأي في الأقطار المختلفة فيما كان له من التأثير في أنفسهم.

(كلمة عَجْلَى لرب السيف والقلم، العالِم العَلَم سليمان باشا الباروني)

حضرة العلامة الجليل، المتفاني في إعلاء كلمة الله، وإحياء سنة رسول الله، فخر محققي العصر، الأستاذ السيد رشيد رضا. دام موفقاً.

السلام عليكم من أخ لك في الله، مولع بتتبع أخبارك، ومطالعة آثارك، معجب بجهادك في دفع شبه الملحدين، وتأييد حجج المؤمنين. هذا وقد تلقيت بيد الاحترام هديتك الثمينة (مؤلفك الوحي المحمدي) فتتبعت -بشغف زائد- أبوابه، وتفصحته على سبيل الإجمال (الآن) فكان في نظري سيفاً بَتَّاراً لرقاب أعداء الدين، وحجة بالغة للمؤمنين، فلله جهادك العظيم، ولله قلمك الفياض.

أمدك الله بروح من عنايته، ووفق رجال الإسلام إلى اقتنائه والعمل بما فيه، وسأكتب إليك غير هذا بعد أن أتفرغ لمطالعته مع تأمل إن شاء الله، ودُم معززاً ترساً للإسلام.

بغداد في ٢٤ صفر سنة ١٣٥٣ من أخيك المخلص سليمان الباوروني

(الكتيب الوجيز، والمغني عن الوسيط والبسيط، للأستاذ المستقل)

(عبد الرحمن فهمي أمين السر لتأسيس الوفد المصري من مصطافه في النمسة)

سيدي الأستاذ الجليل، السلام عليك ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد فرغت من تلاوة مؤلفك الفذ (الوحي المحمدي) ولا أقول فيه أكثر من أنني لم أعثر مدة حياتي على كتاب انشرح له صدري، واطمأن له قلبي، وارتاحت له كل مشاعري، بعد كتاب الله غير (الوحي المحمدي) فجزاكم الله خير الجزاء عن الإسلام

والمسلمين. وإن هذا المؤلف الجليل القدر، لجدير بأن يقتنيه كل مسلم ويتلوه مثنى وثلاث ورباع، وهكذا حتى يستوعب كل ما فيه من درر وآيات بينات يرد بها بقدر استطاعته أقوال الملحدين من أمته، ويدفع به سيل المهاجمين من غيرهم.

متعك الله بالصحة العافية لتبقى ذخراً للإسلام والمسلمين، والسلام عليك وعلى من تحب وتختار. فينا في ٥ يولية سنة ١٩٣٤ المخلص عبد الرحمن فهمي

(كتاب سعادة عالم التاريخ، ومربي العلماء الأستاذ أمين باشا سامي الشهير)

حضرة صاحب الفضل والفضيلة العالم العلامة الأستاذ الشيخ رشيد منشيء المنار، ومصدر العلم، والمفيض على العالم أسطع الأنوار.

اليوم بحمد الله أتممت مطالعة كتابك الجليل (الوحي المحمدي) فحيا الله منك براعتك وإخلاصك، فقد صورت فيه عواطفك الشريفة فأبدعت تصويرها حتى زهاها الحسن، فأهنئك بهذه المكانة السامية من الأدب والتوفيق إلى أقوم المراتب العالية في تفسير آي الله الكريم. وأشكر لك شكر المخلص الحميم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الداعي أمين سامي

محطة رشدي باشا برمل الإسكندرية في ٦ أغسطس سنة ١٩٣٤

(كتاب علامة الأكراد الشيخ عمر القره داغي)

(المدرس بكردستان العراق في بلدة سليمانية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد رسالته ببراهين هادية لأولي الألباب، وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الحساب.

(وبعد) فقد وقفت على كتاب (الوحي المحمدي) للعلامة الشهير، والفهامة النحرير، السيد محمد رشيد رضا أطال الله عمره، فوجدته حاوياً لحقائق قامعة لغياهب شُبَه المتمردين والمبتدعين، وفوائد ترشد المتحيرين، وفُلْكاً مشحوناً بدرر

فرائد الشواهد النقلية الباهرة، وفَلَكاً مرصعاً بكل كوكب دري تَوَقد بالنكت والدلائل العقلية القاهرة، وقد أتقن فيه براهين إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وما يتعلق بها واستقصاها، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولخص فيه نكتاً قرآنية بحيث لم ينسج أحد على منوالها ولم تسمح قريحة بمثالها، يذعن بها العالمون، ولا يجحد بها إلا القوم الظالمون. فشكرت الله تعالى على تزيين عصرنا بوجود هذا الحبر الذي هو علامة الزمان، ولا يختلف في كمال فضله اثنان، لا زال مستخرجاً من بحر علومه أمثال هذه الجواهر، ومتلألئاً من سماء فضائله هذه النجوم الزواهر، أدام الله نفعه للمسلمين، ووفقه إلى نشر هذه الآثار المؤيدة للدين، والدافعة لظلمة أوهام المبطلين، و صلى الله على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

في ٣ صفر سنة ١٣٥٣ ابن القره داغي عمر

(كتاب الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحميد الإمام بقرية (ته نكي سدر))

(التابعة للسليمانية)

بعد تقديم مقامات الاحترام، وتبليغ قصارى مدارج السلام، إلى محضركم الملفوف بالعلم المذاب، والكمال المستطاب.

إن سعيكم في سبيل توطيد أركان الدين المبين لمشكور وعملكم لتوثيق عرى المودة بين طوائف المسلمين لمأجور، وجهادكم للذب والدفاع عن حوزة الإسلام لمبرور، ولا يخفى لدى ذوي البصائر ما لأناملكم الشريفة من اليد الطولى على آحاد المؤمنين، ولخريطة خيالكم الوقادة من الرئاسة العظمى على الناس أجمعين. فلله الحمد والمنة والشكر والنعمة والثناء، حيث لا يترك أمر هذه الأمة اليتيمة شتى، ولا يجعل شأنها بينها متفرقة فوضى، بل يبعث في كل عصر من يجمع لها شملها، ويلم شعثها. من ينكر ما لكم على العالم الإسلامي من النعمة العظمى، والفضيلة الكبرى، مع أن ما تقاسونه من السهد والسهر خلال الليالي والأيام وما تتجرعونه في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وهي الحنيفية البيضاء، والشريعة السمحة الأحمدية الغراء، من المرارات التي لا يفي بها

التقرير، ولا يبلغها التحرير، لأن الوجدانيات لا تُنال بالتعبير، فجزاكم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، آمين.

وإن مما هز العالم وفي الآفاق لمع، وسَر آدم وبنيه أجمع، إلا مَن قلوبهم في أكنة، وعلى أبصارهم غشاوة، وأسدلوا على مخيلتهم الجهالة والغباوة - تصنيف لطيف نبع من مناهل أنامل حضرتكم الأستاذ، وتفجر من ينبوع جمجمة ذلك الفاضل الملاذ، فانتشر في الآفاق صيته وصداه، واشتهرت لدى الفضلاء والعقلاء لطافة مبناه، ولا غرو لأن موضوعه موضوع طالما طاف حوله الفحول وتزاحموا عليه بالمعقول والمنقول، الحق يقال: ما أتوا بالْمُصَفَّى المغربل ولا بالْمُنَقَّى المنخول، وهو إثبات الوحي المحمدي، المتوقف على إثبات الوحي المطلق. توقف الكل على الجزاء المادي المستدعي لإثبات عالم الغيب الذي هو ركن بل أساس للديانات كلها، يرد كيد الماديين على نحورهم بالأدلة والبراهين الواضحة، والسلطان والحجج اللائحة.

نعم إن الأمور مرهونة بأوقاتها، وإن زماننا هذا لأحوج الأزمان إلى هذا الكنز الثمين، ألا يرى أن الحق منكوب بدعايات الزنادقة المارقين، بدوام الخافقين في المشرقين، ولعمري أن من غاص بالفكر في مستجدات ذلك العباب، وسرح النظر في مكنونات ذلك الكتاب، يستبين أن الديانة الإسلامية في الكفة الراجحة وأن نبيه عليه السلام جاء بالحجة الواضحة، وإنه لنبي عظيم مؤيد من الله القادر، لم ير له مثلاً إنسان عين الإنسان، ولن يراه أبداً، فإني أرجو من حضرتكم أن تسمحوا من ذلك الكتاب بنسخة أو نسختين كيلا لا تحرم بلادنا عن شذاه ورياه، يريحكم الله في الدارين به وبأمثاله التي هي من ثمار حياتكم النافعة، وهذا الحقير لا يتعاطى ما يعود عليكم بالغبن والخسران والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ١٨ شعبان ١٣٥٣ — عبد الحميد الإمام

***

(أول كتاب من حضرة صاحب السعادة هارون سليم باشا أبو سحلي)

(مدير المنوفية في ذلك العهد)

سيدي الأستاذ الأجلّ السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد وصلني كتاب (الوحي المحمدي) الطبعة الثانية يوم سفري في رحلة بحرية إلى مرسيليا، وكانت فرصة لمطالعته كله، وقد خرجت منه بأنه خير ما أُخرج للناس في موضوعه. وقد أعطيت التعليمات لمجلس المديرية لطلب ٦٦ نسخة ليكون في كل مدرسة أولية وابتدائية نسخة. ولما كان واجب كل مسلم نشر هذا الكتاب بأوسع ما يمكن أرجو أن ترسلوا باسمي ٣٠٠ ثلثمائة نسخة على محطة شبين الكوم لتوزيعها وثمنها ٣٠ جنيه حسب البيان الوارد في كتابكم نرسلها عند إتمام التوزيع، وأختم كتابي هذا بتوجيه واجب الشكر لكم تلقاء هذا المجهود العظيم المضني، وإني في انتظار الجزء الثاني ولكم وافر التحية من المخلص. في ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٤ هارون سليم

(المؤلف) إن هارون باشا هذا من خير رجال حكومتنا عناية بالدين علماً وعملاً، بل لا نعرف له في رجال الإدارة مثلاً، وقد طلب منا بعد ما تقدم مائتي نسخة ثم أرسل ثمنها، ولما كان المعهود من أمثاله رجال الإدارة أن يوزعوا على وجهاء مديرياتهم كثيراً من الكتب غير النافعة محاباة لأصحابها فيقبلها الوجهاء إرضاء للمدير، على كراهة موضوعها وغلاء أثمانها، وكان يعلم أن مثلي ينكر ذلك عليهم - كتب إليّ أنه لم يتبع سنتهم، وإنما بين للوجهاء موضوع الكتاب في إقامة حجة الدين وبيان حقيقته، وأنه يعتقد أن قراءته واجبة عليهم وعلى أولادهم ولا سيما تلاميذ المدارس ويخيرهم، وإني إذا شئت كتب إليّ أسماء من اشتروه لأسألهم، فكتبت إليه: لا إنكار من يدعو إلى الله فيما يتخذ من حض الناس على معرفة عقيدتهم وأصول دينهم، فإنه يصدق على هؤلاء ما صح في حديث من «يقادون إلى الجنة بالسلاسل» ثم اتفق أن رأيت نقيب الأشراف للمنوفية بمصر فأخبرني عن مسلك المدير في الترغيب في الكتاب وكيف تلقوه بالقبول شاكرين.

(كتاب للفاضل الغيور الشيخ محمد عثمان علي اليماني في إلدورت – غنيا)

بسم الله

حجة الله على العالمين فضيلة الأستاذ الأفخم، والمصلح الأعظم السيد محمد رشيد رضا المجدد لدين الله والناشر لوحيه، أمد الله له في الحياة منصوراً، ولا زال لإعلاء كلمة الله ظهيراً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فأرفع لفضيلتكم بأنه وافاني كتابكم (الوحي المحمدي) فخررت ساجداً لله شكراً عندما ظهر لي انتصار نوره الساطع، المنذر من لا يؤمن به بعذاب واقع، ما له من دافع، وكم كان فرحي عظيماً، وسروري جسيماً، لا أستطيع أن أشرحهما، فتلوته مراراً، وكلما كررته ازداد شغفي حباً لتلاوة كتاب الله وتدبر معانيه، وزادني همة ونشاطاً في تبليغه إلى أبناء وطني المهاجرين، وحضهم على نشر الدين في هذه المستعمرة وأحيائها التي تقلص منها ظل الإسلام السائد سابقاً، وتهدمت فيها لغة القرآن، وتقوض منها مجد الإسلام العربي الزاهر، في العصر الغابر، بسبب تفريط مسلميه في نصرته، وركونهم إلى التوسل بأصحاب القبور، والتقرب إليهم بالقرابين والنذور، والآن بفضل الله وإرشاد مناركم الأغر، شرعت تتلاشى البدع والخرافات، وتضمحل العقائد الفاسدة في أبناء الناطقين بالضاد.

نعم يا صاحب الفضيلة لقد أرهقتمونا بنعمكم الروحية، وتعاليمكم الدينية، التي أخرستنا حيرة بأي لسان نقدم شكراً، وجوارحنا وإحساساتنا كلها ألسنة شكر. يا ليت شعري كيف أشكر؟ ويا ويح قلبي كيف أثني وأحمد؟ بعد أن أثنت عليكم نجوم الهدى، وكواكب الإرشاد، وشموس البلاغة، وأعلام الإسلام، وأرباب الأقلام وأمراء البيان، ولا يسعني والضعفاء إلا الدعاء لكم بما يحبه الله ويرضاه، وأن أهنئكم بأصدق التهاني على نجاحكم الباهر في هذه المساعي الجليلة للإسلام وأهله التي سيشتاقها كل سيد، ويقصر عن إدراكها المتناول، ولاسيما إبرازكم لهذا (الوحي المحمدي) المقدس أمام الأديان والملل نقياً من الخرافات والبدع التي ألصقها بها علماء السوء المبتدعون، وكانوا عليه حجاباً من اهتداء

العقلاء ومفكري الأمم الراقية بهديه المبين ووسائل لمطاعن الملحدين، ومثالب المكذبين، ولمَّا مزقت هذه الحجب الجسام ببيانك، ودمغت حججهم ببلاغته السماوية، انقلبوا على أعقابهم خاسئين، بتحدي آياته الكونية وعجائبه العصرية، ومعجزاته السرمدية، فأخرست أفواههم عن الجدال، وبهرت أعينهم عن الاحتقار، ودككت عقائدهم عن النضال، حتى آمنت القلوب، ولكن الألسنة والأفواه بآيات الله يجحدون ... إلخ.

(كلمة الأستاذ العلامة النقادة الشيخ محمد البشير النيفر التونسي)

(من علماء جامع الزيتونة الأعلام من كتاب طويل له في رمضان سنة ١٣٥٣)

وكنت في أثناء هذه المدة أطالع مناركم المنير، وما يتخلف عني من أعداده أشتريه من إحدى المكتبات، وكان فيما قرأت من مباحث التفسير ما كتبتم عن الوحي المحمدي، فحمدت الله أن كان من علماء المسلمين في هذا العصر مثلكم، وكنت أقول: لو قرأ هذا منكرو الرسالة المحمدية بإنصاف وفهموه حق فهمه لآمنوا بسيدنا محمد ﷺ كلهم أجمعون.

وقد كنت قرأته في المنار متفرقاً، ثم أعدت قراءاته متصلاً في الجزء الحادي عشر من التفسير، فجزاكم الله أفضل ما جزى به خادماً لدينه، وبارك في عمركم تخرجون للناس أمثاله، فتكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى.

وما أنكرت فيه إلا كلمات في آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أذكر أنني رأيت مثلها في إحدى مقالاتكم في (شبهات النصارى وحجج الإسلام) اهـ.

***

قد اختصرت في هذه الطبعة الثالثة أكثر التقاريظ التي نشرتُ فيما قبلها، وحذفتُ بعضها لطولها وما فيها من التكرار ونقل بعض مسائل الكتاب للتنويه بها أو مشاركة أصحابها لنا فيها، وبهذا وجدنا مكاناً لغيرها، ولم نتصرف بشيء من ذلك بزيادة ما، ولا باختصار يغير المعنى.

حكمة نشر هذه التقاريظ

الغرض من نشر هذه التقاريظ إعلام قراء الكتاب من غير المسلمين (ومن الجامدين على تقليد المتقدمين منهم، الذين إذا رأوا كتاباً في الدين لمؤلف عصري أعرضوا عنه ولم يقرءوه لظنهم أن الأحياء لا يوثق بعلمهم) أن ما فيه من أصول الإسلام وحكمته متفق عليه وليس رأياً مني فيه، وإن كان فيه ما لا يوجد في غيره.

ذلك بأن الأحرار المستقلي الفكر منهم يقيسون دين الإسلام على غيره من الأديان، فيظنون أنه أكثر عقائده وأصوله مسلمات غير متفقة مع العقل والعلم الصحيح والمصالح العامة، ويظنون أن ما يسمعون من حكماء المسلمين موافقاً لذلك هو رأي لهم، كما قال بعضهم في رسالة التوحيد للأستاذ الإمام: إنها فلسفة الشيخ محمد عبده سماها إسلاماً، وقال لي مستر متشل انس الإنكليزي الذي كان وكيلاً للمالية بمصر مراراً عندما كنت أشرح له بعض أصول الإسلام وحكمته: هذا فلسفة لا دين، حتى قال لي مرة: إذا كان علماء الأزهر يوافقونك ويوافقون الشيخ محمد عبده على ما تقولون فأنا أعلن أني مسلم.

وهذا كتاب فيه من حكم الإسلام في أهم أصوله وفروعه أكثر مما في رسالة التوحيد، ومما كان يسمعه مني متشل انس وأمثاله، وفيه من شواهد القرآن ما لا يمكن أن يقال معها إنه من رأيي، وقد اتفق على الشهادة له العلماء والأدباء وكتاب الأقطار من جميع الطبقات، وفي مقدمتهم شيخ الأزهر بما هو صريح في تفضيله على جميع الكتب في موضوعه (إثبات الوحي والنبوة وإعجاز القرآن وأصول الإسلام الدينية والمدنية) وسيرون من فائدته في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وفي تثبيت المسلمين في دينهم ما هو فوق ذلك إن شاء الله تعالى، ولله الفضل والمنة ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾، وصلوات الله وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين، وآله وصحبه الهادين المهديين، وجميع المهتدين بهديه إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

***

فهرس كتاب الوحي المحمدي

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

***

صدر حديثاً للسيد الإمام محمد رشيد رضا:

١ - حقيقة الصيام وحِكَمِه وفوائده

و إثبات شهر رمضان وبحث العمل فيه وفي غيره بالحساب

٢ - مناسك الحج أحكامه وحِكَمِه

٣ - مختصر ذكرى المولد النبوي

٤ - A Brief Account of the Life of Prophet Muhammad

In Commemoration of His Birthday

٥ - يُسْر الإسلام وأصول التشريع العام

في نهي الله ورسوله عن كثرة السؤال

٦ - الربا والمعاملات في الإسلام

٧ - نداء للجنس اللطيف

في حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام

٨ - المنار والأزهر

٩ - تفسير سورة يوسف عليه السلام

١٠ - محاورات المصلح والمقلد والوحدة الإسلامية

١١ - ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد ومنافاة الإسلام

١٢ - الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام، دين الأخوة الإنسانية والسلام

يصدر قريباً إن شاء الله:

تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار

Al-Wahi Al-Muhammadi

The Revelation of the Qur'an

To Muhammad

(Peace Be Upon Him)

The Qur'an as a Proof of His Prophethood

A Call to Islam, the Religion of Brotherhood

And Peace, to All Civilized People

Mohamed Rashid Reda
Al-Manar Proprietor
(1865-1935)

Dar Almanar
6012 Beard Avenue North
Minneapolis, MN 55429, USA
612-730-7217 & 763-561-0041
daralmanar@hotmail.com

دار النشر للجامعات
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤
E-mail: darannshr@link.net

Printed in Egypt